الطلب الأخير

غراهام سويفت

FIFA WORLD CUP
RUSSIA 2018

ترجمة إيمان أسعد

غراهام سويفت

الطّلب الأخير

ترجمة: إيمان الأسعد

الطّلب الأخير

هذا الكتاب بدعم من:

مبادرة 1001 عنوان

الطّلب الأخير

تأليف: غراهام سويفت
ترجمة: إيمان الأسعد
تحرير: أحمد العلي

الترقيم الدولي (ISBN): 978-9948-10-103-1

روايات
REWAYAT

إصدارات روايات (إحدى شركات مجموعة كلمات)
الطبعة الأولى 2018

القصباء - مبنى D
هاتف: 5566696 6 971+ فاكس: 5566691 6 971+
ص. ب. 21969 الشارقة، الإمارات العربية المتحدة
info@rewayat.ae
www.rewayat.ae

جميع الحقوق محفوظة © روايات 2018
محتوى هذا الكتاب لا يعبر بالضرورة عن رأي الناشر

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي
Last Orders
Copyright © 1996 by Graham Swift

KALIMAT GROUP ▪ مجموعة كلمات

مقدّمة المترجم

لا شيء يذكرك بحياتك مثل الموت، يقطع عليك اعتيادية مرور أيامك مثل رنين عربة إطفاء تعدو بخيولها الهائجة على عجل أمام عينيك. وهذا ما حصل مع شخصيات رواية "الطلب الأخير" للروائي البريطاني غراهام سويفت. فما إن قرر جاك تغيير حياته في سن متقدمة، مع بيع بيته ودكان الجزارة الذي ورثه عن أبيه والانتقال مع زوجته للاستقرار في (مارغايت) على شاطئ البحر، إذ بمرض سرطان المعدة يباغته فجأةً ويتوفى في ظرف ست أسابيع. طلبه الأخير على فراش الموت أن ينثر رماده في البحر من على حافة الرصيف البحري. الرسالة التي دون عليها الطلب الأخير لم يوجهها إلى شخصٍ بعينه، بل وجهها " إلى من يهمه الأمر". وهكذا اجتمع أصدقاؤه الثلاث، راي، ڤيك وليني، الممتدة صداقتهم لما يقارب الأربعين عاماً، مع ابنه ڤينس، وانطلق الأربعة في رحلة على الطريق من (بيرموندزي)، مسقط رأسه، إلى (مارغايت) في سيارة مرسيدس ذات لونٍ أزرق مَلَكيّ. في الواقع ليسوا بأربعة، إن أخذنا بملاحظة راي، أن هناك خمسة في السيارة مع احتساب جرّة رماد جاك. لكن راي لم يصب العدد، فالمرسيدس لا تحمل خمسة أشخاص وحسب، بل ستة، والسادس هو أنت.

"ليس بيومٍ عادي مثل أيام حياتك." هكذا يستهل الروائي البريطاني غراهام سويفت روايته " الطلب الأخير" على لسان شخصيته الرئيسية راي. الجملة ليست موجهة لشخصية أخرى، بل موجهة إليك، للقارئ. ما إن تقرأ تلك الجملة تجد نفسك وقد أصبحت معنياً بكل حواسك وتجاربك ومشاعرك ومخاوفك وأحلامك في كل كلمة تسمعها، أنت الآن شخصية رئيسية في الرواية التي تقرأها بين يديك، في يومٍ عادي من أيام حياتك، عن مجموعة من الناس تعيش جنوب لندن، لكن لها أن تنتمي إلى أي مكان، تنتمي حتى إلى البيت الذي تعيش فيه.

قبل ست أعوام توفي والدي بمرض سرطان الرئة، بعد التشخيص بأسبوعين، وإن

كان هناك من وصف محدد لحياته التي قضاها في الكويت لما يزيد عن أربع عقود فهي "خيبة أمل كبيرة". آنذاك، لم أفهم أبداً انفصاله العاطفي عنا، نحن أبناؤه وبناته. قضى حياته يمعن النظر فينا وكأننا لا ننتمي إليه، كأنما يتساءل بينه وبين نفسه من أين جئنا. لكن الآن مع اقترابي من عتبة الأربعين بدأتُ أُدرك السبب؛ أيام حياته مرت عليه عادية وكأنه يعيش حياة شخص آخر لا يعنيه في شيء، لم يكن حلمه، لم يكن وطنه، لم تكن الحياة التي تخيلها لنفسه طفلاً. لذلك حين عرف باحتمالية موته الحاسمة عن قريب، طلبه الأخير كان أن ينقل جثمانه ويدفن في أرض طفولته، الأرض التي ولدت فيها أحلامه، لا الأرض التي ولد فيها أطفاله.

هكذا ارتباط عاطفي بالنص الأصلي هي الشرارة التي تتّقد في قلب المترجم وتمنحه دافعاً شخصياً لتنفيذ مهمة الترجمة، لأن المهمة ما عادت عملاً، بل رحلة. وشرارة تلك الذكرى عن وفاة والدي هي ما منحتني البصيرة لدى وقوفي في الطريق أمام خيارات عدة. فحتماً هناك ما سيضيع في الترجمة، تلك نتيجة لا مفر منها، لكن المعيار هو في تحديد ما سيضيع، والحفاظ بعناية على ما تبقى ونقله إلى القارئ وكأنه يقرأ نصا أصلياً. في رواية غراهام سويفت، ضاع ما يضيع حتماً مع أي رواية تعتمد المحلية، اللهجة. من عناصر أسلوب غراهام سويفت الأدبي في كتابته لروايته اعتماده المحلية في لهجة شخصياتها، لهجة محلية تتضمن كلمات يجهلها حتى من كانت اللغة الإنجليزية لغته الأولى، ما يفسر عدم وجودها حتى في قواميس المورد وأكسفورد، لكن تجدها في مواقع الكترونية متخصصة في تفسير مصطلحات وعبارات من "كلام الشارع–slang"، وهناك وجدت ضالتي في تفسير مفردات لهجة سكان منطقة (بيرموندزي) جنوب لندن، لهجة مشهورة باسم (كوكنيز). اعتماد سويفت اللهجة المحلية جاء حفاظاً على أصالة تلك الشخصيات وعموميتها ووجودها على هامش الحياة حيث يعيش ما نسميهم عرضاً "العوام". فهي شخصيات لم تكمل تعليمها، مستواها الثقافي بسيط، دخلها محدود، لكنها ورغم كل ذلك، تمكنت، وإن بأسلوب لغوي عامي بسيط، وحتى سوقي أحياناً، أن تعبر بتجلٍّ روحانيٍ عميق عن معاني الحياة والموت. إنسانيتها هي المحك في فهمها للحياة،

لا مستواها الثقافي والعلمي والمالي. ولا أراه من المنطقي ترجمة لهجة محلية إلى لهجة محلية أخرى، كأن تتحدث الشخصيات باللهجة السورية أو العراقية أو المصرية أو الخليجية أو المغاربية – أعترف أن فكرة الترجمة إلى لهجة عربية راودتني في البداية لكن سرعان ما أثبت التطبيق خطئي – فالقيمة الأدبية في اعتماد اللهجة لا تكمن في اللغة بل في المناطقية، في الجغرافيا. فإن ضاعت اللهجة، وتبدلت الجغرافيا من جغرافيا الكاتب إلى جغرافيا القارئ، فقدت اللهجة خصوصيتها الأدبية، وما يمكنك إنقاذه حينها بالترجمة هي إنسانية الكلمات، دوافعها وظروفها، عاطفتها وإيقاعها. ومن هنا جاء اعتماد اللغة العربية الفصحى لكن البسيطة، واكتشفت مدى استيعاب اللغة العربية وطواعيتها في تجسيد روح أي لهجة وموسيقاها وإن بأبسط الكلمات.

عدا اللهجة، فقد تضمنت الرواية كذلك تحدياً لغوياً آخر، التلاعب اللفظي. فغراهام سويفت اعتمد التلاعب اللفظي عنصراً أساسياً من عناصر أسلوبه الأدبي وجمالياته، فيتكرر استخدامه لكلمات تحمل أكثر من معنى، ظاهر وباطن، وكلا المعنيين مقصودين. وأمام هذا التحدي لم أجد خيار الحذف خياراً مقبولاً لدي، فالحذف كان سينتقص من القيمة الأدبية للعمل ومن روحه. لذا في حال عجزت عن نقل تلاعبه اللفظي وقولبته باللغة العربية، شرحت التلاعب في الهامش للقارئ مع الإشارة إلى النص الأصلي في اللغة الإنجليزية، وما أدل على ذلك من النكت الجنسية التي اضطررت لشرحها في الهامش لأنها تعتمد على التلاعب اللفظي، وحين عرضتها على أختي الصغرى ضحكت، لا أدري إن ضحكت على النكت بحد ذاتها أو على اضطراري لشرحها بأسلوب يحاكي أسلوب معلمة أمام الفصل، وفقاً لتعليقها، لكن في كلتا الحالتين هي ضحكت، وهذا رد الفعل الذي أتمناه من القارئ.

إن كنت قد قرأت رواية وليام فوكنر "بينما أرقد محتضرة"، ستجد أن رواية "الطلب الأخير" تتبع الأسلوب الأدبي ذاته في اعتمادها المونولوج. فخلال الرحلة التي يقطعها الأصدقاء الثلاث والإبن في تنفيذ طلب جاك الأخير، تتنقل المونولجات بينهم، إضافةً إلى عدة مونولوجات لشخصية آمي زوجة جاك، ومونولوج واحد لماندي

زوجة ڤينس. تسمعهم يسرّون إليك بما يخشون الاعتراف به حتى لأنفسهم، كأنما تحول دورك من قارئ إلى قس في كنيسة، تجلس صامتاً مجهولاً في منبر الاعتراف، تستمع بصدر رحب لتلك الشخصيات تقر لك بخطاياها، لكنك تبقى في النهاية قارئاً ولست بقس، ما يعني أنك تملك حرية القرار، فإما تمنح تلك الشخصيات الغفران أو تمتنع. ولأن المونولوج هو في الأصل حديث النفس، فلم يعتمد سويفت في كتابة النص على القواعد النحوية الصحيحة في تصريف الأفعال وتركيب الجمل. في المونولوج الواحد يتنقل السرد بين أفعال الماضي والحاضر، أحيانا التنقل يأتي حتى في المشهد الواحد، كأنما الشخصية تعيش الحدث الآن وتختبره وتراه للمرة الأولى ولم يقع منذ أيام وأحياناً منذ عقود. لذلك التزمت تماماً بتصريف الأفعال وتركيب الجمل كما جاءت في النص الأصلي حتى وإن كانت نحوياً غير صحيحة، ففي النص الأصلي باللغة الإنجليزية هي كذلك غير صحيحة، وفي واقع الأمر كانت مثار انتقاد عدة نقاد في بريطانيا. لكنها الأسلوب الذي اتبعه الروائي صاحب النص الأصلي، وطالما باستطاعتي نقله في الترجمة، فما كنت لأضيعه.

ومثل رواية فوكنر، تعتمد الرواية ثيمة الرحلة في نقل جثمان الميت بناءً على طلبه. تبدأ الرواية مع مغادرة (بيرموندزي) جنوب لندن لننطلق في رحلة عبر مناطق من ريف إنجلترا وصولاً إلى شاطئ (مارغايت)، مناطق لا تعني السائح بشيء لكنها تعني الكثير لأهلها، فتتحول إنجلترا مع سويفت من الإطار العالمي إلى الإطار المحلي بما يحافظ على محلية الشخصيات. فيستذكر ڤينس حديث جاك حين أشار إلى الريف قائلاً "لولا الريف لما كانت المدينة". وقد أولى سويفت محلية إنجلترا أهميةً كبرى، فالمونولوجات في الرواية تحمل إما أسماء الشخصيات أو أسماء المناطق والشوارع التي يقطعونها في طريقهم إلى وجهتهم الأخيرة في (مارغايت). ومع كل مونولوج يحمل اسم منطقة، يبدأ راي بصفته الراوي الرئيسي، رسم صورةٍ لها للقارئ، كأنما يتولى من مقعده في سيارة المرسيدس دور الدليل السياحي، دورًا سينافسه عليه ڤينس لاحقاً لدى وصولهم كاتدرائية (كانتربري). لكنك وعلى مدار الرواية لن تجد مونولوجاً واحداً يحمل اسم لندن. فماندي تستذكر في مونولوجها

حين أخبرها جاك في لقائهما الأول أنه، ورغم عمله في سوق (سميثفيلد) للّحوم في لندن، لم يتسن له فعلاً رؤية معالم لندن السياحية. لندن التي نراها في رواية سويفت هي ليست بالعاصمة العالمية السياحية التي يؤمّها ملايين السياح، بل المدينة العادية التي يكتسيها اللون الرمادي: لون ضبابها، لون نهرها، لون حمَامها، لون سمائها، لون الأيام العادية التي تمر على أبنائها.

لكننا نلمح لندن العالمية في رواية سويفت بصفتها مدينة الأثرياء العرب. فنجد شخصية "حسين" العربي الثري الذي تعرّف عليه ڤينس، فيحاول استمالته وإرضاءه بشتى الطرق للإبقاء عليه زبوناً مربحاً لديه في معرض السيارات الذي أسسه. ورغم نفاق ڤينس الظاهري ومناداته الدائمة للعربي الثري بسيدي، أو السيد H، يكشف لنا في المونولوج احتقاره للعربي الذي حاربه يوماً في عدن، في الصحراء الموبوءة بالذباب، وإذ بالعربي الآن يحتلّ بأمواله لندنَ ويسكن أفخم بيوتها. فيرميه بينه وبين نفسه بلفظ «Towel Head» وهي لفظة عنصرية معروفة لدى الغرب وموجهة ضد العرب. ولدى ترجمة اللفظ العنصري وقفت أمام خيارين: الأول هو ترجمتها "ذو العمامة" لأن الصورة المتخيلة خطأً لدى الغرب أن العربي يرتدي عمامة مثل تلك التي يرتديها الهنود السّيخ، ما يفسّر الهجوم المتكرر على السيخ بصفتهم عرباً. أما الخيار الثاني فهو ترجمتها حرفياً " رأس المنشفة"، ولدى مقارنة الخيارين، اخترت الترجمة الحرفية. السبب هو تبيان سخافة اللفظ وبُعده عن الواقع، كذلك لأن "رأس المنشفة" هو لفظ عنصري تحقيري مهين بحد ذاته، وهو ما لا يتوفر في لفظ " ذو العمامة" الذي قد يستخدم في أي وصف عام دون حرج. والوجود العربي في الرواية لا يقتصر على شخصية (حسين الثري) وحسب، بل نجده جلياً في ذكريات راي عن خدمته في الجيش البريطاني إلى جانب جاك في مصر إبان الحرب العالمية الثانية. صورتهما الأولى التي تجسّد صداقتهما هي لامتطائهما سوياً الجمل ومن خلفهما الأهرامات، الصورة ذاتها، كما قال راي، التي التقطها عشرات آلاف الجنود البريطانيين لأنفسهم. الصورة احتفظ بها جاك لعقود في صدر بيته، أما الذكرى الحقيقية وراء الصورة فهي لاصطحاب جاك راي قبل التقاط الصورة بساعات

إلى بيت دعارة في شارع من شوارع القاهرة حيث فقد راي عذريته. القارئ العربي سيتأمل تلك الصورة أيضاً ليرى وجوده ممثلاً ضمن الإطار النمطي لصورته في صدر بيت الرواية الغربية: الصحراء، الجمل، الجنس، والنفط. وسيجد القارئ في بعض العبارات ما يعتبرها إهانة له، لكن وبصفتي مترجمة لم أجد أنّه من واجبي أبداً التخفيف من حدّة تلك الألفاظ والعبارات أو حذفها، ولم أجد حرجاً في ترجمتها مع كوني عربية، فالأمانة التي أحملها هي في نقل النص لا الحكم عليه.

ويبقى عنصر واحد في النص الأصلي لم أترجمه: الدندنة. خلال مونولوجات عدّة، تدندن الشخصيات مقتطفات من أغان، أغلبها أغانٍ لفرقة البيتلز والمغني الأمريكي راي روبنسون. ولأن المونولوج هو حديث النفس وجدت من المنطقي أكثر أن أبقي على الدندنة باللغة الإنجليزية ضمن النص العربي المترجم، وذلك لسبب بسيط، ففي واقع الحياة نحن لا ندندن ترجمة الأغاني الأجنبية، بل نغنيها بلغتها الأصلية حتى وإن لم نفهمها. لذلك، وفي الهامش، أوردت للقارئ النص المترجم للدندنة مع ذكر الأغنية وصاحبها وعام إصدارها، مع معلومات إضافية في حال استخدمها سويفت كدلالة على أمر ما. لكن لم أطبقّ القاعدة ذاتها مع أسماء الخيول. ففي كل رهان يقوم به راي على حصان، نجد أن اسم الحصان يحمل دلالة على الحدث المعنيّ، لذلك وجدت أن ترجمة أسماء الخيول إلى مقابلها باللغة العربية هو الخيار الأصوب لأنه يحافظ على روحية النص، ولم تختل قوة الأسماء بالترجمة، بل توهجت وزادت رونقاً مع اللغة العربية، لغة الفروسية، فنجد أسماءً مثل: القائد الفاتح، والقرصان الجريء، وصانع المعجزات.

التحدي الأكبر وجدته في ترجمة صورة الاستعارة المجازية (Hop-Picking) إلى "قلْع الجنجل". المعنى الحرفي لها هو " قطف الجنجل". (الاسم الشائع لزهور الجنجل هو الحشيشة، لكني فضّلت اختيار الاسم الأقل شيوعاً –الجُنْجُل– لما له من وقع موسيقي يتناسب مع دلالة الاستعارة والسياق الأدبي للنص). أول إشارة للاستعارة في الرواية نجده في مونولوج ڤينس حين أخبره والده جاك أنه التقى بآمي أثناء عملهما سوياً في قطف زهور الجنجل. لكن سويفت سيعتمدها على مدى الرواية

دلالة جنسية وكذلك دلالة إنسانية. وهنا تكمن المشكلة في حرفية النص، مع مفردة "قطف،" إذ عليها أن توافق اسم الزّهرة Hop والتي، مع التلاعب اللفظي لسويفت، تتحول إلى الفعل Hop والذي يعني يقفز أو يغادر. حرفيّة الترجمة ما كانت لتؤدي المطلوب، لذلك أقرب اختيار وجدته مناسباً هو استبدال "قطف" بالمفردة "قلْع". المعنى الحرفي للقلع هو اقتلاع من الجذور، أو قطف عنيف إذا ما استُخدمت في "قلْع الورد". وتحويلها إلى فعل سيكون باستخدام المفردة "انْقلع" والتي جاءت مناسبة لسياق النص، "انقلع للخلف، سأنقلع من هنا." هي مفردة نجدها في العامية أكثر، لكنها مفردة عربية صحيحة. وحتى في معناها الحرفي (الاقتلاع من الجذور) أو (القطف العنيف)، فالمفردة تعبّر حقيقةً عن دلالة الصورة. ففي العلاقة بين الرجل والمرأة، نجد أن الزهرة هي المرأة والرجل هو من يقتلعها من أحلامها وعذريتها مثلما حدث بين جاك وآمي، ڤينس وسالي. كذلك في العلاقة بين الآباء والبنات، اقتلاع جوون من بيتها، اقتلاع جنين سالي من جسدها، اقتلاع سو وماندي من جذورهما، كذلك مع اقتلاع ڤينس من عائلته الحقيقية، ومن ثم اقتلاعه من وهم انتمائه لعائلته الثانية. نجدها أيضاً في العلاقة بين القَدَر والرّجال: اقتلاع أحلامهم في قضاء حياةٍ يتمنّونها، مثلما حدث مع جاك وليني وراي.

الصورة المجازية الأخرى التي تظهر طوال الرواية بتجليات مختلفة هي "العربة". ابتداءً باسم الحانة "العربة والخيول" انتقالاً إلى سيارة المرسيدس ذات اللون الأزرق الملكيّ التي يقودها ڤينس خلال الرحلة، تتبعها تجليات "العربة " في رحلة الشخصيات بذاكرتها إلى الماضي: عربة نقل اللحوم، عربة نقل الموتى، عربة التخييم، الشاحنة، وحتى السفينة الحربية. في أول مونولوج لراي، يعود بذاكرته إلى سؤاله جاك ثملاً: "هي لم تذهب إلى أيّ مكان... أبداً... يدعونها «العربة والخيول» لكنها لم ترحل يوماً إلى أيّ مكان." ومنذ تلك اللحظة تجسّد الحانة ذاك باسمها الجمود الذي أصاب جيلاً بأكمله، جيل المحاربين في الحرب العالمية الثانية. ما إن عاد من القتال حتى ثبت كل واحد فيهم في القالب الذي تركه الآباء. جاك، راي، ليني، وڤيك، الأربعة نجوا من الموت المحقق الذي حصد الملايين وعادوا من أرض المعركة إلى

مسقط رأسهم في (بيرموندزي) حيث واصلوا مهن آبائهم، رغم أنّ لا أحد منهم، عدا ڤيك، واصل مهنة أبيه من حرية اختيار. بعودتهم تخلوا عن أحلامهم بحياةٍ أخرى فثبتوا في مكانهم، فيُضحي كلّ واحد منهم، كما يوحي اسم الحانة، عربة بخيول لم تغادر مكانها قط.

وعلى النقيض من صورة العربة الجامدة في مكانها، تتجلى "العربة" في مونولوجات ڤينس معجزةً بشرية؛ فلولا السيارات، كيف للأبناء إذًا أن يفرّوا من آبائهم؟ الفرار الذي أضحى سمة جيل الستينيات الذي ينتمي إليه ڤينس وزوجته ماندي. الفرار إلى لندن عاصمة الأضواء البراقة وفرق الروك والبيتلز والثورة الثقافية والأخلاقية والفكرية. تستمع إلى وصف ڤينس لسياراته وتدرك أن عشق ڤينس للسيارات هو عشقٌ روحي نابعٌ من إحساسه بعدم الانتماء إلى أرض وبيت وعائلة، انتماؤه الوحيد هو إلى الطريق. لذا حين يشير راي إلى سيارة المرسيدس قائلاً "هذا الشيء" يشعر ڤينس بالإهانة، ففي عينيه هي ليست "شيئًا":

"هي أروع شيءٍ في العالم بأسره، الاختراع الأروع على الإطلاق. لو لم يخترعها أحد لكنا اخترعناها بأنفسنا. هي ليست فقط بمقاعد على عجلات. هي الشريكة. هي الرفيقة. لن تسألك شيئاً. وأبداً أبداً لن تكذب عليك. هي المكان الذي تكون فيه على حقيقتك. فإن لم يكن لك مكانٌ تنتمي إليه، لا بأس، في سيارتك ستكون بخير."

على المستوى الشخصي، هذا الاقتباس يعنيني كثيرًا، لأني ما إن قرأته حتى أدمعت عيناي، وهي المرّة الأولى من مرّات عديدة خلال رحلتي مع أبطال الرواية، فهذا بالضبط شعوري نحو سيارتي التي ألجأ إليها كلّما غمرني شعوري بعدم الانتماء، وهذا التأثر ما كان لينتابني لولا توجه ڤينس بحديثه إليّ كقارئة. هذا الشعور الذي انتابني لدى قراءتي النص الأصلي باللغة الإنجليزية أضحى بوصلتي التي أستدل بها في طريقي أثناء عملية الترجمة، أن أبذل أقصى جهدي في ترجمة العاطفة العميقة، ألّا أحرم القارئ العربي من التأثر بالنص كما تأثرت به أنا لدى قراءتي النص الأصلي.

أما القرار الأخير الذي أخذته خلال رحلتي في الترجمة فقد جاء مع عنوان الرواية. فالتلاعب اللفظي لسويفت يبدأ مع اختياره لعنوان روايته Last Orders. المعنى

الأول لها يتجسّد في إعلان ساقي الحانة عن (جولة الشراب الأخيرة) قبل إغلاقها. وهي الذكرى الأولى التي سيتشاركها راي مع القارئ عن جاك، فالحانة هي مكان التقاء الأصدقاء الأربعة على مدى عقود صداقتهم. أما المعنى الثاني فيتجسد في معناها كمصطلح عسكري (الأوامر الأخيرة)، وهو معنى يتماهى مع أحداث الرواية. فجاك وأصدقاؤه خدموا عسكرياً في الحرب العالمية الثانية، وكذلك ڤينس الذي خدم عسكرياً في اليمن إبان الحرب الأهلية في الستينيات، ونرى المعنى يتجسد في تعامل الأربعة مع طلب جاك وكأنهم سَرِيّة جنود ينفذون مهمتهم الأخيرة. أما المعنى الثالث لها، الحرفي، فهو (طلبات أخيرة). وبعد قراءة الرواية ارتأيت أن الترجمة الأصح التي تعكس فعلاً روح الرواية، والأكثر اتساقاً مع العنوان الأصلي، هو (الطلب الأخير). التخلص من الجمع وإضافة أل التعريف لا يُقصد به تحديد الطلب كونه طلبًا واحدًا يعود لشخصٍ بحدّ ذاته، في هذه الحال جاك. بل يُقصد به طبيعة الطلب في حدّ ذاته، الطلب الذي يضع الجميع فجأة أمام حتميّة الموت وتأمّل ما مضى من الحياة والقليل الذي تبقى منها، الطلب الذي يفرض على النفس حتمية التساؤل إن كان هناك من أملٍ بعد في إنقاذ الروح قبل فنائها. كما أني وجدت في الخيار إضفاءً لهالة القداسة الروحية والدينية على الطلب، فالطلب الأخير لرجل أو امرأة على فراش الموت لا يمكن لأحد ردّه، وكأن الرب أضحى شاهداً على تنفيذه، وتلك الإشارة إلى قداسة الطلب نجدها في أكثر من مونولوج وعلى الأخص في مونولوجات كاتدرائية (كانتربري). فجاءت الترجمة بهذا المعنى متسقة مع ترجمة مصطلحات لاهوتية مسيحية تحمل الطبيعة ذاتها: (Last Word – الكلمة الأخيرة) (Last Supper- العشاء الأخير). كذلك، فإن عنوان (الطلب الأخير) يشير إلى طلبٍ أخيرٍ آخر موازٍ لطلب جاك، إلى طلب راي، طلبه الأخير في حياته والذي لن يُتبعه بأيّ طلبٍ آخر، فرصة لحياةٍ ثانية يجد فيها السعادة التي تمناها.

الطلب الأخير لوالدي كان أن يدفن في عمّان لا الكويت. رحلته من المستشفى إلى مثواه الأخير تطلّبت نقله في أربع عربات إسعاف وطائرة برفقة ثلاثة أبناء. منذ أن ذكّرتني وفاته بأحلام طفولتي التي دفنتها في رماد الأيام العادية، وطلبي الأخير من

الحياة، كل يوم، لا المكان الذي أدفن فيه، بل الرهان، الرهان بحياتي على تحقيق حلمي، على قضاء أيامي أقرأ وأكتب الروايات في بيتي الريفيّ المطلّ على حديقة خضراء برفقة عربةٍ حمراء تأخذني إلى حيث أريد، ولن يعنيني أيّ دولة تلك التي ستمتدّ فيها جذور أشجار حديقتي وأقود على شوارعها عربتي.

يقول ليني: "أن نختم حياتنا مع تمنينا لو كُنّا أشخاصًا آخرين، هو إما خزيٌ وعار أو مزحةٌ كبيرة، وأنا أختار الضحك على البكاء."

لا أدري أيهما اختار أبي، لكني سأختم حياتي مع طيف ابتسامة رضا، سواء وصلتُ إلى غايتي، أو متُّ على الطريق في عربتي التي تعدو بها خيول أيامي إلى أرض الأحلام.

إيمان أسعد

الكويت، 2017

خريطة شخصيات الرواية

1. جاك دودز: جزّار، وهو زوج آمي. إنّ وفاته بمرض السرطان في مستشفى سانت توماس هي السبب ليجتمع سويًّا أربعة رجال في رحلة تهدف إلى نثر رماده في البحر.

2. فينس دودز: بائع سيّارات مستعملة. وهو الإبنُ المتبنّى لجاك وآمي. أبواه الحقيقيّان (عائلة بريتشيت) قُتلا في غارة إبّان قصف لندن في الحرب العالمية الثانية.

3. راي (المحظوظ) جونسون: موظّف تأمينات، ويملك قدرة استثنائية على وضع الرّهان على الحصان الرّابح في سباقات الخيول. وهو الرّاوي الرئيسي في الرواية. حارب إلى جانب جاك دودز في الحرب العالمية الثانية، وأثناء إحدى المعارك أنقذ جاك حياته. زوجته، كارول، هجرته لأجل رجل آخر، وله ابنة تُدعى سوزي، تعيش في أستراليا. راي مُنجذبٌ لآمي، زوجة جاك، والاثنان دخلا في علاقة غراميّة في الماضي.

4. ليني (المدفعيّ) تايت: رفيق جاك دودز في الشّراب. هو الرجل الغريب في المجموعة ومُفتعل الشجارات. له ابنة تُدعى سالي، جمعتها علاقة بفينس دودز، وحملت منه، وذلك قبل زواجها من مُجرمٍ ينفّذ محكوميّة طويلة في السجن.

5. فيك تاكر: حانوتيّ ومُنظّم جنائز. هو الرجل الحكيم في المجموعة ومن يعتمد عليه الجميع في تهدئة الأوضاع وحلّ الخلافات. وعلى مدار الرواية نجد توازياً في الوصف بين مهنتيْ جاك وفيك من حيث تعامل كليهما مع الأجساد الميتة.

6. آمي دودز: زوجة جاك، والتي ترفض الانضمام إلى الرجال الأربعة في رحلة نثر رماد جاك. آمي وجاك أنجبا ابنة، جوون، تعاني من تخلّف عقليّ شديد. وفي اليوم الذي يتوجّه فيه الأربعة نحو (مارغايت) لنثر الرماد، تتوجه آمي إلى دار الرعاية لزيارة جوون.

7. ماندي دودز: فرّت من منزلها في (بلاكبرن) في سنّ الخامسة عشر ورحلت إلى لندن. وفي سوق (سميثفيلد) لبيع اللحوم، تلتقي بجاك دودز الذي يعرض عليها عملاً وسكناً لديه في بيته. تزوّجت بعدها من ابنه المتبنّى ڤينس دودز.

الطّلب الأخير

لأجل آل

«وما الإنسان إلا حيوانٌ نبيل، عظيمٌ في رمادِ فنائه، مختالٌ متأبّهٌ في قبره.»

سير توماس براون
جرّةُ رمادِ الموتى

«أودُّ حقاً أن أكون قرب شاطئ البحر.»

جون أ. كلوفر- كايند

(بيرموندزي)

ليس بيومٍ عادي مثل أيّام حياتك.

يتناول بيرني قدح بيرة ويضعها أمامي. يتأملني محتاراً. على وجهه المهلهل ملامحُ كلبٍ عجوزٍ يترقَّبُ كلمةً منّي، لكن سرعان ما يدرك أني لا أودُّ الحديث. فلذلك أنا هنا، خمس دقائق بعد فتحه الحانة، لأحظى بطقسي الوداعيّ، بوّو صامت[1]، فقط أنا وقدحي. تقع عيناه على ربطة عنقي السوداء، ما زلتُ أرتديها رغم مرور أربعة أيّامٍ على الجنازة. أناوله ورقة الخمسة جنيهات، يأخذها ويتوجه نحو ماكينة الصراف ثم يعيد لي الباقي. وبينما يحدق بي، يضع العملات المعدنية برفقٍ زائد على المشرَب، جوار قدحي، ثم يقول لي:

" لن يعود الوضع كما كان، أليس كذلك؟" يهز رأسه، يتأمل النضد على طول المشرَب كأنما يتأمّل خلاءً: "لن يعود الوضع كما كان عليه."

أقول له:" أنت لم تشهد نهايته بعد."

"ماذا؟"

أرتشفُ الرغوة عن البيرة:" قلت، لم تشهد نهايته بعد."

يحك وجنته عابساً بينما ما يزال ينظر إليّ:"طبعاً راي." ثم يمضي بعيداً عني نحو الجهة الأخرى من المشرَب.

لم أقصد أيّ سخرية حين قلتُ ما قلتُ.

أتجرّعُ شرابي وسرعان ما يحمرُّ أنفي. عدايَ أنا، هناك ثلاثة أو أربعة طيورٍ مبكّرة جاءت تتجرع نصيبها من الشراب، أمّا الحانة فلا تبدو لي في أفضل حالاتها. باردةٌ حدَّ القشعريرة، رائحة المعقّم تفوح منها، وكثير كثير من المقاعد الشاغرة. شعاعٌ من ضياء الشمس يخترق النافذة الملطخة ببقعٍ ملونة، فيخيّل إليك أنك جالسٌ في

---

(1) بوّو: مهرجانٌ صاخب يقيمه الهنود الحمر ابتهاجاً بالشفاء من مرضٍ ما أو الانتصار في حرب. (المترجم).

رحابِ كنيسة.

أجلس هناك، أترقب ساعة الحائط القديمة خلف المشرَب. (ثوس. سلاتيري)، صانع الساعة، (ساوث وورك)(2). القوارير مصفوفة كأنها أنابيب الأرغن الكنسيّ(3).

ليني وصل أولاً. لم يكن يرتدي ربطة عنقٍ سوداء، هو لم يرتدِ ربطة عنقٍ على الإطلاق. بلمحةٍ خاطفة يتأمل ملابسي، وكلانا يشعر أنه أساء الاختيار.

أسأله: "بيرة؟ الحساب على ليني."

فيرد: "فلنبدأ لمّ الشمل."

بيرني يأتي صوبنا، موجهاً الحديث نحو ليني:

"جدولٌ جديد؟"

يرد عليه: "صباح الخير." وأقول له: " قدح بيرة لليني." بيرني لا يجيبني ويتابع حديثه مع ليني:

"كلّنا متقاعدون الآن، أليس كذلك؟" يجيبه معترضاً: "ليس أنا، فقد تجاوزتُ مرحلة التقاعد، أليس كذلك بيرن؟ فأنا لست رجلاً متفرغاً مثل صاحبنا رايزي، فتجارةُ الخضر والفاكهة تحتاجني."

يصب بيرني قدح البيرة ويناولها لليني:" ليس اليوم على ما يبدو." ثم يتجه نحو ماكينة الصراف.

ينظر ليني نحو بيرني ويتساءل:

" أنت لم تخبره؟"

متأملاً قدحي، ثم ليني:

"لا."

يرفع ليني حاجبيه. الدم يفور في وجهه المحتقن كأنما تلقى توًّا لكمةً قوية. دائماً ما يبدو هكذا، كأنما رضّةٌ ستبرز على وجهه في أيّ لحظة. يشد ياقته حيث لا ربطة

---

(2) من المألوف في بريطانيا وجود إسم صانع الساعة والمنطقة وسنة الصنع مدونة جميعاً على ساعة الحائط. م.

(3) Pipe Organ: آلة موسيقية يشيع استخدامها في أداء الصلوات الدينية في الكنائس. م.

عنق هناك ويقول:
"سيلتمّ شملنا. وماذا عن آمي، ألن تأتي؟ أعني، ألم تبدّل رأيها؟"
"لا، نحن فقط على ما أظن، الدائرة الأقرب."
"هو زوجها!"
يمسك قدحه لكنه يتمهل قبل رفعها، كأنما اليوم يفرض علينا قوانين جديدة حتى في طريقة شُربنا البيرة.
"هل سنذهب إلى ڤيك؟"
"لا، ڤيك قادمٌ هنا."
يومئ برأسه، يرفع كأسه، وبينما الكأس في منتصف طريقها نحو فمه، فجأةً يتفحصها. حاجباه يرتفعان أكثر.
"ڤيك قادمٌ هنا برفقة جاك، فاشرب ليني، اشرب."
ڤيك يصل بعد خمس دقائق. يرتدي ربطة عنقٍ سوداء، لكن من المتوقع أن تراه يرتديها، فهو حانوتيّ، ويأتينا الآن من مقرّ عمله. لكنه ليس في كامل حُلّته الحانوتية. بل يرتدي معطفاً واقياً من المطر رمليّ اللون، قُبّعته البيريه طرفها ناتئٌ من إحدى جيبيه، كأنما يودّ إيصال الرسالة بكلّ وضوح: اليوم الوضع مختلف، اليوم هو واحدٌ منّا، ولا ينضمّ إلينا بحكم عمله وحسب.
"صباح الخير."
كنت أتساءل ما الذي سيُحضره معه. وأجزم أنّ ليني كان يتساءل هو الآخر. المشهد الذي توقعت هو رؤيته يفتح فيه ڤيك باب الحانة، وفي خطىً مهيبة ووقورة يسير نحونا حاملاً معه تابوتاً صغيراً من خشب البلوط ومقابضه من نحاس. لكن كل ما كان يحمله في الواقع، تحت ذراعه، هو علبةٌ بنية من الكرتون، ارتفاعها قدم وعرضها ست بوصات. دخل وبدا كرجلٍ أتانا توًّا من السوق بعد شرائه ألواح قرميدٍ للحمّام.
يستقر ڤيك على المقعد جوار ليني، يضع العلبة على المشرَب، ثم يفك أزرار معطفه:
"مباشرةً من الفرن."

يسأله ليني متعجباً: " تمّ الأمر؟ هذا هو؟"
ويجيبه: " نعم. ماذا سنشرب؟"
عينا ليني ما تزالان على العلبة:
"ما الذي يوجد داخلها؟"
"ماذا تظن ليني؟"
يقلب فيك العلبة كي يسعنا رؤية البطاقة البيضاء الملصقة على أحد جوانبها، مدونٌ عليها تاريخ ورقم، واسم: جاك آرثر دودز.
"أعني، لا يعقل أن يكون في علبة، هل يعقل؟"
حتى يجيب تساؤل ليني، يرفع فيك العلبة وينقر بإبهامه المصراع أعلاها:
"صُبّ لي ويسكي، برأيي هذا يوم ويسكي."
يتحسس فيك داخل العلبة، وعلى مهل يسحب مستوعبةً بلاستيكية. تبدو كجرّة قهوة سريعة-الإعداد، حتى أنها تملك السُّدادة اللولبية ذاتها، لكن الجرة ليست شفافة، بل بلاستيكية برونزية اللون مع قليل من اللمعان. توجد بطاقة أخرى على السدادة. يناول فيك الجرة إلى ليني:"هاك."
يتناولها ليني منه، متردداً، كأنما لم يكن مستعداً لتناولها لكن لم يسعه رفض تناولها، كأنما وجب عليه غسل يديه أولاً. لا أظنه توقع وزنها. يعود ويجلس على مقعد المشرَب ممسكاً بها، محتاراً بما عليه أن يقول، لكني أظنه يفكر بما أفكر به. إن كانت الجرة تحوي كلَّ جاك أم تحوي بضعةً من جاك مخلوطةً ببضعة من أشخاص آخرين، هؤلاء الذين حُرِقوا قبله وأولئك الذين حُرِقوا بعده، إن كان ليني لا يمسك بين يديه جاك وحسب، بل كذلك زوجةَ رجلٍ آخر. وحتى إن فرضنا أنّ جاك وحده في الجرة التي يمسكها بين يديه، فهل الجرة تحوي كلّ جاك، أم فقط ما يكفي منه لملء الجرة، فجاك كان رجلاً ضخماً.
يناولني ليني الجرة في محاولةٍ منه لتعديل مزاجي، كأننا نمارس لعبة " خمّن الوزن " في حفلٍ ما:
"لا يبدو معقولاً لي، أيبدو معقولاً لك؟"

أجيبه: "ثقيل."

يؤكد ڤيك تخميني: "معبّأ حتى العنق."

لا أظنني سأملأ جرّةً كهذه، فأنا رجلٌ صغير. لا أظن من الجدوى فكّ غطاء الجرة. أعيدُها إلى ليني. وليني يعيدها إلى ڤيك، ما يزال ينتظر طلب شرابه:

"أين ذهب بيرني؟"

ڤيك رجلٌ مهندم، دائماً على أهبة الاستعداد، هو ذاك الشخص الذي دائماً ما يفرك يديه قبل أن يستهل فعل أي شيء. يداه دائماً نظيفتان. حين كنت حاملاً الجرة، أخذ ينظر إليّ كأنما أهداني توًّا هديّة. من المطمئن معرفة أن الحانوتي هو صديقك. لابدّ وأنّه كان مطمْئناً لجاك. فمن المريح معرفة أن صديقك هو من سيسجّي جثمانك ثم يعلّبك ويفعل كل ما هو ضروري من أجلك. لذا الأجدر بڤيك أن يعيش عمراً أطول من بقيتنا.

ولابدّ أنّ جاك كان مطمئنًّا لوجود دكّانه «دودز وابنه، ملحمة عائلية» في الشارع ذاته حيث ڤيك على الرصيف المقابل، حيث الورود الشمعية وألواح بلاط الرخام والملَاك يحني رأسَه على النافذة الرئيسية لدكّانه: «تاكر وأبناؤه: خدمات جنائزيّة». ذاك مصدر راحةٍ وعامل تحفيز، وحتى نوعًا من التوافق بينهما، ففي دكان أحدهما معلقّة حيواناتٌ ميتة، وفي الآخر ترقد جثثٌ متيبسة.

ربما لهذا السبب ما كان جاك ليتزحزح أبداً من دكانه.

راي

كنتُ أقول لجاك، " هي لم تذهب إلى أيّ مكان، أبداً". ردَّ عليّ قائلاً، " عمّ تتكلم رايزي، لا يمكنني سماعك". حينها كان منحنيًا برأسه نحو ڤينس.

كان الوقت قد حان للطّلب الأخير.

قلت له: "يدعونها «العربة والخيول» لكنها لم ترحل يوماً إلى أي مكان."

"ماذا؟!"

كنا مجتمعين في مكاننا المعهود من الحانة، جالسين في مقاعدنا على المشرَب كما الحوذيّ على مقعد قيادة العربة: أنا وليني وجاك وڤينس. كنا نحتفل بعيد ميلاد ڤينس الشّاب، لذا شربنا جميعاً حدّ الثمالة، فقد كان عيد ميلاد ڤينس الأربعين. كذلك كان عيد «العربة» المائة، إن كنتَ ستعتمد في حساباتك على ساعة الحائط. (سلاتيري. 1884). في تلك اللحظة كنت أحدق بها – العربة والخيول – مكتوبةً بأحرفٍ نحاسية أعلى الساعة. وتلك كانت المرة الأولى التي خطرت لي فيها مسألة عمرها. أمّا ڤينس فكان يحدّق بالساقية الجديدة التي عيّنها بيرني سكينير، بريندا كان اسمها أم غليندا؟ بالأحرى كان يحدق بتنورتها الضيقة التي حشرت نفسها فيها لدرجة بدت معها جالسةً فيها بينما هي في الحقيقة واقفة.

حتى أنا لم أكن أحدق فقط بساعة الحائط.

حاول جاك نهره: " ڤينس، كفاك تحديقاً بها، عيناك ستنقلعان."

"وكذلك مؤخرتها."

ضحك جاك على ردّ ڤينس. ولك أن ترى كم تمنينا جميعاً العودة إلى عمر ڤينسي مرةً أخرى.

منذ أمدٍ طويل لم أرَ جاك يتصرف بحميمية هكذا مع ڤينس. ربما كان مضطراً لذلك مراعاةً لمناسبة الاحتفال بعيد ميلاده، إن كان فعلاً هذا يومُ ميلاده. فقد أسرّ

لي ليني في المساء ذاته ونحن أمام المبولة: "هل تساءلت يوماً كيف علم جاك بتاريخ ميلاد ڤينس، فجاك وآمي لم يشهدا ولادته، أليس كذلك؟ وهما لا يملكان شهادة ميلاد. زوجتي جوان تظن أنّ آمي حددت تاريخ الثالث من مارس عشوائياً، هكذا من الهواء. إن سألتني، فالأول من إبريل كان الاختيار الأنسب، أليس كذلك؟" ليني المشاكس.

وقفنا هناك نتبول مترنحين وقلت له: "لا، طوال تلك السنين لم أتساءل عن ذلك يوماً."

"على أيّ حال، لن أستغرب إن نسيت يوم ميلادي في عمري هذا، مرّ زمنٌ طويل منذ عشنا الأربعين، أليس كذلك راي؟"

"زمنٌ طويل."

"لا داعٍ لنحسد الحقير على دوره."

أغلق ليني زمّام سحابه، وتسلل عائداً إلى المشرَب، بينما وقفتُ أتأمّل أرضية البورسلين.

قلت لجاك: "يا لحماقة الاسم."

"عمّ تتحدث؟"

"العربة! العربة! هذا ما أحاول قوله لك."

ڤينس موضحاً لبريندا: "هي نكتة يلقيها راي."

"متى تحركت من مكانها!؟"

وجاك أجابني: "حسنٌ، طالما هي عربة فعليك أنت رايزي تولّي زمام القيادة، فأنت خبير الخيول. قُل لبيرني هنا أن يستلّ سوطه."

وفينس قال: "لن أمانع إن استلّت هي سوطها وصفعتني أيّ يوم تشاء."

"أنا من سيصفعك إن لم تسبقني ماندي إليك أولاً."

ما كاد جاك ينهر ڤينس إلا ودخلت ماندي الحانة بعد نصف دقيقة، كانت قادمة لاصطحاب ڤينس إلى بيتهما. كانت متواجدة في بيت جاك، تثرثر وتتذمر بصحبة

آيمي وجوان. ڤينسي لم يرها قادمة فقد كان مشغولًا برؤية أشياء أخرى، لكن أنا وجاك رأيناها ولم ننبّه ڤينس لوجودها. دنت نحوه من الخلف وبسطت راحتي يديها على وجهه: "هللو صاحب العينين الواسعتين، احزر من أنا؟"
قوامها ما عاد يشبه قوام بريندا، لكن بالنسبة لامرأةٍ في الأربعين لم يكن وضعها بالسيء. وما أدلّ على ذلك من ملابسها، فها هي ترتدي معطفاً جلدياً أحمر فوق قميصها الأسود المخرّم. تقول له: "أتيتُ لآخذك، صاحب العيد." ويسحب ڤينسي إحدى يديها ويتظاهر بعضّها. هو يرتدي إحدى ربطات عنقه الفاخرة، ذات خطوطٍ متعرجة باللونين الأزرق والأصفر، عُقدتها محلولة. يلثم يد ماندي برفق بينما ترفع هي يدها الأخرى عن وجهه وتتظاهر بالقبض على صدره بمخالبها. وحين يستعدان للذهاب ونراهما يتوجهان نحو الباب، ليني يقول: "عِشق الشباب، ايه؟" ولسانه في طرف فمه.

لكن قبل أن يرحلا يقول جاك: "ألا أحظى بقبلة؟" فتجيبه ماندي مبتسمةً: "بالتأكيد جاك." وكلنا نشاهدها تُحيط عنق جاك بذراعيها، كأنما تعني فعلاً ما قالت، وتمنحه قبلتين رطبتين، قبلةً على كلّ وجنة، وبينما ما تزال في أحضانه، كلنا نرى يد جاك تُحيطها كي تربت على مؤخرتها. يده ضخمة. وكلنا نرى إحدى فردتي حذاء ماندي تنخلع عن قدمها، أظنها احتست الشراب أثناء وجودها لدى آمي. يحرّر جاك نفسه من عناقها، ثم يقول مشيراً نحو فينس: "هيا، ارحلي عن هنا واصطحبي معك هذا المهرج وغادرا."
يتأمل جاك وفينس بعضهما وهلة، وجاك يقول: "عيد ميلاد سعيد بنيّ، سُعدت حقا برؤيتك." كأنما يصعب عليه رؤية ابنه أيّ يومٍ يشاء. فيرد عليه فينس: "تصبح على خير جاك." يتناول معطفه عن الخطّاف أسفل المشرَب، وظننته لحظةً سيمد يده نحو جاك ليتصافحا. سامِحْ وانسَ. لكنه يضع يده على كتف جاك كأنما يريد الاتكاء عليه، لكن من ملامح جاك أعتقد أنه شدّ عليه. فيقول له جاك:
"ما تزال تحظى بساعةٍ واحدة."

وتعقب ماندي: "إذا من الأجدى أن نستغلّها جيداً."
ليني متنهداً: "الوعود". فيردّ عليه ڤينس: "لا أحد يدري متى يبتسم له الحظ".
تتأبط ماندي ذراع ڤينس بينما يتناول كأسه ويحتسي ما تبقى من شرابه على مهل: "أبْقِ عليهنّ جائعات، هذا رأيي"، يمرّر معصم سترته على فمه، " فالحاجة تُجبِر".
وما كان ليني ليترك ڤينس دون أن يشاكسه: "ها، قد أضحيتَ كهلاً أيها الصبي الكبير. تغادر إلى بيتك قبل إغلاق الحانة، ولابدّ لأحدهم أن يصطحبك."
وأقول لهم: "«العربة» على وشك المغادرة!"
فيقول ليني: "دعكِ من راي، ماندي، اليوم ليس يومه، فقد راهن على الحصان الخاسر. فلتكن ليلتك سعيدة، إيه ماندي."
معطفُ ماندي الأحمر يتنافر ببشاعة مع وجه ليني.
تودّعنا ماندي: "تصبحون على خير شباب."
ويجيبها جاك مبتسماً: "وأنتم من أهله أطفالي."
ينسلان خارجاً، ڤينس يربت برفق على ظهر ماندي، ومن الواضح للجميع أنهما الوحيدان في هذه الحانة من يملكان سيارة. كانت مركونةً في الخارج، أعلى المواصفات وأفضل ما في السّوق. ابنتهما اللطيفة في انتظارهما، هي في الرابعة عشر ة من عمرها، لكن ضمن مقاييس اليوم، لك أن تعتبرها في الثامنة عشرة.
ليني متشبثٌ بكأسه الفارغة: "يمامتان مغرمتان هه؟". وهلة ونسمع النداء: " من في المقعد؟"[4]، ويلبّي جاك كأنما اليوم هوعيد ميلاده: " أنا ".
ها قد حانت ساعة الطلب الأخير، يقرع بيرني الجرس عالياً كأنما الحانة هي عربةُ إطفاء لا عربة خيول. وحتى على وقع رنين الجرس الصاخب، ما تزال العربة ثابتة في مكانها. هي ليلة السّبت، دخانٌ وأصواتٌ وثرثرة وحماقات وضحكات، وبريندا منكبةٌ على عملها، وبِرَك الشراب المُراق على طول المشرَب. عدتُ وقلت لجاك: "هو عيد ميلادها المائة، ألم ينتبه أحدكم؟"

(4) «من في المقعد؟»: عبارة يقولها السّاقي ويقصد بها السؤال عمّن سيدفع ثمن المشروبات. م.

فقال: "المائة لمن؟"

"الحانة! العربة! انظر إلى ساعة الحائط."

" الحادية عشرة إلا عشرة دقائق."

"لكن ما بالها لم تغادر يوماً مكانها."

"الساعة؟"

"العربة! العربة!"

أخيراً أجابني جاك: "وباعتقادك إلى أين عليها الذهاب رايزي؟ إلى أين علينا كلنا الذهاب حتى تأخذنا إليه هذه العربة اللعينة؟"

(بيرموندزي)

يتناول ڤيك الجرّة ليعيدها على مهل داخل العلبة، لكن العلبة تنزلق من حجره وتقع على الأرض. عليه أن يأخذ حذره في التعامل معها، لذلك يضع الجرّة على المشرب.

الجرة بحجم قدح البيرة.

ثم ينادي: "بيرنا"

بيرني واقفٌ عند الطرف الآخر من المشرب، على كتفه المنشفة التي يمسح بها. يلتفت ويأتي نحونا، على وشك أن يقول شيئاً لڤيك لكن عينيه تقعان على الجرة المستقرة جوار قدح ليني. يراجع نفسه قبل أن ينطُق بالتالي:"ما هذا؟" كأنما لم يستنتج بنفسه بعد الإجابة على سؤاله.

يجيبه ڤيك: "هذا جاك... رمادُ جاك."

ينظر بيرني نحو الجرة ثم نحو ڤيك، ومن ثم يلقي نظرة سريعة على المشرَب بأكمله. على وجهه ترتسم الملامح ذاتها التي تعلوه كلما قرّر طرد زبونٍ غير مرغوبٍ به من الحانة، وهو ما يُجيد فعله. وجهه يحمرّ، لكن سرعان ما تهدأ ملامحه، احمرار وجهه يتحول من علامة غضب إلى دلالة خجل.

"هذا جاك؟!" وينحني نحو الجرة كأنما يتوقّع منها أن تجيبه هي على سؤاله، كأنما ستحيّيه «أهلاً بيرني».

فيقول متعجباً: "يا إلهي... ما الذي يفعله هنا؟"

ڤيك يتولّى الشرح، ومن الأفضل أن يتولى ڤيك الشرح، كونه المحترف بيننا. فلو تُرك الأمر لي أو ليني فإنّ ما سنقوله سيبدو هراءً. لكني قلت لبيرني:

"رأينا أن نُحضره هنا كي يلقي نظرة وداع على «العربة»."

"فهمت."

لا أظنه فهم. يوضح ليني:

"هو لمٌّ شمل."

"بيرني، صبّ لي كأس ويسكي كبيرة، صب كأساً لنفسك أيضاً."

مراعياً ومتفهماً الوضع، كأنما فعلاً اليوم هو يوم ويسكي، ولا يليق بأحدٍ كذلك رفض دعوة حانوتي على كأس شراب، يجيبه بيرني:

"سأصبّهما حالاً ڤيك، شكراً."

يتناول كأسين من الرف، يصبّ في أحدهما جرعتين من الويسكي، بينما يكتفي هو بصب جرعةٍ واحدة في كأسه. يلتفت نحونا ويدفع بكأس الويسكي المزدوجة على سطح البار نحو ڤيك. يضع ڤيك ورقة الخمسة جنيهات على سطح المشرَب، لكن بيرني يرفع يده اعتراضاً: "على حساب المحل، ڤيك، على حساب المحل. فاليوم ليس كالأيام، أليس كذلك؟" ثم يرفع بيرني كأسه، عيناه على الجرة، كأنما ينوي إلقاء خطابٍ مؤثر وكبير، لكن كل ما يستطيع قوله: "يا إلهي، منذ ستة أسابيع كان جالساً هنا."

كلنا نتأمل كؤوسنا. ڤيك من يكسر الصمت:

"فلنشرب نخبه."

نرفع كؤوسنا، ونتمتم: جاك جاك جاك. أرفع كأسي لڤيك:

"في صحتك ڤيك، فقد أبليت جيداً يوم الخميس."

ليني مؤكداً: "مرّت بسلام."

"لا داع للشكر، فهذا واجبي، كيف حال آمي؟"

أجيبه: "تدبّر أمورها."

" ألم تبدل رأيها بخصوص المجيء معنا؟"

"لا، ستذهب لرؤية جوون، على جدولها المعتاد."

الصمت يلف الجميع، ومرةً أخرى ڤيك من يكسره:

"القرار يعود لها."

يقحم ليني أنفه في قدحه حتى لا يضطر لقول أي شيء.

قلقاً، يتنقل بيرني بنظره بين الجرّة والمشرب، ثم يرمق ڤيك بنظرة كأنما يعتذر

مسبقاً عما سيطلب منه.

"لا بأس بيرني، فهمت عليك."

يرفع ڤيك الجرة عن المشرّب، ثم يمد يده نحو العلبة ويحملها عن الأرض ويقول: "وجودها يزعج الزبائن، أليس كذلك؟"

ويعلّق ليني: "وتزعج زبائنك كذلك، ڤيك."

برفق يدس ڤيك الجرة داخل العلبة. عقارب ساعة سلاتيري تشير إلى الحادية عشرة وعشرين دقيقة، الجو الكنسيّ بدأ ينجلي عن الحانة. موجةُ قدوم الزبائن تتسارع. أحدهم يشغّل صندوق الموسيقى:

to Blue Bayou[5]، come what may،Going back some day

الأجواء تتحسن... تتحسن.

الحلقات الرطبة الأولى ترتسم على خشب الماهوغوني، بشائرُ نفحات الدخان الأزرق يحملها الهواء. ڤيك أول من يشعر بمضيّ الوقت:

"كل ما ينقصنا الآن هو سائقنا."

يقول ليني: "تلك أغنيته المفضلة، أتساءل ما السيارة التي سيقودها، فهذه الأيام أراه يقود سيارةً مختلفة كل أسبوع."

ويسألنا بيرني:

"جولة شرابٍ أخرى؟"

وبينما يسأل، يصل مسامعنا نفير البوق من الشارع، ينقطع النفير وهلة، ثم يعاود صياحه من جديد.

فيقول ليني: "يبدو أنه وصل، فلا أحدَ غير ڤينسي يصدر عنه هكذا ضجيج."

جولةٌ أخرى من النفير.

ڤيك يسأل: "ألن يدخل؟"

ويجيبه ليني: "أظنه يريد منا نحن الخروج إليه."

(5) مقطع من أغنية Blue Bayou للمغني الأمريكي Ray Orbison (1963). وترجمتها إلى اللغة العربية هي التالي: سأعود يوماً، مهما صار وجرى، إلى بلو بايو. م.

لكننا لا نخرج، بل ننهض عن مقاعدنا ونتجه نحو النافذة. ڤيك ما يزال متمسكاً بالعلبة، كأنما يخشى أن يسرقها أحد. رؤوسنا متلاصقة، نقف على أطراف أصابعنا كي نتمكن من رؤية السيارة عبر النافذة المكسوة نصفها السفلي بالصقيع. أنا أقصر من أن أتجاوزها، لكني لا أُظهر لهم عجزي عن الرؤية.

ليني أوّل من يراها: " يا إلهي!"

وڤيك متعجباً: " تلك مرسيدس!"

ليني معقباً: " لم يخب ظني في الصبي الكبير."

أدفع جسدي على عتبة النافذة كي أتمكن من الرؤية. هي مرسيدس لونها أزرقٌ ملكي، مقاعدها قشدية اللون، تبرق تحت شمس إبريل المشرقة. ومثل صديقاي، لم أستطع كبح تعجبي:

"يا إلهي، مرسيدس!"

فيقول ليني، وكأنما أخيراً حظي بالفرصة لإلقاء النكتة التي احتفظ بها في جعبته خمسين عاماً:"«رومل» حتماً كان ليفخر بها!"

راي

بمجرد أن رفعتُ عينيّ عن الرسالة، أجد آيمي تحدق بي، ثم تقول:
"أظنه عقد العزم على الذهاب هناك، بطريقةٍ أو بأخرى."
"متى كتبها؟"
"قبل عدة أيامٍ من..."
أنظر إليها مستغرباً:
"كان بإمكانه أن يخبرك بنفسه، فما الداع إذاً لكتابة الرسالة؟"
"أظنه خشي أن أعتبر طلبه مجرد مزحة، أظنه رأى أن الرسالة ستضفي جديةً على طلبه."

هي ليست رسالة طويلة، لكن كان من الممكن اختصارها، فهي مكتوبة بمفردات أشبه بما نراها مطبوعةً بالخط الصغير على الاستمارات. لم يكن أسلوب جاك على الإطلاق. لكني أظن الرجل ما إن يدنو أجله ويأتي عليه الدور، حتى يبدأ بتفضيل الأسلوب الرسمي في الكلام.

ورغم رسميتها، فالخلاصة بسيطة. هو يطلب أن ينثر رماده من حافة الرّصيف البحري في (مارغايت). حتى أنه لا يوجّه الرسالة قائلاً "عزيزتي آمي"، بل "إلى من يهمّه الأمر"!

تقول لي: "بلّغت ڤيك. أخبرني أن لا فرقَ عنده. ففي الوصية ذُكرت رغبةُ جاك بحرق جثمانه، لكن مصير الرماد أمرٌ يعود إلى الوصيّ، له أن ينثره في أي مكانٍ شاء شرطَ ألّا يتعدى على ملكية خاصة.
"إذاً؟"
"إذاً" ڤيك يقول لي "آمي، إن أردت تنفيذ طلبه، نفذيه. إن أردت مني تنفيذه فسأفعل. سأحرص ألا يكلف مبلغاً إضافياً كبيراً على الحساب. لكن أمرًا واحدًا مؤكّد في هذه الحالات: إن لم تنفذي طلبه، فلن يعلم جاك أبداً."

"إذاً؟"

كنّا جالسين في حديقة مستشفى (سانت توماس)، مقابل ساعة (بيغ بن). أخذت تنظر عبر النهر كأنما تسائل نفسها إن كان رماد جاك الآن بين يديها وطلبَ منها نثره في نهر التايمز، على وقع ضربات (بيغ بن)، فكيف كانت ستفعلها؟ لكن رماده لم يكن بحوزتنا. كل ما نحمله معنا زوجَين من بيجاماته، وفرشاة أسنانه، وموس حلاقته، وساعة يده، وأغراضاً تافهة أخرى كانت تعود له، يضعونها جميعاً في كيس بلاستيك ويسلمونك إياه متى ما وقّعت على استمارة الخروج. ما عاد هناك من سببٍ الآن للذهاب إلى المستشفى. لن نضطرّ إلى السّير مرةً أخرى في الرواق حيث يطاردك صرير الأبواب. لن نحوم حول غرفته هناك بينما نحتسي كؤوس الشاي. مريضٌ آخر سيسجّى على فراشه الآن في انتظار دوره.

اليوم شبه ضبابي والنهر يكتسي باللون الرمادي، بصرها ما يزال يرنو نحو النهر بصمت، لذلك أسألها، لأني أظنها تنتظر مني أن أسألها: "إن كنت تودين تنفيذ طلبه آمي، فسآخذك هناك."

تلتفت نحوي: "في عربة التخييم القديمة؟"

"طبعاً." أظنها ستبتسم وتوافق على عرضي، ويبدأ اليوم بالتحسّن.

"لا أستطيع راي، أعني... شكراً لك. لكن في الأحوال كلّها لا أودّ تنفيذ طلبه."

ترنو ببصرها نحو النهر مرةً أخرى، ولا يسعني القول إن كانت ترى وفاته مزحة سمجة، فجاك أخيراً كان مستعداً لفعل ما ظنناه مستحيلاً: بيع دكان الجزارة، تعليق مئزره المخطط، والبحث عن سبيلٍ آخر لقضاء ما تبقى من حياته. على أساس أنها وجاك وجدا ذاك الكوخ اللطيف في (مارغايت)، في (ويست غايت). حياتهما الجديدة كانت معدّة للانطلاق، غير أنّ جاك أصابته نزلة شنيعة من سرطان المعدة.

لم يكن مكاني لأتدخل، لكن كان لزاماً عليّ القول: "آمي، هذا طلب إنسانٍ على فراش الموت."

تنظر نحوي: " هلاّ نفذته «أنت» راي؟ " وجهها خالٍ من أي ملامح تعبير. "هكذا

يتحقّق طلبه، تنفّذ وصيته، ففي النهاية هو وجّه رسالته «لمن يهمه الأمر»، ألم يكتبها هكذا؟"

أصمُتُ وهلة، ثم أعاود حديثي معها: "حسنٌ، سأنفّذه. طبعاً سأنفّذ طلبه، لكن ماذا عن ڤينس؟"

"لم أخبر ڤينس، عن هذا. أعني..." تومئ نحو الرسالة وتتابع: "سأخبره، ربما أنت وهو..."

"أنا من سيخبر ڤينس."

أعيد لها الرسالة. هو خط يد جاك دون شك، لكن خطوط الكلمات هزيلة ومشوشة وضعيفة. ليس الخط ذاته الذي كنت تراه يدوِّن به على اللوح أمام دكّانه: «أضلع خنزير، أسعارٌ مخفضة.»

أقول لها: ربما هكذا أفضل، آمي، تخيلي لو أنكما ابتعتما الكوخ وكنتما على وشك الانتقال، أو بالكاد استقريتما هناك وجرى ما جرى، كم كانت ستضحو الأمور أسوأ حينها..."

تقاطعني قائلةً: "على أيّ حال، هو تقريباً حقّق النهاية التي طالما تمناها."

أتأملها بينما تطوي الرسالة وتقول: "فهذا كان شعاره «اعمل اعمل حتى تسقط ميتاً»، لكن في النهاية اعتبرني أنا المشكلة، أنا العائق بينه وبين تحقيق مراده. أتدري؟ حين أدركت أنه جديٌّ فعلاً في حديثه عن الانتقال، سألته «وماذا عن جوون؟» فردّ عليّ «هنا لبّ المسألة فتاتي، إن كنتُ مستعداً للتخلي عن حياتي كجاك دودز الجزار، فبإمكانك أنت أيضاً التخلي عن القيام بتلك المهمة الحمقاء» هكذا يدعو زيارتي الأسبوعية لجوون: «المهمة الحمقاء.»"

تعود وتنظر نحو النهر: "أنت أدرى بطبيعته، كلّما بدّل فكره توقّع من العالم كلّه أن يتغير معه. أخبرَني إننا سنُمسي أناساً جُددًا، هه، أناساً جددًا."

ألتفت عنها وأتأمل الحديقة حتى لا أُظهر لها حقيقة ما أفكر به: تلك بداية متواضعة لحياةٍ جديدة، التحوّل إلى أناسٍ جدد في ذاك الكوخ، في (مارغايت). تلك ليست بالأرض الموعودة.

هناك ممرضة تمضغ شطيرتها على مقعد في ركنٍ بعيد. من حولها الحمامُ يتهادى.
ربما يخطر على بالها الآن ما أفكر به، وربما هذا ما خطر على بالها حين أخبرها جاك عن خطته. (مارغايت) ليست بالأرض الموعودة.

أسألها: "واثقة أنك لا تودين المجيء؟"

تهز رأسها: "لي أسبابي، ألا تظن راي؟"

تنظر نحوي.

أنقر على الرسالة بين يديها: "وأظن جاك له أسبابه أيضاً." وتنسل يدي نحو ذراعها وأشد عليها برفق.

تقول لي: "شاطئ البحر، إيه راي؟" ترنو ببصرها مرة أخرى نحو النهر: "أنت محق، كانت له أسبابه."

ثم تلتزم الصمت.

الممرضة شقراء، شعرها مشدودٌ نحو الخلف مثلما تصفّف الممرضات شعورهن. ساقاها سوداوتان.

تعاود آمي الكلام: "على أي حال، لا أظننا كنا سنقدر على أخذ تلك الخطوة. أعني إذا حسبت ما يدين به جاك على حساب الدكان." يعتلي وجهها إحساسٌ بالمرارة. "في النهاية، ما كان المال ليكفينا."

تنتهي الممرضة من تناول شطيرتها، تنثر عن تنورتها الفُتات. الحمام يتهادى نحوها بسرعة، يلتقط ما نثرته. الحمام يبدو كشذراتِ الرماد، شذرات رمادٍ مجنّحة.

فأسأل آمي: "وما القَذر الذي كان لينقصكما؟"

طريق (أولد كِنْت)

ننطلق على الطريق متجاوزين طريق (ألباني) وجادة (ترافيلغار) ومنعطف (روثيرهايث). (غرين مان)، (توماس بيكيت)، (لورد نيلسون). زرقة السماء تكاد تماثل زرقة السيارة.

يقول ڤينس: " قيادتها سلسة، أليس كذلك؟" ويرفع يديه عن مقود السيارة ليرينا قدرتها على الثبات على مسارها. يبدو لي أنّها انحرفت شعرةً نحو اليسار.

أخبرنا أنه اختار هذه السيارة بالذات ليشرّف جاك، ليجعل من هذه الرحلة متعةً حقيقية. على أيّ حال، السيارة بقيت مركونة في صالة العرض قرابة الشّهر، محجوزة "لزبون" لم يقرّر بعد شراءها، وبضعة أميال على لوحة القياس لن تصنع فرقاً، ولن ينفع السيّارة بقاؤها هكذا دون حراك. فقرر أن يمنح جاك أفضل ما عنده.

ولم يكن الوضع سيئاً لنا، أنا وڤيك وليني، فها نحن جالسون في السيارة نستمتع بها، أحياء نرزق. كم يبدو العالم جميلاً حين تطلّ عليه عبر نافذةٍ إلكترونيّة مظلّلة بينما تجلس على مقعد جلديّ كريميّ، حتى طريق (أولد كِنْت) القديم سيبدو جميلاً.

تنحرف السيارة شعرةً نحو اليسار، فيقول ليني: "حاذر أيها الصبي الكبير من أن تنبعج السيارة على يديك، فلا نريد أن نكلفك الصفقة."

معترضاً على انتقاد ليني، يؤكد ڤينس أن لا سيارة انبعجت على يديه قط، خصوصاً إذا تولّى قيادتها على مهل وحذر كما الآن مراعاةً لمناسبة الرحلة.

لكن ليني لا يقتنع: "ويداك مرفوعتانِ عن عجلة القيادة."

يتجاهل ڤينس ليني ويسأل ڤيك عمّا يفعله هو في حال قيادته سيّارة عربةِ الموتى عبر الطريق العام.

فيجيبه: "ندوس على البنزين."

ڤينس لم يرتدِ ربطة عنقٍ سوداء. أنا وڤيك فقط. أما ربطة عنق ڤينس فبرّاقة ومقلّمة باللونين الأحمر والأبيض، بذلته زرقاء داكنة. تلك ملابسه الرسمية التي

يعتمدها أثناء عمله في صالة العرض، وقد أتانا من هناك، ليته فقط اختار ربطة عنقٍ أخرى. كان قد خلع سترته وتركها مطويّة على المقعد الخلفي بيني وبين ليني. نوعية جيدة. أظن ڤينس قد أبلى جيداً في حياته، فوضعه ليس بالسيء على الإطلاق. أخبرَنا كيف أن صعوبة الوضع الاقتصادي للمدينة بدأ يدفع بأهلها نحو القدوم إليه خلال استراحة الغداء لشراء السيارات نقداً.

ليني معترضاً: "لا تشجّعه، ڤيك."

"مع عربة الموتى الوضع مختلف، الكل يفسح لنا الطريق."

"أتعني أن لا أحد سيفسح الطريق لسيارة ڤينس؟"

ڤيك جالسٌ على المقعد الأمامي جانب ڤينس، يحضن العلبة على ركبتيه. أدرك أن تلك مسؤولية ڤيك كونه الحانوتيّ، لكن لا يبدو لي من الصواب أن يحتكرها طوال الرحلة. ربما علينا أن نتشارك حملها بالدّور.

ينظر ڤينس نحو ڤيك مبتسماً: "حانوتي حتى في يوم عطلتك، إيه ڤيك؟"

ڤينس يرتدي قميصاً أبيض وأزرار كمٍّ فضية، تفوح منه رائحة لاذعة لعطر ما بعد الحلاقة. شعره أملس ومصفوف بأناقة للوراء. بذلته جديدة.

ننطلق متجاوزين محطات الوقود، طريق (إلدرتون)، تحت جسر السكة الحديد، حانة (وندسور برنس). الشمس تبزغ من خلف البرج السكنيّ، أشعّتها تنعكس على وجوهنا. ڤينس يتناول نظارته الشمسيّة السميكة من داخل صندوق القفازات. ليني يتمتم بخبث أغنية "...Blue bayooo". وجميعنا يراوده الإحساس ذاته، مع الشمس تشرق على وجوهنا ونشوة البيرة تعتري صدورنا والطريق تمتد من أمامنا: أنّ الرحلة هي هديّة جاك لنا، تلك طريقته ليشعرنا بأهميّتنا، وبأن هذه الرحلة هي رحلة ممتعة ومرحة وعلينا أن نستمتع بنشوة قضاء وقتنا خلالها، فهذا العالم هو عالمٌ جميل، عالمٌ كأنه خلق فقط من أجلنا.

آمي

حسنٌ، دعهم، دعهم ينطلقون في رحلتهم، إيه جوون؟ دعهم ينفّذون طلبه، زُمرتهم كلها. فليذهبوا من دوني، من دونك. رحلة شباب. ستنفعهم.
فجاك أدرى باحتياجنا للاستمتاع. عملٌ عملٌ عملٌ، لا وقت للّهو أبداً. إلا إن اعتبرتِ تسكّعه في «العربة» لهواً.
هذا ما قلته له قبل كل تلك الأعوام الماضية، فلنمنح أنفسنا فرصة لنرتاح ونستمتع بها، فلنمنح أنفسنا إجازة. فتاته الشجاعة آمي. متى ما وقعت عن ظهر حصانك عاود النهوض والركوب عليه دون تردّد. فلنخلّص أنفسنا من أنفسنا. «أناسٌ جدد.» وربما ما كنت لأجبر على الاختيار بينه وبينكِ.
بطلي المسكين جاك.
عاودنا الركوب على دوامة الخيل، عاودنا الركوب على المراجيح. عشنا متعة اللهو على شاطئ البحر. كل تلك الأوقات جوون أنتِ لم تعيشيها قط. جولات الركوب على الحمار، اللهو بالرمال مع الدلو والمجرفة، عرض الدمى «بانش وجودي». أمواج البحر تغمر الشاطئ وجموع الناس من الكبار والأطفال يصيحون هاربين منها، أطفالٌ في كل مكان، وأبوك يتأمل الشاطئ كأنما يتأمل خدعةً سحرية. يرى الطائر الصغير، يخطف قُبلةً سريعةً مني، كلانا واقفان على حافة الرصيف البحري.
عدا أنه لم يكن بالرّصيف البحري، هو أخطأ حتى في تحديد المكان. فقد كان الرصيف الشاطئي. كان عليه أن يتذكر: الرصيف البحري والرصيف الشاطئي، رصيفان مختلفان تماماً. حتى وإن بدا الرصيف الشاطئي أقرب إلى رصيفٍ بحري، والرصيف البحري ما كان إلا سور المرفأ. غير أنّ ما عاد هناك من وجودٍ للرصيف الشاطئي، فقد غمرته العاصفة قبل أعوام وجرفته بعيداً. وحمداً لله أننا تخلصنا منه. لذا ربما في النهاية لم يخطئ تحديد المكان، كان فقط البديل الأقرب. فإن وجب على رماده أن ينثر، إن كانت المسألة بالنسبة له هي مجرد نثرٍ لا أكثر، إن كان

يودّ أن يُنثر من حافة مكانٍ ما، لكن لا تعتمد على وجودي معك جاك فأنا لن أنثر أيّ رماد، فليكن إذاً من حافة الرصيف البحري. عدا أن رمادك كان يجب أن ينثر من حافة الرصيف الشاطئي.

(نيوكروس)

يقول ڤيك: "بام تبعث لكم بتحياتها، قلبها معنا."

ليني: "كذلك جوان."

وڤينس: "كذلك ماندي."

طالما تحول الحديث إلى الزوجات، فخيرٌ لي أن ألزم الصمت.

يقول ڤينس: "لقد سعدت برؤية بام في الجنازة، ڤيك، فنحن لا نحظى عادةً بفرصة لقائها."

فيرد ڤيك: "كانت فرصةً حزينة."

وليني يعلق: "مرّت بسلام."

نقترب من إشارة المرور عند محطة (نيو كروس غايت)، أزمة السير خانقة ويبدو كأننا نزحف زحفاً على الطريق.

لا أظن كارول سمعت حتى بخبر وفاة جاك. كنت سأصدم صدمة حياتي لو أنها حضرت الجنازة.

ليني يقول: "زوجاتنا كنّ سيحضرن، جوان كانت مستعدة، لكن طالما آيمي..."

فأقاطع ليني: "لا أدري كيف كنا سننحشر نحن السبعة ليني، حتى في شيء كهذه."

فيتدخل ڤينس: "تكفينا نحن الأربعة، وبأريحية. على أي حال هي مَهمّة رجال."

فأقول مصححاً ڤينس: "خمسة."

"خمسة"، ثم يردف قائلاً: "هي ليست «شيء» رايزي، هي مرسيدس."

ليني ينظر نحوي ثم يجول ببصره خلال الازدحام الخانق من حولنا. "ولتكن مرسيدس، لا أظنهم صنعوا واحدة تهزم أزمة السير بعد، أليس كذلك أيها الصبي الكبير؟"

ليني المشاكس.

فيقول ڤيك: "بام كانت ستعد لنا سندويشات وثيرموس شاي، لكني قلت لها أننا

كبارٌ بما فيه الكفاية لنتدبر أمورنا." ڤيك يحضن العلبة كأنما هي علبة غدائه.

فيكرر ڤينس ما قاله: "هي امرأة طيبة، ڤيك، سعدت فعلاً برؤيتها."

ويدخل ليني على الخط: "جوان كانت مصمّمةً على المجيء."

نزحف خمس ياردات نحو الأمام ثم نقف. الناس تمشي على الرصيف متجاوزةً إيّانا، ثم تنسلّ داخل بوابة المحطة كأنما اليوم هو يومٌ عادي. كان من الأجدر بنا أن نعلن بالنّيون عن مَهمّتنا: رماد.

يقول ليني مشاكساً: "في خنقة السير كل السيارات تتساوى، أليس كذلك ڤينس؟"

ينقر ڤينس أصابعه على عجلة القيادة.

فيقول ڤيك: "على أيّ حال، بام تقول لكم إن جاك قد حظي برفقة فرسان الشّرَف."

كلنا نستقيم في جلستنا، كأن علينا أن نصبح أناساً آخرين، كأننا نحن من أبناء العائلة المالكة، وعلى الناس أن تقف وتلوّح لنا.

ڤينس

هي 380 من الفئة S، وليست «شيء». V8 أوتوماتيك. عمرها ستة أعوام، ورغم ذلك تنطلق بسرعة مئة وثلاثين دون رجفة. لكن ليس على طريق (نيو كروس)، يستحيل. مصبوغة حسب الطلب، كلّ مقاعدها جلديّة.

لذا على حسين أن يشتريها عاجلاً، نقداً، الأجدر به أن يفعل. فإن لم يفعل، ستنفذ مني السيولة.

لن أخبر أحداً، لا آمي ولا ماندي، عن طلب جاك الأخير، طلبه الصّغير، ولا عن إحساني الصغير إليه. لطالما أخبرته، لا تأتِ راكضاً إليّ جاك، لا تتوقع مني أن أساعدك بشِلِن.

يبدولي أنّ الفرصة الوحيدة التي يحقّق فيها الرجل مُرادَه هي لدى طلبه إيّاه على فراش الموت. رغم أنه لم يطلب مني مرسيدس من الفئة S، مزودة بقاعدة عجلات طويلة، وذات لوحة عدّاد من خشب الجوز. لذا آمل أن يقدّر الملعون صنيعي، آمل أن يفعل. والأجدر بحسين أن يشتريها ويدفع كل ما عليه.

عجلاتها مبطّنة بالأبيض. العجلة الأمامية على يساري يلزمها هواء.

قلت له: " دعني أجلب لك قدحاً آخر جاك، ثم سأغادر إلى منزلي. فأنا ربّ أسرة الآن، ألا ترى؟" لكنه يحدق بي، يرفع يده فجأة كأن على الجميع التزام الصّمت حالاً، كأنّ ما قلت عن كوني ربّ أسرة أجفله، وأرى أنّ كلًّا من ليني وراي أخذ يحدّق في قدحه.

لكني فعلاً رب أسرة، أسرة مكوّنة مني ومن ماندي وطفلتي كاث، كانت ما تزال ترتدي الجوارب القصيرة.

يستأذن أصدقاءه: "اعذرونا أيها السادة، أنا وڤينس بحاجة إلى تبادل حديثٍ خاص." وإذ به يمسك بمرفقي ويدفع بي بين الزبائن نحو طاولة في الزاوية. يُسرُّ

إليّ أن الأسبوع قد مرّ صعباً عليه ولا يملك ما يكفي من المال، فإن كان من الممكن أن أعطيه خمسة جنيهات حتى يدفع ثمن المشروب لصديقَيه راي وليني، فلا يبدو أحمقَ أمامهما، لكني كنت مدركاً قصدَه من وراء سؤاله، لِمَ طلبَ منّي المرور عليه في الحانة. خمسة جنيهات. بل أقرب إلى خمسة آلاف جنيه. فإن كنت ترجو مساعدتي، فارجوني.

لكن لا أثر للتواضع والمسكنة في طلبه. ينظر إليّ كأنما أنا من عليه أن يتوسّله قبول مساعدتي له، كأنما المبلغ الذي يطلبه ليس بدينٍ عليه، بل ردّ دينٍ له علي. فأقل ما كان عليّ فعله لأردّ له الجميل، وما كان ليتركني دون أن أعرف، الانضمام إليه في دكانه قبل كل تلك الأعوام لنعمل سوياً، أبٌ وابنه، فالدم لا يصير ماء. لكن مشكلتي لم تكن مع الدم، بل اللحم. اللحم أو السيارة، هذا كان الخيار.

فأقول له: "لا تتوقع مني مساعدتك، فلن أدفع لك شيئاً."

لكنه يحدق بي كأنما لزاماً عليّ أن أدفع له ما يريد، كأنما عقدنا صفقةً فيما مضى وقد حان الوقت لأداء نصيبي منها. وإن كان هناك من يعرف طبيعة الصفقات فهو أنا، أليس كذلك؟ فأنا بائع سيارات مستعملة، معتادٌ على عقد الصفقات. كأنما بَيع السيارات المستعملة مهنةٌ معيبة، بينما الجزارة مهنةٌ مقدسة!

أقول له: "أنت لا ترى أبعد من أنفك. ها هو سوبرماكت جديد قد فتح أبوابه نهاية الشارع وكنت على رأس قائمة الجزارين الذين عرضوا عليهم خيار العمل لديهم مسؤولاً عن قسم اللحوم. لا خيار أمامك إيه؟"

" وهل لدي خيار أصلاً"

" دعك في دكانك إذاً، هي جنازتك."

"على الأقل سأبقى سيد نفسي."

"سيد نفسك؟! لم تكن يوماً سيد نفسك، والدك كان سيدك، ألست محقاً، ما المكتوب أعلى الدكان؟"

يحدق بي كأنما سيوجه لكمةً بين عينيّ.

يقول لي: "المكتوب ينطبق عليّ وعليك، أليس كذلك؟"

فأجيبه: "لا تتوقع مني أن أنتشلك من مشاكلك، هذا كل ما سأقوله." أناوله الخمسة جنيهات: "لا تتوقع مني شيئاً." وأدسّ في يده خمسة جنيهات أخرى.
"هذه عشر جنيهات، جاك، امضِ وادعُ أصحابك للشرب على حسابك، اشترِ مشروباً لنفسك أيضاً، أما أنا فسأنقلع من هنا."

وما الذي فعله لي على أيّ حال؟ آمي هي صاحبة المعروف. كل ما جرى أنّه عاد من انتصاره في الحرب ووجدني راقداً في المهد، المهد الذي كان من المفترض أن ترقد فيه جوون، كنت أنا هدية عودته سالماً إلى البيت.
تتمتع بنظام ضبط مسافة الأمان، نظام توجيه.
وها هو بعد أربعين عاماً ونيّف، يرقد مع أنابيب مغروزة في جسده، سيّد نفسه بالتأكيد، ويقول لي: "اقترب مني ڤينس، أريد أن أطلبك شيئاً." سيظل يلح علي.
هي سيارة جميلة.
وذاك الجراح – ستريكلاند – يحدّق بي كأنما أنا ضحيته القادمة، من سيغرز سكينه في جسده عن قريب. قلت لنفسي ربما لأنه عرف أني لست حقاً بقريب جاك من الدرجة الأولى. لكن لاحقاً فكّرت، لا، هو لا يرمقني بتلك النظرة لهذا السبب، بل لما صنعه به الوغد العجوز، وأني لابدّ سأحذو حذوه متى ما مرضت. هي حتماً من طِباع جاك أن يصعّب الأمور حتى على من يحاول إنقاذه.
يبدأ الجراح بالشرح لي: "هل تعرف كيف تبدو معدتك؟ " وكأني أحمقٌ كبير. ثم يردف قائلاً: "وهل تعرف أين هي؟"
هي وسيلتي الوحيدة لأفهم، إن تخيّلتها عملية صيانة، رفع قوّة المحرك، ترشيح عادم السيارة وغيره. أجهل تفاصيل النظام الذي تعتمده أجسادنا، لكني أعرف السيارة الرائعة حين أرى واحدة. أعرف كيف أفكّ المحرك إلى كل أجزائه. إن سألتني، فاللحم والدم ليسا بالعمل المتقن، ليس دائماً، لكن السيارة الرائعة تظل سيارة جيدة.
لذا الأجدر بحسين أن يسعّل ثمنها كاملًا.

راي

اعتاد جاك أن يقول: "شلّة أشباح رايزي، هذه حقيقتكم موظّفو المكاتب، شلة زومبي لعينة. لم لا تأتِ إلى (سميثفيلد) يوماً ما وترى بعينيك كيف يؤمّن الرجل الحقيقي عيشه."

وفعلاً، كنت أذهب إلى هناك أحياناً، في الصباح الباكر، خصوصاً حين بدأت الأمور تنهار بيني وبين كارول، حين لم نعد نتبادل حتى كلمةً واحدة. كنت أنسلّ باكراً من البيت وأركب الحافلة (63) لكن أنزل بعد محطتين من نقطة الوصول المعتادة، ثم أكمل طريقي سيراً من طريق (فارينغ دون) إلى شارع (تشارترهاوس)، بينما الصّبح لم يكن قد انبلج تماماً. وأتناول إفطاري في (سميثفيلد). كنا نذهب إلى ذاك المقهى في (لونغ لين) أو إلى إحدى الحانات التي تقدم البيرة مع وجبات خفيفة لزبائنها الساعة السابعة والنصف صباحاً. كنت ألتقي بتيد وايت من (بيكهام) وجو مالون من (روثيرهايث) وجيمي فيلبس من (كامبرويل). وطبعاً، في الأيام الأولى، كنت ألتقي بفينس أثناء تدريبه على الجزارة، قبل أن يلتحق بالجيش.

اعتادوا أن يقولوا لي، رايزي، ما تحتاج إليه فعلاً هو تناول كثيرًا من الطعام، انظر إليك كم أنت شاحبٌ وهزيل. ما تحتاج إليه هو لحمٌ يكسو عظامك. ودائماء ما كنت أرد عليهم محاولاً إقناعهم أن هذه هي طبيعة بنيتي، أنا من أصحاب وزن الفراشة، مهما ابتلعت من طعام، فلن يصنع فرقاً مع جسدي.

أليس غريباً أنك لا تصادف جزاراً نحيلاً.

اعتاد أن يلقي على مسامعي كل ذاك الهراء عن (سميثفيلد)، يلغو ويلغو عنها. كيف أنّ (سميثفيلد) هي المركز الحقيقي، القلب النابض للندن، أو بالأحرى القلب الدامي مع كل اللحوم المعلقة فيها. كيف أنّ (سميثفيلد) ليست فقط (سميثفيلد)، بل هي الحياة والموت. هي كذلك: الحياة والموت. فمقابل سوق اللحم، يقع مستشفى (سانت بارت)، ومقابل المستشفى تقع محكمة (أولد بايلي) المركزية الجنائية، المطلة

على سجن (نيوغايت) القديم حيث اعتادوا على شنقهم بين يومٍ وآخر. لذا ما تحصل عليه في (سميثفيلد) هو ثالوث الدم: اللحم، الطب، والجريمة.
لكنه جيمي فيلبس من أسرّ إليّ أنّ حديث جاك الفارغ عن (سميثفيلد) ما هو إلّا تكرارٌ لحديث أبيه، روني دودز، كلمةً كلمة، حرفاً حرفاً. كذلك كان جيمي فيلبس من أسرّ إليّ حين اطمأن لابتعاد جاك عن السمع، حين حمّل جاك وڤينس العربة باللحوم متجهين إلى (بيرموندزي)، أنّ جاك لم يرغب قط أن يكون جزاراً، قط. أصبح جزاراً فقط لأن والده لم يمنحه خياراً آخر. دودز وابنه، عائلة جزارين منذ عام 1903.

يقول لي: "هل تعرف ما أراد جاك أن يصبح؟ لا تقل لجاك أبداً أني أخبرتك." على وجهه ترتسم شبه ابتسامة، وملامحه شبه مذعورة، كأن جاك ما يزال موجوداً وقد يتسلل من خلفه!"حين كان جاك في مثل حال ڤينس الآن، متدرّباً لدى أبيه، كما كنتُ أنا متدرباً، اعتاد أن يقضي كل دقيقة فراغ في تفحص الممرضات الخارجات من مستشفى (بارت). أظن الممرضات هنّ السبب، فقد اعتقد أن كل طبيب سيحظى بزوجٍ مجاني من الممرضات لنفسه، ويوماً ما يقول لي، ولم يكن يمزح على الإطلاق، أنه مستعد لمصارحة أبيه بكل شيء وإخباره بأن يتعايش مع خيبة أمله ببقائه وحيداً مع اللحم، لأن ما يريده حقاً هو أن يكون طبيباً."
ينفجر جيمي ضاحكاً. يجلس هناك مرتدياً مئزره الملطخ، كفّاه تحيطان كوب الشاي، وينفجر ضاحكاً. "لقد كان جاداً في عزمه. أخبرني أن كل ما يتطلبه الأمر هو تبديل مئزر أبيض بمئزر أبيض! هل لك أن تتصوره، دكتور دودز!"
يراني لا أضحك، لذا يشكم ضحكه، ثم قلقاً يسألني:
"لن تخبر جاك بما قلت؟"
فأجيبه: "لا." قلتها كأني سأراجع نفسي لاحقاً وأخبره.
وأتساءل إن كانت هي رغبة جيمي فيلبس دائماً أن يكبر ويمسي جزاراً. وأعود بذاكرتي إلى ما قاله جاك ذات مرة، في الصحراء، كيف أننا جميعاً، ضبّاطاً وأفراد،

معجونون من الطينة ذاتها. في النهاية عدد النجوم المصفوفة على الأكتاف لا تساوي رمية بنْسٍ في الهواء.

فما كانت أمنيتي أن أكبر وأصبح موظّف تأمين.

لكني لم أخبر جاك قط بما عرفته. وجاك لم يخبرني بسرّه قط. رغم أنك قد تعتقد مع رقوده في مستشفى (سانت توماس)، محاطاً بالأطباء والممرضات، أن الفرصة قد أضحت مواتية له ليفصح لي عن سره الدفين. لكن كل ما قاله لي، «كان من الأجدر بي أن أرقد في (بارت)، إيه رايزي، (بارت) ولا مستشفى غيره»"

وسواء أراد فعلاً أن يصبح طبيباً أم لا، يبدو لي أن كل تلك الأعوام التي قضاها جزاراً، كل تلك الأعوام التي قضاها في الذهاب يوماً بعد يوم إلى سوق اللحوم في (سميثفيلد)، قد منحته الضحكة الأخيرة على مهنة الطب. إذ يخبرني بما جرى بينه وبين الجراح حين أتى لرؤيته محاولاً التخفيف من خطورة وضعه بينما يشرح له خطورة وضعه. لكن جاك ما كان ليقبل المراوغة ولا البربرة.

"اسمع رايزي، حين جاء أخبرته أن يعلمني وجهاً لوجه باحتمالات نجاتي، لكنه يتردّد قائلاً إنه ليس برجلٍ مقامر، لكني ضغطت عليه حتى أقر وقال لي: «فلنقل اثنان إلى واحد.» فقلت له "والأفضلية اللعينة لي، أليس كذلك؟" ثم بدأ يثرثر عمّا سيفعل في العملية، هذه الخطوة وتلك، لكني أضع حداً له، «دعك من هذا الهراء واكشف لي أوراقك.» أرفع صدر بيجامتي وأسأله، «قل لي، بالضبط أين ستغرز سكينك وتفتح؟». أراه ينظر نحوي منزعجاً كأني أسلبه متعة لعب دوره، كأني لم ألتزم بقواعد اللعبة، لذا أوضح له، «هو اهتمامٌ مهني، لا أكثر ولا أقل، أنت متفهم لوضعي دون شك.» لكنه ينظر إليّ مستغرباً، لذا أوضح له، «ألا يذكر الملف بين يديك مهنتي، اعذرني، أعني مهنتي السابقة؟". يلقي نظرة سريعة على ملاحظاته، وسرعان ما ينظر إليّ خجلاً ويقول، «أرى أنك جزّار سيد دودز.» فأرد عليه مصحّحاً، «بل معلّم جزارة.»"

(بلاك هيث)

يسألنا ڤيك: "هلّا أخبرني أحدكم، لماذا؟"

فيجيبه ڤينس: "هو المكان الذي اعتدنا الذهاب إليه عطلَ الأحد، يقود بنا إلى هناك في عربة نقل اللحوم القديمة."

يقاطعه ليني: "أنا أدري برحلات الأحد أيها الصبي الكبير، تظنني لا أذكر؟ لكن هذه ليست بعطلة أحد."

فأجيبه: "هي المنطقة التي قضيا فيها شهر العسل."

ليني محتاراً: "لكني ظننتهما لم يحظيا بشهر عسل. أنهما آثرا وقتها توفير المال لشراء عربة أطفال."

فأعود وأؤكد له: "حظيا بشهر عسل لاحقاً، بعد ولادة جوون. حينها قررا أنهما على الأقل سيحظيان بشهر عسل."

يرمقني ليني بنظرة من نظراته المشاكسة: "ويا له من شهر عسل!"

ڤينس مؤكداً كلامي: "هذا ما حصل، صيف عام 39."

فيغيظه ليني: "على أساس كنت هناك معهما، إيه أيها الصبي الكبير؟"

الكل يصمت. الكل ما عدا ليني: "من عربة نقل لحوم إلى مرسيدس، إيه؟ إن لم تخنّي ذاكرتي رايزي فأنت كذلك لم تكن متواجداً معهما تلك الفترة."

ينظر ڤينس نحونا عبر مرآة القيادة، لا يسعك رؤية عينيه خلف تلك النظارة الشمسية.

فأُجيبُ ليني: "آمي أخبرتني".

وليني ما كان ليهدأ: "آمي إذاً من أخبرتك، وهل أخبرتك كذلك لِمَ ترفض المجيء معنا؟"

الكلّ يعود للصمت.

فيتولى ڤيك الحديث من هنا: "لن يصنع مجيأها معنا أيّ فرق، فجاك لن يعلم

بحضورها من عدمه، أليس كذلك؟ في واقع الأمر أنا أخبرتها إذا ما أرادت تجاهل طلبه الأخير بالكامل ونثر رماده في حديقة المقبرة فلن يصنع فرقاً معه لأنه بكل بساطة لن يعرف، لن يعرف."

لم يعجب الشرح ليني: "وهذا الكلام يصدر منك أنت، الحانوتي."

لذا أقول:"هي ستذهب لرؤية جوون. اليوم هو موعد زيارة جوون الأسبوعية."

لكن لا فائدة مع ليني: "تلك ليست المسألة، إن تخلّفت آمي عن زيارة جوون أسبوعًا واحدًا فلن يشكّل فرقاً لجوون، فهي كذلك لن تعرف بحضورها من عدمه، ألستُ محقاً؟ فجوون لا تفقه شيئاً عن أي شيء. ولو كانت آيمي فعلاً تود القيام معنا بهذه المهمة، لكنّا انتظرناها حتى تصبح مستعدة، لم يكن من الضروري أن ننطلق في رحلتنا اليوم."

فيقاطعه ڤيك: "لا تحكم عليها".

فيرد عليه ليني: "الرماد رماد، لن يفسد إن انتظرنا "

فيقول ڤيك: "تلك الأمور من المهم تنفيذها على وجه السرعة دون مماطلة"

فيرد عليه: "الأهم احترام الطلب الأخير"

ثم يدخل ڤينس على خط النقاش: "وكيف نتأكد أن جاك لن يعرف؟"

يتابع ليني متجاهلاً ڤينس: "ليس الأمر كأني سأطلب طلباً أحمقاً كهذا على فراش موتي."

فأقول له: "لم يكن الطلب محدداً."

"ما الذي تعنيه؟"

"ما دوّنه جاك، فيما يخص طلبه الأخير، هو لم يحدد آيمي، لم يطالبها شخصياً بتنفيذه، كل ما أراد هو أن يتم تنفيذ طلبه على يد أيٍ كان."

"وكيف عرفت؟"

"آمي أرتني الرسالة."

"آمي أرتك الرسالة! يبدو أني الوحيد هنا خارج الدائرة."

ينظر ليني عبر النافذة. نقترب من (بلاك هيث) متجاوزين الجهة الخلفية من

حديقة (غرينتش). أزهار النرجس البري على مدّ أطراف الحديقة. ويقول:"منجم معلومات صاحبنا رايزي".

ڤينس ينظر عبر المرآة.

ڤيك بدأ ينزعج وكل ما نسمعه منه تت – تت – تت، كأن الوقت قد حان لتغيير الموضوع. فيقول:"هو راي هكذا، حتى مع سباق الخيل عليك أن تعصر المعلومة منه عصراً."

ڤيك يحمل العلبة في حجره. لا أظن من الصواب أن يحملها طوال الرحلة.

فيقول ليني: "حتى وإن عصرته، سيمنحك تنبّؤات لا قيمة لها."

معترضاً: "تنبؤي الأخير جاء في محله."

ڤينس ما يزال ينظر نحونا.

فيرد ليني: "وما الفائدة، فأنت لم تمنحها لأيٍّ منّا."

ويسألني ڤيك: "منحتها لمن، رايزي؟" دور الحكم يليق بڤيك.

فأقول: "سأفشي سراً إن فعلت، أليس كذلك؟"

أتأمل الطريق عبر النافذة. (بلاك هيث) ليست بأرضٍ سوداء وليست بالأرض الخلاء. هي غطاءٌ من العشب الأخضر تحت سماءٍ زرقاء. ولولا تقاطع الطرق عليها لكانت أرضاً مناسبة لتعدو عليها الخيول. اعتادت أن تكون أرضاً لقُطّاع الطرق. عرباتٌ إلى (دوڤر). مالك أم حياتك.

يعود ڤيك ويسأل: "ما يزال اختياره غامضاً بالنسبة لي، لِمَ (مارغايت) تحديدًا؟"

فيجيبه ليني: "أظنها خدعة، ليعرف إن كنا سننفذ طلبه ونفعلها."

يستدير ڤينس على مقعده ويلتفت للخلف نحونا سائلاً: "إذن تظنه سيعرف؟ تظنه يرانا الآن؟"

تطرف عينا ليني ويحبس أنفاسه لحظة، يختلس نظرةً سريعة نحوي ثم ڤيك كأنما يلتمس منه أن يواصل مهمة التحكيم.

"لم أقصد ما قلت حرفياً ڤينس، هو مجرد كلام. طبعاً لا يمكنه رؤيتنا. لا يمكنه رؤية أي شيء."

يدا ڤيك تتحركان قليلاً أعلى العلبة.

ثم يزقزق ليني ضاحكاً: "يبدو أن خدعته انطلت عليك أيها الصبي الكبير، فإن كان عاجزاً عن رؤيتنا، عاجزاً عن رؤية أي شيء، فما بالك استعرْتَ سيارة المرسيدس لتنقلنا بها؟"

ڤينس ينظر نحو الطريق أمامه.

العشب يلمع تحت أشعة الشمس. جاك لن يراه.

فيقول ڤيك، بحنانٍ ورفق: "هي البادرة ڤينس، وهي بادرة طيبة منك. فهذه سيارة جميلة."

ڤينس مؤكداً: "هي ليست بعربة نقل اللحوم".

ڤينس

عينا جاك مغمضتان، يبدو نائماً، فأقول لنفسي هذه فرصتي لأنسلّ خارج الغرفة متسللاً، لكن ماذا إن لم يكن نائماً، حينها سيعرف أني تسللت خارجاً، وسأسقط في الاختبار الذي أعدّه لي. لذا أجازف بفرصتي وأناديه: "جاك؟" وما أسرع ما فتح عينيه.

هناك ممرّضة تؤدّي نوبتها، الممرضة كيلي، تلك التي أشتهيها، ذات الشعر الأسود. أقول لنفسي، إن أتيحت لي الفرصة، فسأتودّد إليها. لِمَ لا؟ فأنا أعيش ظرفاً خاصاً، كأنما العالم على وشك الانهيار. ما رأيك يا «ممرضتي الصغيرة،» أنا وأنت؟ كنت سأتسلّل خارجاً مع الممرضة كيلي.

أقول لجاك: "آمي أخبرتني أنك تود التحدث معي، على انفراد."

أمضى بُرهة لا ينطق بكلمة، ثم راح يقول: "أخبرت آمي أنّي أودّ رؤية راي. أخبرتها أن تطلب من راي المرور بي."

ينظر نحوي.

"جاك هذا أنا، ڤينس." فأنت لا تستطيع التمييز مع تأثير كل تلك المسكنات، مع كل ما يجري.

محدقاً بي ينهرني: "أنا لم أفقد عقلي."

أظنّه يدرك الآن، هو مدركٌ فعلاً. أخيراً استوعب حقيقة مرضه وحظي بالوقت للتعايش معه، «التعايش معه،» أنّ مرضه ليس بمزحةٍ سمجة أطلقها أحدهم. كأنما يأتيك أحدهم بغتةً فيأمرك أن ترمي كل شيء عن يديك لأنك انتهيت، لكنك لم تنتهِ، أنت حتى لم تكن وشيكاً على الانتهاء.

عليه أن يعرف. لكني أجهل شعور أن يعرف. ولا أريد أن أعرف.

" أعرف أنه أنت ڤينس، وأعرف أني أنا، أتود أن نتبادل؟"

ابتسم، نوعاً ما بحماقة.

"تعال هنا ڤينس، أريد أن أطلبك شيئاً."

الليلة عاصفة. الجو في الخارج ممطر والرياح تعصف بقوة. على النافذة في آخر جناح المرضى قطرات المطر مرتعشة ومهتاجة. لكن لا أظن الأحوال الجوية في الخارج، مشمسة كانت أم ماطرة، تعني شيئاً هنا، لا أظنها موضوع حديث مثير للاهتمام.

أتخيل الممرضة كيلي تخرج بعد انتهاء نوبتها، الريح ترفع تنورتها.

"اقترب ڤينس."

أعتقد أني قريب بما فيه الكفاية، ومع ذلك أنزاح قليلاً نحو أعلى الفراش محنياً رأسي اتجاهه. يداه مبسوطتان على الملاءة، الأصابع شبه ملتفة حول نفسها، أشرطة لاصقة وغيرها تمتد على معصمه حيث الأنابيب مغروزة. أنا مدركٌ لرغبته أن أمسك بيده. ليس من المفترض أن يصعب عليّ الإمساك بها، أن أحمل يده في يدي، لكن ماذا لو أمسكت بيده، حينئذٍ يكون قد أمسك بي، ولن يطلق سراحي أبداً.

"أخبرت آمي أني أود الحديث مع راي على انفراد."

"أمرٌ جيد، راي صديقك."

"راي صديقي."

ينظر إليّ.

"آمي لا تعرف بحقيقة وضعي، أليس كذلك؟ ما تزال محتارة."

"هي بخير، هي تتدبر أمورها، ستتدبر أمورها."

أطمئنه وأنا مدركٌ لكذبتي، أنها لا تتدبر أمورها، حتى وإن تدبرتها مستقبلاً. أنها ستأتي الليلة أيضاً إلى الغرفة الإضافية في بيتها حيث ننام أنا وماندي وتوقظني من النوم كي أحضنها وأعانقها على مرأى من ماندي، كأني أنا زوجها الجديد، كأني أنا جاك.

يقول لي: "مهمتي هي الأسهل."

أنظر إليه.

"لا تبدو سهلةً لي."

"الذعر يصيب أهل المريض."

الممرضة كيلي تنحني فوق مريضٍ بائسٍ آخر. حين رأيتها أول مرة قلت له: "ستكون على ما يرام هنا جاك، فقد حالفك الحظ. " أما الآن فلست متأكداً إن حالفه الحظ. لا أدري إن كان من العذاب أو الرحمة أن تغطيك في فراش موتك امرأةٌ كالممرضة كيلي.

اسمها جوي. الممرضة جوي كيلي. مكتوبٌ على بطاقتها، على نهدها الأيسر.

جاك على فراش الموت وأنا في حال انتصاب.

"إذاً ما الذي أخبرك به ذاك المتأنق ستريكلاند، قبل العملية؟ حاول أن يستميلك بكلامه المنمق أليس كذلك؟"

أفكّر لحظةً ثم أقول: "سأكون صريحاً معك، ما كانت العملية لتصنع أي فرق. أخبرني أن فرص نجاتك هي واحد من عشرة."

ينظر إليّ: "عشرة إلى واحد. وأنت لم تراهن علي، هل راهنت؟ أراهنك أنك لم تراهن."

أرى أنه أدرك معرفتي طوال تلك الفترة، بطريقةٍ ما، أن فرص نجاته معدومة. لم يراودني الأمل ولا التمني.

ربحت رهانك جاك.

"ساعدني لأنهض، ڤينس."

يقبض على ذراعي وأثبت أنا جسدي ليستند عليه. من المؤلم عليه النهوض هكذا مع وجود زمام الغرز على معدته، الشاش ملطخ ببقعة بنفسجية، لكنه لا يجفل، ينتظرني بثبات حتى أعدل الوسائد بيدي الأخرى. لم يعد وزنه ثقيلاً الآن. جاك الضخم.

"هكذا أفضل." وبينما يقولها أراه يتشنج، حلقه يغص. هو على وشك أن يتقيأ تلك القذارة التي تتجمع في داخله. أتناول الإناء من الرف وأحضّر المناديل الورقية. كما

كنت أفعل مع كاث حين كانت طفلةً صغيرة.

يستقر على وسادته، ويمسح فمه. أضع الإناء على المنضدة جانب سريره. من المفترض أن تتغير هيئته، لا يعود كما كان، لكن ما حصل أنه أضحى أكثر شبهاً بنفسه. كأنما مع انهيار جسده، كل ما يعبّر عن حقيقته انتقل إلى وجهه، رغم أن وجهه هو الآخر تغير، أضحى غائراً مترهلاً، لكن كأنما أنار أحدهم قبساً من نور داخل وجهه، كل ما هو حقيقي في جاك أضحى مرئياً الآن.

أقول له: "ما الذي تود قوله لي؟" بدا سيئاً ما قلت، كأني رجلٌ مشغول ولا بد لي أن أغادر بسرعة لأتابع أعمالي.

ينظر إليّ. ينظر تماماً إلى وجهي كأنما يبحث هو الآخر عن قبسٍ من نور، يبحث عن وجهه في وجهي لكن نظراته تخترقني كأني فراغ، فأنا لا أملك عينيه، ولا صوته، ولا عظامه، ولا ثبات شكيمته متى ما حدّق بك دون أن تطرف عيناه اللعينتان مرةً واحدة.

ولمّا كانت حياته انتهت، لما كان من داعٍ لتنتهي.

كأني لست بإنسانٍ حقيقي، ولم أكن يوماً حقيقياً. لكن جاك حقيقي، حقيقي أكثر من أي وقت مضى، لكن ليس لوقتٍ طويل.

يقول لي: "أريدك أن تقرضني بعض المال نقداً."

"نقداً!"

"نقداً."

"أنت في حاجة إلى المال نقداً؟"

يلمس جارور المنضدة جانب سريره. "محفظتي هنا، تجدها إلى جانب ساعتي ومشطي." يسحب الجارور إلى المنتصف، بحرص وسرية، كأنما حياته كلها يحتفظ بها في الداخل.

" تريدني أن أضع لك المال نقداً هنا؟"

"أحتاج إلى المال بني."

كأني أصبحت والده الآن. لقد حان وقت النوم جاك، دعك من اللهو، أتيت لأتمنى

لك ليلة سعيدة.

أهز كتفيّ مستخفًا به وأنظر إليه بينما أتناول محفظتي من جيب سترتي، لكنه يقبض على يدي.

"أنا في حاجة إلى ألف جنيه."

"ألف جنيه! أنت في حاجة إلى ألف جنيه؟"

"أحتاجها يوم الجمعة على أبعد تقدير. ولا أحتاج منك شيئاً آخر."

ينظر إليّ، وأنظر أنا إليه. ما يزال يقبض على يدي.

"لا تسألني ڤينس، لا تسألني. ما سألتك اياه هو رجاء وليس بطلب."

أنظر إليه. فوق رأسه معلقة لوحة التحذير:

«يُمنع إطعام المريض»

فأرد عليه: "قرض؟"

راي

" تولَّ القيادة راي، أمسك اللجام، هيّا بني، من أجل أبيك"

مكتوبٌ «فرانك جونسون – إخلاء مواقع البناء» على اللوح خلف مقعد العربة، اعتاد أن يصطحبني أحياناً معه أثناء جولاته لأتسلى. لكنه أخبرني أني لا أصلح للعمل في الخردة. أن العمل المكتبي هو الخيار الأفضل لي، فأنا ذكي، ولم أعرف قط إن كانت نصيحته من باب ضآلة جسدي أم سعة ذكائي، أو لأن الوظيفة المكتبية آنذاك كانت تعني، بالنسبة له، ارتقاءً على سلم المجتمع. فإن كانت المسألة في السلم فلن يعنيه إن ولدت بجسد مفتول العضلات، فأيضاً حينذاك ما كان ليسمح لي أن أحمّل عربة الخردة. عنده تشارلي ديكسون ليقوم بهذه المهمة.

لم يكن هو الآخر ضخماً، كان طويل القامة فحسب، جسده يتدلى من كتفيه كما المعطف يتدلى من علاقة معاطف، كأنما سينفعه لو كان أقرب إلى الأرض بوصةً أو بوصتين. اعتدت أن أتساءل أحياناً كيف لرجلٍ مثله أن أنجب نصف رجلٍ مثلي، أو أن خط الإنتاج جاء من جهة أمي، فأنا لا أتذكرها.

لم تكن تجارة مخجلة: تجارة الخردة. فهو لم يكن ببائع متجول. لم يجلس على عربته ويصيح بأعلى صوته، ما كان ليستطيع على أي حال مع وضع رئتيه. لم يستجدِ يوماً ولم يلح على الزبائن، بل اعتمد في عمله على الاتفاق والعقود، مثلها مثل أي تجارةٍ أخرى.

وهكذا نلت الوظيفة في شركة التأمين. كان فخوراً بي لأني أصبحت موظفاً. وهو ظلّ سيد نفسه. سيد أكوام الخردة. ثم اندلعت الحرب وانتعشت تجارة الخردة وكان سيستفيد من وجودي معه للمساعدة، يدٌ عاملة إضافية، لكني استبدلت وظيفتي المكتبية بالبدلة العسكرية. قال لي: "قزمٌ مثلك. لن يأخذوك جندياً معهم". لكنهم فعلوا. "حسنٌ، على أي حال ستسهل عليك الأمور إن أبقيت رأسك منخفضةً، هذه نصيحتي لك، أبقِ رأسك منخفضة." أخذتُ بنصيحته. وبعد انتهاء

الحرب لم أكن أنا من لم ينج منها، بل هو. لم تقتله قنبلة، بل رئتاه. لكني عدتُ إلى وظيفتي المكتبية على أية حال. بعد التخييم في الصحراء مع جاك دودز عدتُ إلى مكتبي في (بلاك فرايرز). كنت ما أزال أملك ساحة الخردة وبيتنا الصغير من طابقين، البيت لم يُصَب بأي أذى أثناء الحرب. كنت قد أجّرت ساحة الخردة على تشارلي ديكسون، ومن الإيجار أدفع نفقات البيت، لك أن تعتبرني صاحب أملاك، ومع ذلك واصلت الذهاب يومياً إلى عملي كمحاسب. سببٌ من أسباب ذهابي إدراكي حينها أن لا فرق، فما يعيشه الإنسان في الواقع وما يعيشه في خياله أمران منفصلان. لكن ربما السبب الحقيقي هي ذكراي عنه، كأنما ما يزال يراقبني. اعتاد أن يسمح لي بتنظيف الاسطبل وإطعام دووك، واعتاد أحياناً أن يسمح لي بالجلوس جانبه على العربة. لكن أبداً ما كان ليسمح لي بحمل الخردة. «كلب – كلوب، كلب – كلوب.» وحلّ اليوم الذي طلب فيه أن أمسك اللجام وأتولى القيادة، أمسكت به وتعلمت قيادة حصان العربة. قال لي: "لا تكبح لجامه، بل اسحبه بشدة، وطقطق بلسانك لتفرض سيطرتك عليها." لم أخبره قط أن هناك مهنةً يمكن للرجل الضئيل أن يقوم بها، الضئيل فقط. مهنة لها علاقة بالخيول.

"نحن في بيرموندزي، راي، أين تظننا بني، في آسكوت[6]؟"

أتوقع أن الأوقات التي جلست فيها إلى جانبه على العربة، أنظر نحو مؤخرة دووك، هي الأوقات التي راودتني فيها ولأول مرة الأفكار القذرة عن النساء. هذا ما كان متاحاً لي. واعتماداً على ما أعرفه عن الأحصنة وكيف تفعلها، افترضت النساء نوعاً آخر من الحيوانات. لكن لم تنفعني تلك المعرفة في التطبيق. وحين اصطحبت دايزي ديكسون لترى دووك ذات نهار أحد، عالماً أن دووك لن يكون في الاسطبل لأن والدي أخذ العربة في مهمة عمل، لم تثر رائحة روث الحصان وبوله غريزتها الحيوانية. لم تحقّق الهدف المرجوّ منها. كنت قد أعددت كومة قشّ نظيفة خصّيصًا لها. قلت لها: "المكان كلّه لنا،" محاولاً تمهيد الأجواء، لكنها قاطعتني متململةً، "وما عساي

(6) إشارة إلى حلبة سباق آسكوت الملكي للخيل Royal Ascot. م.

أفعل بقطع السكر؟".

عشر سنوات مرت، بفترةٍ طويلة بعد وفاة أبي، وها هي أختها الصغيرة كارول تأتي لزيارتي، تسألني إن كنت مهتماً ببيع ساحة الخردة، فوالدها قلق من شراء شاحنة نقل دون أن يضمن بقاء الساحة. أستغرب لماذا لم يسألني تشارلي بنفسه. ثم أتساءل، هل تعرف أني لطالما كنت مولعاً بأختها دايزي؟ ما الذي قالته دايزي لها عني؟ وأقول لنفسي بينما أراها تنحني لترفع درجة الغاز في الموقد، تلك مؤخرة رائعة. كان عالم خيول، هذا ما كان عليه. حين أراه في ذاكرتي جالساً جانبي على مقعد العربة، لا أفكر في الخردة، أواعي النحاس والبرونز، الحديد، الرصاص، الحديد الصلب. بل أفكر في دووك. أتأمل حياة الحوذي والبائع المتجول. أراه ينحني إلى الأمام، مرفقاه على ركبتيه، بعد أن استلمت منه اللجام، ويبدأ يتلفت يميناً يساراً كأنما لم ينتبه يوماً لهذا العالم من حوله، أراه يحك عنقه ويسوي قبعته، أراه يشعل سيجارته، لا فرق معه إن كانت رئته ضعيفة أم معافاة، ويسحب أول نفس من سيجارته، يمط شفته السفلى ثم يحك ذقنه بطرف إبهامه، السيجارة بين أصبعيه، ثم يمرر راحة إبهامه على جبهته، وأدري أني أقلده، رغماً عني، هي الحركات ذاتها، الإيماءات ذاتها.

ما كان يجب أبداً أن أسمح لڤينس بامتلاك الساحة.

ليني

نزهات الأحد في عربة نقل اللحوم، كأني لا أذكرها.

كأني لا أذكر توصيلهم صغيرتي سالي إلى بيتنا، أحياناً شبه نائمة، وزوجتي جوان تحييهم: "لم لا تتفضلوا عندنا لشرب الشاي؟" وآمي تردّ دعوتها: "لا داع، علينا أن نذهب الآن إلى البيت كي يخلد فينس إلى الفراش." كأني لا أذكر الرمل بين أصابع قدمي سالي ولا السطل المليء بالأصداف والطحالب والسلطعونات الميتة، كأني لا أذكر عبق الشاطئ عليها، في شعرها، وملابسها، وغسول (الكالامين) الذي أمنّاه أنا وجوان بصعوبة لمداواة حروق الشمس على جسدها.

كنا أخذناها بأنفسنا إلى الشاطئ، لكن لم نملك ثمن تذكرة القطار، وبالطبع لم نملك سيارة. لا سيارة، لا دكان، لا بيت بمعنى بيت، بشق الأنفس كنا نؤمن لقمة يومنا. هذا ما كان عليه حالنا. إن سألتني، فقد كنت أفضل حالاً في الجيش. وأذكر تلك النظرة التي كانت ترمقنا بها آمي – أو ربما كنت أتخيلها، فنظرةٌ كهذه لا تليق بامرأةٍ مثل آمي – كلما ردّت دعوة جوان. كأنما أصحاب البيت المبني من اسمنتٍ وطابوق لا يليق بهم قبول دعوة أصحاب بيتٍ رخيص تم تركيبه في مصنع. كأنما آمي تعتبر نفسها أعلى مكانةً منّا. هي وجاك يقضون عطلة الأحد على الشاطئ بينما أنا وجوان نقضي عطلتنا نطعم البط في حديقة (ساوث وورك).

آمي تقف عند الباب ويدها ما تزال ممسكة بيد سالي وتمسّد شعرها برفق وتنحني نحوها لتمنحها قبلة، فتراودني الرغبة في القول لها «هذا شيءٌ واحد نملكه ولا تملكانه» لكني لم أقلها. أظل وحسب أتأمل آمي تقبل ابنتي، وجوان تحبس أنفاسها. لم يكن خطأنا أن القنابل سقطت أينما سقطت. لم يكن خطئي أن والدي لم يترك خلفه سوى شلنات وبنسات في مكتب البريد وعربة يد في سوق (بوروف). ولا تنسَ أن جاك وآمي لم يسلما أيضاً من المصائب، وطبعاً فينس الصغير، حتى ذاك الغبي المسكين لم يسلم منها. حظوظ ومصائب. لذا أظنني تخيلتها، ربما لم يكن

سوى قولي لنفسي: كم تبدو آيمي جميلة بعد نزهة الأحد على الشاطئ، مع نسيم البحر العليل، كم تبدو جميلة جداً. آمي ما تزال فاتنة، جاك.

وجاك كان يقول: "هيا بنا آيم". أما ڤينسي فجالسٌ على المقعد الأمامي في عربة النقل، مستعدٌّ لحمله إلى الفراش، لكن لا تظهر عليه ملامح النوم، لأنه أيضاً كان يتأمّل آمي وسالي بينما تقفان على عتبة بيتنا، ينتظر بحرقة أن تلتفت سالي إلى الوراء وتلوّح له مودّعة.

لكنّا استمتعنا نحن أيضاً بقضاء يوم عطلة في نزهة. قلت لهم إنّ آخر مرة مشيت فيها حافي القدمين على شاطئ كانت في (ساليرنو). لا يروق لي كثيراً قضاء الوقت على الشواطئ، لكن نعم، ما كان ليضرنا لو قضينا يوم عطلة هناك. لكنت استمتعت برؤية آمي في لباس البحر. هذا ما تعنيه الأبوة على ما أظن، سحب القشّة القصيرة عمداً. فليس هناك مكان يكفينا جميعاً في المقعد الأمامي لتلك العربة، من العجب كيف تدبّروا أمر أن ينحشر أربعتهم فيها. لكن من أجل خاطر سالي. ومن أجل خاطر جاك وآمي، على الأخص آمي. ليس أننا لم نفهم مغزى رغبتها في اصطحاب سالي.

جوان تقول: "هذان الطفلان سيكبران سوياً كأخٍ وأخته، ألست محقة؟"

لكن يوماً ما تأتينا سالي من المدرسة وتخبرنا عن الكلام الذي يتناقله الأطفال في الساحة عن ڤينس. كيف أنه معطوبٌ في رأسه. حاله من حال «شقيقته الكبرى». أن المكان الذي ينتمي إليه هو في المصحّ معها، في دار (بارناردو)[7]. عدا أنك إذا ما فكرت في الموضوع، فقد كان يفترض أن ينتهي به الحال في أحد هذين المكانين، إما الميتم أو المكبّ. تخبرنا عن تورّط ڤينس في عراكٍ تلو الآخر، بينما هي نفسها تجهل حقيقة الأمر.

لذا نخبرها. كانت تبلغ حينها عشرة أعوام. نخبرها ونؤكد عليها ألّا تنطق بأيّ مما نخبرها به لمخلوقٍ آخر. بدونا وكأننا نحكي لها قصة هي أقرب للخيال، أشبه بالقصص التي نختلقها لنرويها على أطفالنا.

(7) مؤسسة خيرية عريقة في بريطانيا لرعاية وإيواء الأطفال. م.

أخبرناها كيف قبل أعوامٍ عدّة، بداية زواج عمها جاك بعمتها آمي، والّذان بالمناسبة ليسا بعمّها ولا عمّتها الحقيقيين، بالدّم أعني، لكنها تدرك تلك النقطة، أنجبا طفلةً صغيرة وأسمياها جوون. لكنها لم تكن طفلةً طبيعية، لم تولد مثل بقية الأطفال، وكان لا بد أن تحظى برعاية خاصة. أمور كهذه تحصل، ليس بالعادة، نادراً ما تحصل، لكنها تحصل. والعمة آمي أدركت أنها لن تتمكن من إنجاب طفل آخر، ليس دون المخاطرة بأن يلْقى مصير أخته ذاتها، لذلك أضحت امرأةَ تعيسة. عمّك جاك لم يكن سعيداً هو الآخر.

ثم اندلعت الحرب. القنابل تتساقط على (بيرموندزي) وإحداها تسقط على بيت ماما وبابا القديم، لكن تلك قصةٌ مختلفة، فقنبلةٌ أخرى سقطت على بيت عائلة بريتشيت التي حظيت توًّا بمولودٍ جديد، يُدعى ڤينس. ڤينسنت إيان بريتشيت، هذا كان إسمه الحقيقي إن أردت معرفته: (ڤي.آي. پي)[8]. اللوم يقع على والديه. بيت عائلة بريتشيت كان على طريق (بويل) حيث تقع العمارات السكنية الآن، قريباً جداً من شارع (ويلير) حيث كانت تقطن عمتك آيمي. كان شهر حزيران من عام 44، قذيفة طائرة. لو لم تسقط القنبلة، لكان ڤينس وأمه قد أُخلِيَا من المنزل بعد أسبوعٍ واحد، لكانا في مكانٍ آمن. وكان قد مضى يومها خمس سنوات على ولادة جوون، أتدرين أنها سميت جوون تيمناً بشهر يونيو. يومها سيد بريتشيت كان عائداً في إجازة، لسوء حظه، أو من حسن حظه، يعتمد على الزاوية التي تنظرين منها. أبوكِ وعمك جاك كانا في الحرب يقاتلان الألمان، رغم أننا لم نلتق ولو مرة واحدة.

عموماً، لم يتبق أحد من عائلة بريتشيت. لا أحد ما عدا ڤينس، كونه رضيعاً حينها، حبا بنفسه عن الخطر ونجا دون أن يصيبه خدش. وإن لم تدركي بعد مآل القصة فآمي هي من احتضنت ڤينس ورعته وبدأت تربيه في كنفها كأنه طفلها الصغير. وربما ستربطين الأمور بعضها ببعض الآن، أو لاحقاً، وتدركين وجود أكثر

---

(8) التلاعب اللفظي يكمن في أن الأحرف الأولى من إسم ڤينس (ڤي. آي. پي) هي ذاتها المصطلح (V.I.P) والذي يرمز إلى الشّخص ذي الأهميّة. م.

من سبب واحد وراء صنيعها.
هناك قواعد، هناك قوانين حول احتضانك طفلًا يتيمًا، لكن تذكري، كنا في زمن الحرب. وفي الحرب تُنسى القوانين. لذا حين وضعت الحرب أوزارها بعد عام ونيف، وعاد عمك جاك إلى بيته، لا أحد يجادله حول عثوره وآمي على ولد وتبنّيه، وعثور ڤينس على والدين جديدين. لذا بإمكانك القول إن الوضع انتهى على خير وسعادة للجميع. لكن لا تنسي، هناك جوون، التي يفترض أنها ما عادت طفلة لكنها ما تزال طفلة. هل ما تزالين معي؟ وآمي لطالما تمنت، لطالما تمنت، طفلة.
"لن تنطقي بحرف ممّا سمعته لأيّ أحد، أتفهمين." كلانا يحذرها.

لكن لم يمض على كلامنا فترة إلا وجاءت تخبرنا أن جاك وآيمي وڤينس سيقضون نهار الأحد القادم في (مارغايت) لكنهم لن يصطحبوها معهم. فتسألها جوان مذعورةً: "هل أخبرتِ أحداً؟" وتُنكر سالي أنها فعلت، المسألة فقط أن العربة لن تكفيهم جميعاً حتى مع ركوب ڤينس في الخلف. فأسألها مستغرباً: "يدَعون ڤينس يركب في الخلف؟" فتؤكد لي: " نعم ". وبعدها بفترة تجيء من المدرسة وعيناها دامعتان، وتخبرنا أن ڤينس أضحى يعرف كلّ شيء. جاك وآمي أخبراه القصة بأكملها.
لم يكن من مفر، عاجلاً أم آجلاً كان سيعرف، وما أدراني أنا عن اختيار الوقت المناسب.
والآن هناك غصّة في قلب ڤينس. فيذهب ويخبر سالي أن كل الكلام الذي تناقله الأطفال في الساحة صحيح، وهي بدورها تطمئنه أن الأمر لا يهمها، هو ما يزال ڤينس وستقف دائماً إلى جانبه. ويجيبها ڤينس بضربة تطيحها على الأرض.
أظنّ أن كل جيلٍ يأمَل من الجيل اللاحق أن يحسّن الأمور، أن يريه بأن هناك فرصةً ثانية. كان عليّ أن أرى أن سالي من النوع الذي يعشق خناقه. ففي واقع الأمر كانت متساهلة مع ڤينسي، حلوةً كالسكّر معه، ولكانت الزوجة المثالية له. فليس كل امرأة كانت لتقبل به متى ما عرفت حقيقته. وإن وضعنا كل شيء في

الاعتبار، فالارتباط بعائلة دودز لم يكن بالخيار الأسوأ لها. لم تكن دودز بالعائلة الثرية التي تطمع بنسبها، فكل ما يملكه جاك هو دكّان جزارة، لكن إذا كان كل ما يملكه والدك هو كشك خضار وفاكهة، فالارتباط بدودز قفزة للأعلى. غير أنّ ڤينس كان له موقف مغاير من "دودز وابنه"، موقف انفصاليّ تماماً. وأظنني لو عرفت كيف ستؤول إليه أموره في النهاية، لربما قلت: "اغرزي أظافرك فيه بنيّتي ولا تدعيه يطير من بين يديك." أو ربما كنت سأقول: "ابتعدي عنه، فهو ليس من نصيبك."

كذلك كان حلمي أنا في وقتٍ مضى، حلم كل فقيرٍ بائس. بذلةٌ فاخرة، ربطة عنقٍ برّاقة، سيارةٌ جديدة، رزمة جنيهات جاهزة دائماً في جيبك. حين كنت أذهب إلى نادي (سكوبي) الرياضي كل مساء، كان ذلك هو أملي في الحياة. هذا وكل ما تشتهي تناوله من جلد الخنزير المقرمش. لكن الحرب قضت على حلمي. ملاكم إيه، مقاتل؟ عرضٌ جيّد، رجل جيد. رغم أني لم أفهم قط كيف لضربةٍ خطّافية يُسرى أن تنفع في أن تقوم بحفر الأرض تحت قاعدة مدفع في الحرب.

وانظر من اقتنص الفرصة. الآنسة ماندي الصغيرة، تلك الفتاة الحقيرة من (لانكشاير).

أظن أنّ كل جيل يجعل من نفسه أضحوكة للجيل الذي يليه. ڤينس كانت لديه أفكاره الخاصة عن «دودز وابنه» لكنّه مع ذلك تمادى، حين فعل ما فعل والتحق بالفيلق الأجنبي خمسَ سنواتٍ فقط كي يبتعد عن جاك، في الوقت الذي كان كل شاب في عمره ممتنّ للرّب أنه لم يعد هناك من تجنيد إجباري. أظن أن خدمته العسكرية في الشرق الأوسط كانت الثمن الباهظ الذي دفعه كي يتهرّب من خدمته كجزّار متدرّب وكي يتعلّم تصليح سيارات الجيب. الولد خاطر بتعريض حياته للقتل، بتعرضه لرصاصة تفجّر مؤخرته. وما كنت لأحزن عليه.

ولا تبدئي معي بهذا الهراء بنيتي، أنه سيعود إليك ويرعاك، أنه هرب والتحق بالفيلق الأجنبي كي يصنع من نفسه رجلاً أفضل.

أقول له: "على أيّ حال جاك، لا يمكنك إنكار أنه يسير على خطاك. فأنت كنتَ جنديًا فيما مضى، وكذلك جزاراً."

ينظر إليّ منزعجاً كأنما يقول لي، لستُ في مزاجٍ مناسب للمزاح.

لكنه قال: "أصبحتُ جزاراً باختياري."

ما كنتُ لأسميه اختياراً، بل أقرب إلى التجنيد الإلزامي وفقاً لأحاديثنا الخاصة أنا ورايزي.

ويردف قائلاً: "جندي! هو ليس بجندي بل مختلس لعين، هارب لعين من الواجب، هذه حقيقته."

فأقول لنفسي، كم أنت محقٌّ جاك.

أقول له: "لم يكن السبب الوحيد، ما تظنه السبب وراء هروبه، لم يكن السبب الوحيد." لكنه لا يعيرني اهتماماً، يسمعني ولا يسمعني. كأن السبب الوحيد في العالم هو جاك دودز، وعائلة الجزارين.

فأقول: "أنت لا تملكه جاك، نحن لا نملكهم، أليس كذلك؟"

فيجيبني: "كن منطقياً."

ينظر إليّ وأفكّر، عليك أن تكون ممتناً لأنك لا تملكه، متى ما استمعت أخيراً إلى ما أقول، فقد تكون رجلاً ضخماً، وربما مرّ عليّ خمسة عشر عاماً منذ دخلت حلبة الملاكمة آخر مرة، لكني ما زلت...

فأعود وأقول له: "نحن لا نملكهم، ألستُ محقاً؟ حتى وإن ملكناهم فنحن لا نملكهم."

فيرد قائلاً: "ما ذاك الهراء الذي تقوله؟"

لذا أقول له: "السبب الآخر هو سالي. فقد ترك لها هدية وداعٍ صغيرة. وسأجبرها على التخلّص منها."

(دارتفورد)

يقول ليني: "وكيف حال طفلتك كاث؟"

يمر وقت طويل على ڤينس دون أن يجيب، كأنما لم يسمعه أو أن تركيزه منصبّ على الطريق. أراه ينظر في المرآة.

فيواصل ليني: "هل ما تزال تعمل لديك في الجراج؟".

ليني يعرف أنها لم تعد تعمل هناك، ويعرف أيضاً كم يكره ڤينس كلمة "جراج"، هو يسمّيها "صالة عرض". كان ليني من أطلق الدعابة ليلةً ما في "العربة"، «يسميها صالة عرض، حسنٌ، جميعنا نعرف ما المعروض هناك.»

أخيراً يجيبه: "لا لم تعد تعمل لدي، لقد تخلّت عن الأمر."

"أرجو ألا تكون عاطلة عن العمل."

ڤينس لا يجيبه. لكن ليني يتولى مهمة الإجابة على نفسه:

"لا، حسب ما سمعت هي ليست بعاطلة عن العمل."

فيقول ڤينس: "علام سؤالك إذاً؟"

يدوس ڤينس أكثر على البنزين، كلنا نسمع صوت تسارع المحرك.

يقول ڤيك: "ما رأيكم باستراحةٍ قصيرة في أي مكان لتناول الغداء؟"

لكن ليني يتابع مشاكسته: "مجرد فضول لا أكثر، فليس كل ما تسمعه تصدقه."

فأقول داعماً الحكم في مهمته: "فكرة جيدة، ڤيك."

ما يزال ڤيك يحضن العلبة. ليس من الصواب أن يحتكرها لنفسه.

فيقول ليني: "من المخجل أنها لم تذهب قط لرؤية جاك في المستشفى، حين كان... جاك كان سيسعد بزيارتها. تلك الأوقات التي اعتادت فيها أن تناديه جدّي."

فيرد ڤينس: "لم يكن جدّها."

يحاول ڤيك مرةً أخرى تهدئة الأمور: "سيكون مناسباً لو توقّفنا لاستراحة على طريق (روتشيستر)."

ويقول ليني: "البنات... من يبلي نفسه بخلفة البنات؟"
نحن في طريقنا الآن نحو تقاطع (M25). الطريق مزدحم.
ليني ينظر إليّ قائلاً: "هل تصلك أخبار سوزي هذه الأيام؟"
فأجيبه: "ليس كثيرًا، رسالة بين وقتٍ وآخر."
"وهل تظنّها ستأتي، إن كنت... أعني، إن كنت على وشك... هل تظنها ستأتي لزيارتك؟"
فيقول ڤيك: "يا له من سؤال!"
ويرد ليني: "سؤالي في محلّه."
"لم أفكر في الموضوع." في الحقيقة فكرت.
فيقول ليني: "سؤالي في محله."
فيقول ڤيك متجاهلاً ليني: "جاك كان سيود منا أن نأخذ استراحة للغداء."
ڤينس ينظر نحو ڤيك.
ويواصل ليني طرح أسئلته، هذه المرة على ڤيك: "وكيف هم أبناؤك؟ أظنك فعلت الصواب بإنجابك ولدين، درّبتهما على استلام مكانك في العمل، وهكذا سيتسنّى لك الرحيل بهدوء وأنت مطمئن على إرثك بعد أن مرّرت لهما الشعلة وكل شيء معها."
يجيبه ڤيك: "لا يوجد ما يدعو إلى التذمّر."
فيقول ليني: "(تاكر وأبناؤه)... رنّتها جميلة على الأذن، ألا تتفق معي ڤينس؟"
ڤينس لا يجاوب.
"ألا تتفق معي ڤينس؟"
فيرد عليه محتدًّا: "ها أنا، أديت واجبي وحضرت."
يتجاوز ڤينس شاحنةً أمامنا.
وليني يقول: "البنات."
السماء زرقاء وصافية، خالية ما عدا من خيوطِ سحبٍ رفيعة. النسيم يداعب أغصان الأشجار على جانب الطريق. اللوحات أمامنا مكتوب عليها (سيڤين أوكس، نفق دارتفورد). لقد غادرنا لندن لكن المناظر الطبيعية على جانبي الطريق ما تزال

محتارة بين كونها تنتمي إلى المدينة أو الريف. كأننا في رحلة لكن لم نغادر المكان فعلاً.
أقول: "لابدّ أن العلبة أصبحت ثقيلة عليك، ڤيك، أترغب بتمريرها لنا؟"
ويسأله ليني: "قل لي ڤيك، متى تنوي التقاعد أيها العجوز وفسح المجال لابنيك لتولي عملك؟"
أنظر إلى ليني. وفي رأسي أرجو ڤيك ألا يستسلم بعد ويتقاعد، فما يزال هناك اثنان منّا.
فيجيبه: "لا داع للعجلة ليني، سأظل موجوداً في الخدمة إلى أن أنتهي من بضعة زبائن وأطمئن عليهم."
لا يمكنني رؤية وجه ڤيك، لكنه لم يضحك في سرّه ولم يلتفت نحونا ويغمز، بل تابع:
"وابناي ليسا مستعجلين على طردي كذلك. جائع ليني؟"
"بل عطش."
ڤينس يدخل على الخط:"بيدك أن تختار أي مكان تشاء لتتقاعد فيه ڤيك، أي مكان أفضل من (مارغايت)."
فيقول ليني: "الصبي الكبير عينه على البهاماس!"
فيرد ڤينس: "في أفضل بقعة، الرمية الواحدة بألف."
"هل هذه تكلفة جاك؟ الأجدر بجوان أن تبدأ بالادخار منذ الآن!"
"هذا تخميني."
ڤيك يلتزم الصمت.
فيقول ليني: "لا أظنك إذاً من دفع الفاتورة، إيه، أيّها الصبي الكبير؟"
وأقول لڤيك: "لو تمررها لي هنا."
فيجيبني ڤيك كأنما قد نسي الموضوع: "عذراً رايزي، أترغب في حمله بُرهة؟" يلتفت إلي ويبتسم برفق، كأنما لا يود جرح مشاعري.
ويقول ليني: "ومع ذلك، ڤيك، متى ما تقاعدت، فتجارتك ستظل مستمرة."
"لقد فكرت في الأمر، هاك راي."

يناولني ڤيك العلبة.

"ديك وتريڤ سيتوليان العمل من بعدك؟"

"بالطبع."

"يا للروعة، أمرٌ جميل. البنات! إيه رايزي؟ البنات! لم ينلنا منهن سوى المتاعب."

أنا من يحمل العلبة الآن، جاك على ركبتيّ. قضينا بُرهة من الوقت نتأمل جميعًا بصمت المناظر على جانبي الطريق، ثم يقطع ليني الصمت علينا: "على أي حال، أرى أن تتقاعد ڤيك، فإن كانت كات الشابة تقاعدت فأنت أحقُّ منها."

فيرد عليه ڤينس: "هي لم تتقاعد."

"لا؟ إذاً صحيح ما سمعت، هي ليست بحاجة لتستجدي المال؟ أتدري أيها الصبي الكبير، لقد خسرت ميزةً كبيرة بخروج كات، فهي من كانت تجذب الزبائن."

يلتزم ڤينس الصمت.

"تأثير تنورةٍ واحدة عليها يعادل تأثير ست من ربطات عنقك."

ڤينس يستمر في التزام الصمت، لكن كتفيه ترتفعان.

"مما سمعته فهي تجذب نوعية أخرى من الزبائن لحسابها."

وجه ليني يحمر وقسوة ملامحه تبرز. لا أدري إن كان بفعل مباريات الملاكمة منذ أعوام، أم أن وجهه لطالما بدا هكذا، قاسياً منذ ولادته. يختلس نظرةً سريعة نحوي ونحو العلبة على حجري، وفي هذه اللحظة أشعر بحماقتي لطلبي حملها، لجلوسي هكذا كأني ولدٌ صغير يتشبث بلعبته المفضلة.

أخيراً يقول ڤينس: "ربما من الأفضل أن نأخذ استراحة."

لكن ليني ما كان ليدع ڤينس يهرب من مواجهته: "أتدري، خير ما فعلت أنها لم تزُر جاك. هكذا ما كان ليعرف أن حفيدته عا..."

"هي لم تكن يوماً حفيدته."

"هذا هو الوصف الذي تعترض عليه؟ وماذا عن الوصف الآخر؟"

فيتدخل ڤيك بحزم: "كلاكما! تذكّرا نحن برفقة مَن على هذه الرحلة." كان الأجدر بڤيك أن يجلب معه صفارة.

فيرد عليه ليني: "لا يمكنه سماعنا ولا رؤيتنا، إلا إن بدأت تصدّق كلام الصبي الكبير؟"

أرفع العلبة عن ركبتيّ. أنوي وضعها على المقعد بيني وبين ليني، لكني أرى سترة ڤينس مطويةً هناك.

ويردف ليني قائلاً: "أتدري، من المضحك أن يؤمن بهذا الهراء، فلو سألتني عن شعار ڤينسي في الحياة لقلت، «بعيد عن العين، بعيد عن القلب»"

ينظر ليني نحوي وأنا محتارٌ بالعلبة: "جاك في علبة، إيه رايزي؟"

أضع العلبة على السترة بعد أن ربّتّ عليها كي لا أجعدها.

يحرك ڤينس المرآة قليلاً ليرى ما أفعل في الخلف، لكن لا يبدو لي لسببٍ ما أنّه يمانع، فباله ليس مشغولًا بسترته. لا يعيد المرآة إلى وضعها.

نمضي على الطريق في صمت، لكن من الواضح أن ڤينس يحضّر شيئاً ليقوله لنا. يظل يتأمل العلبة على سترته. أخيراً يرفع رأسه ويميل بها لكن لا ينظر مباشرة نحو أحد منّا كأنما لا يقصد بكلامه رجلاً بعينه، لكن إن كان يقصد فبالتأكيد يقصد ليني. نبرة صوته غريبة:

"آمنتُ أنّهما يرياني، اعتددتُ أن أؤمن بذلك، أني لا أراهما، لكنهما يرياني."

راي

تضع سوزي عن يدها مجفف الشعر وتهز رأسها بحيوية وحماس كي تحلّ خصل شعرها، وأقول لنفسي، لا مجال للإنكار، هي أجمل مما كانت عليه كارول على الإطلاق، حتى حين كانت كارول في عمرها. أدري، ما أفكر به ينم عن وقاحةٍ وظلم نحو كارول، لكن لا داع لاعتباره هكذا، فهي جزءٌ من كارول وكارول جزءٌ منها، كلنا أجزاءٌ من بعضنا. فأنا لا أقول إني لو حظيت بفرصةٍ ثانية لكنت اخترت سو لا كارول، فلولا كارول لما كانت سو. لكن تظل الحقيقة هي أني لو كنت رجلاً آخر، رجلاً أصغر في العمر، لو كان اسمي آندي وأتيت هنا من سيدني، أستراليا، لكنت اشتهيت سو، كما اشتهيت يوماً كارول، لكن أكثر. لكنت اشتهيت ابنتي.

وهناك حقيقةٌ أخرى، الحياة أضحت أفضل وأسهل وأسرع لشباب اليوم. حين كنت في عمرها كنت أرتدي زيي وأقف في الطابور العسكري. ربما لو ولدت لاحقاً، مع فينسي. لكني لست فينسي. فلو كنت لما كانت سوزي حيةً اليوم في الثامنة عشر من عمرها.

مذياعها المتنقل معها، يصدح بأغنية «I get around..., get around, round, round [9]» كتفاها تتمايلان مع الإيقاع كأنما ترقص لكن جلوساً على كرسيها. أطرق مرةً أخرى على الباب شبه المفتوح. إذ لم تسمعني أول مرة، بين جلبة المجفف والمذياع، لذا أقف هناك نصفَ دقيقة وفي يدي كوب القهوة.

كارول في السوق، وسو تغسل شعرها. هو نهار السبت. وفي أي ثانية سأغادر أنا أيضاً لأقوم بمشاويري المعتادة: دكان التبغ، مكتب الرّهان، والخمّارة. كوب القهوة أتناوله فقط ليسهل عليّ الخروج، لكنه أيضاً وسيلتي لأتجسس على ابنتي.

تلتفت نحوي، تبتسم، تلوح بخصل شعرها مرةً أخرى، هذه المرة فقط من أجل

(9) من أغنية: I Get Around لفرقة The Beach Boys. م.

المتعة، وأكرر ما قلته لنفسي قبل أعوامٍ عديدة ما إن تركت سو عربة الأطفال، هي فتاةٌ غنجة، وهي تعرف تماماً كيف تتغنج. تتغنج حتى لوالدها، وهي تدرك أنها تتغنج لي، ما يعني أنها تريد طلب شيءٍ مني.

"شكراً" تقول لي بينما تخفض صوت المذياع، أصابعها تلتف حول الكوب وتحتسي رشفةً سريعة من القهوة، لكن أولاً تنفخ عليه. ثم تضع الكوب جانباً وتبدأ بترجيل شعرها وتنظر إليّ متشككةً كأني لا أنوي خيراً، وتقول: "هل أنت ذاهبٌ إلى «العربة»؟" ليس بالسؤال الذي يتطلب إجابة، ففي الغالب أنا في «العربة» مساء كل سبت، لكنها تسألني على أي حال كأنما تنوي الإيقاع بي على حين غرة، وهو ما يؤكد ظني أنها تسعى لشيءٍ مني. وحين أطلق دعابتي القديمة، "العربة لن تأتي إليّ"، تبتسم وتعبس في الآن نفسه، هناك تجعيدة قاسية تبرز أعلى أنفها، فأدرك أن ما ستطلبه ليس بالأمر الهين.

تتخلى عن ابتسامتها وتعاود احتساء قهوتها: "حسنٌ، لا تغادر الآن." تأخذ نفساً عميقاً على مهل، تضع الكوب على حضنها وتتأمله، خصل شعرها تنسدل على جانبي وجهها، كأنما تتمنى أمنية أو تتلو صلاة، فأقول لنفسي، يا إلهي. كنت سأقولها عالياً. فقد تذكرت سالي، وتذكرت ليني حين لجأ إليّ، «رايزي أريد حصاناً رابحاً وبسرعة.» وتذكرت اسم الحصان الذي فاز في (كيمبتون): القرصان الجريء، أحد عشر إلى اثنين. ترفع رأسها. تقرأ ملامح وجهي كأنما تقرأ لوح نتائج السباق: "لا، ليس «ذاك الأمر»" تقولها وهي على حافة الضحك، تقولها بشبه ارتياح: "ليس ذاك الأمر، هو أمرٌ آخر."

ثم تربت على السرير كي أجلس جوارها، هو السرير ذاته المفرد الضيق الذي ما تزال تنام عليه منذ أن كان عمرها ستّة أعوام.

قالت لنا: "هو يبحث عن جذوره."

كارول مستغربةً: "عن أيّ جذور؟ ألا يعيش وأهله في وطنه؟"

فتشرح سو أكثر: "أعني أجداده، أصوله. هو يريد اقتفاء أثر عائلته، يريد الذهاب

إلى المكان الذي قدموا منه. كثيرٌ منهم يبحث عن جذوره متى ما حانت الفرصة وجاء هنا."

الكل يبحث عن جذوره.

وكم كان ملائماً أنّ أصول جماعته تعود إلى قرية ما على أطراف (سومرسيت)، ما جعل الذّهاب هناك أشبه بقضاء عطلة جميلة، رحلة قصيرة إلى الريف الغربي. سيتمكنان من زيارة (ستون هينج)، كاتدرائية (سالزبيري)، (وادي تشيدار) وكل تلك المعالم التي قد يهتم الأستراليون بزيارتها. وطالما يملك سيارة (فورد انجليا) وخيمة فبإمكانه مشاركة الرحلة مع رفيقٍ آخر. وكم كان ملائماً كذلك أن الرحلة ستنطلق في الصيف، صيفها الأول في الجامعة، والزمن تغير، شعرها طويل، تنانيرها قصيرة والاحتمالات عالية. ولا تحاول إقناعي أن النيل من ابنتي لم يكن السبب الأول وراء رحلته، قصة جذوره هراء في هراء، ولا أظن أمله كان سيخيب لو لم يعثر على جده القذر الصغير، أو أياً كان من يبحث عنه، فسيكفيهما أن يعثرا على حقول عشب طويل يتدحرجان سوياً عليها.

ما كنا لنوافق على هذه الرحلة لولا جذوره اللعينة.

لكن لا خيار أمامك سوى منح الإذن في عصرٍ متساهل كهذا، ما عاد فيه من قيمة لرأي والديك، أصولك الحقيقية.

«لن نحظى جميعنا بكل شيء، إيه راي؟ ابتهج بنيّ! فقد سمعت أن دايزي ديكسون على وشك الزواج.»

لكن لدى انطلاقهما في رحلتهما تمنيت لهما الخير. تمنّيت لو كنت مكانهما. تخيلتهما يسافران عبر انجلترا. (هامبشاير)، (ويلت شاير)، (سومرسيت)، يرتحلان على التلال بعيداً بعيداً عن هنا. تصورتهما ينصبان خيمتهما ويتعانقان، رائحة العشب تغمرهما وفاصلٌ رقيق من قماش يفصل بينهما والليل. بإمكاني أن أروي لك بنيتي قصصاً عن التخييم تحت نجوم السماء، كيف تجمدت خصيتاي في صقيع ليالي الصحراء. وسواءٌ فعلاها أم لا، لم أستطع منع نفسي من تخيلهما يعثران على ساحة كنيسة منزوية بعيداً، خضراء يعمها السكينة، ويتأملان الأسماء المحفورة على شواهد القبور.

كان على الحرب أن تندلع حتى أسافر وأرى العالم، إن سميته سفراً. لكن ها هو، يثب كالكنغر طوال الطريق من (سيدني) إلى (سومرسيت)، وها هي تشاركه الرحلة، كلاهما على الطريق، بينما أنا هنا، ما زلت أعيش في (بيرموندزي)، ما زلت أعيش على ساحة الخردة، على إرث والدي، كي أبقي العجوز تشارلي ديكسون سعيداً. الخمارة، مكتب المراهنات، ركوب الحافلة إلى (بلاك فرايرز). ولأكثر من خمسة عشر عامًا لم أصطحب كارول إلى أي مكان.

قلت لها: "بكم تراهنين أن السيارة ستتعطل بهما؟"

فأجابتني: "وبكم تراهن أنها ستعود إليك حبلى؟"

ملامح وجهها كانت قاسية وعيناها مسمرتان علي، كأني أنا من يتحمل المسؤولية بأكملها، الخطأ كله خطئي لأنها ليست من قال نعم من الأساس.

نعم، أنتما الاثنان، لِمَ لا تغادران وتهربا سوياً؟

لا أدري أيهما أصابها أولاً: رؤية ابنتها تنضج ويتسنى لها فعل كثير من الأمور التي لم تتح لها فرصة القيام بها، ما جعلها تتصرف كامرأةٍ اتخذت الخيار الخاطئ في حياتها، أو أنها منذ البداية عرفت أنها اتّخذت الخيار الخاطئ، لكنها كبتت حقيقة شعورها كل تلك الأعوام في سبيل تربية سو. كانت يومها في الأربعين من العمر وعلى عتبة الواحد وأربعين. لم ترغب بطفل آخر، فطفل واحد يكفي وزيادة. أحياناً يراودني شعور أنها لم ترغب حتى في إنجاب سو. سوزي كانت لي. أحياناً أفكر أن الحياة ليست بعادلة، ليس حين تفكر في آمي.

كررت سؤالها لي: "إذاً ما رهانك، جونسون المحظوظ، لم لا تراهن بمالك على حبل ابنتك؟"

تحتسي جرعةً أخرى من القهوة وما تزال تلك التجعيدة أعلى أنفها، فأقول لنفسي إن لم تكن حبلى فما المشكلة، ولم يصعب عليها الكلام؟ ولحظتها شعرت كأني أركل نفسي في داخلي، ركلة قوية، فيرتج جسدي على السرير من وقع الركلة، لأني أدرك ما ستقول، واضحاً أمامي كالشمس، وكان يجب أن أدرك ذلك قبلاً لولا حماقتي.

وأظنها قرأت على ملامحي أني أدركت ما ستقول، لأن حينها فقط تبدأ بالحديث، كأني منحتها الإشارة الخضراء. تنظر إليّ بعينيها البنيتين البراقتين بغنجها المعتاد وتقول: "أبي".

تخبرني بعودة آندي إلى (سيدني) في الشتاء وأنها ستسافر هناك أيضاً لتعيش معه. هي ترغب بالذهاب إلى أستراليا والاستقرار هناك.

يا لحماقتي. ارخِ اللجام مرة. في البداية ينطلقان في رحلة سوياً إلى (سومرسيت) والآن ينويان السفر سوياً إلى (سيدني). فأقول لنفسي، هذا سبتٌ لن أقضيه في «العربة».

تضع يدها على ذراعي وتشد عليها كأنما تخبرني أن، للوقت الحاضر، فهذا الحديث هو بيني وبينها فقط، الصبي آندي لن يقحم أنفه فيه، المسألة هي بيني وبينها وسنحل الأمور سوياً. كأني إن أجبتها بالرفض فهي ستقبل بجوابي.

لكن العبارة الوحيدة التي ما كنت لأنطقها، العبارة التي كانت ستنطقها كارول لو ترك الأمر لها هي فقط «لا، لا، وألف لا.»

أقول لها:" أليس هذا بيتك هنا؟" لكن سرعان ما أدرك أني بدأت بداية ضعيفة في نقاشي معها لأن كل ما عليها أن تقول إن اضطرت هو، «أنا في الثامنة عشر وأنت لا تملكني.» هي لا تقولها، لكنها ترمقني بنظرة من هو على وشك أن يقولها.

"وماذا عن الجامعة؟" الجامعة ليست بالمسألة الهينة، فالتحاق ابنة راي جونسون بالجامعة والدخول في سلك التعليم كمدرسة ليس بالأمر الهين على الإطلاق، والدي كان سيفخر بها.

فتقول: "هناك جامعات في أستراليا، وهناك معلمون في أستراليا." تنظر إليّ كأنها مستعدة للنقاش أكثر حول هذه النقطة وتنتظر مني إن كنت حقاً سأتعمق في النقاش، لأنها تعرف أني لست بالمثال الذي يحتذى به فيما يتعلق باتخاذ خياراتها. لطالما كانت خياراتي مصدر مرارة لها، وإن لم تعد تتحدث عنها، كأنها استسلمت للأمر الواقع، كأني أضعت الفرصة لاستغلال ذكائي المفترض بطريقةٍ أفضل.

"قوّته هنا"، اعتاد جاك أن يقول "قوّة رايزي هنا في رأسه."

كنت تملك استغلال ذكائك في القيام بأمور أفضل أي بدل ذهابك لوظيفتك المملّة. لكني فعلاً أستغل ذكائي في أمور أفضل، في المراهنات. فأنا لدي وظيفة، وألعب على الخيول.

أقول لها: "أنت لا تعرفين شيئاً عن أستراليا."

وتجيبني: "لكني سأعرف، حتماً، وآندي سيريني." تجفل لأنها حتى اللحظة حاولت تجنّب ذكر اسمه.

فأقول: "متأكد أنه سيفعل، ومتأكد أني سأريه كفّ يدي."

تنظر إليّ مندهشةً ومتألمةً وغاضبةً في آنٍ واحد، فليس من المنصف، ولا يليق بي، وليس من شيمي، حديث القتال. ليس لرجلٍ له عقلي وبِنيتي. ولم أقل قط أني لا أطيق آندي. بل أطيقه، ومعجب به، معجب باللص القذر.

وجهها يشتعل، وعيناها تقدحان شرراً، لكنها سرعان ما تغير استراتيجيتها، فهي ليست غبية، وتبدأ برفقٍ التماسَ الموافقة منّي.

فأقول لنفسي، ربما من الصواب أن تبدو سو أجمل ممّا بدت عليه أمها حين كانت في الثامنة عشرة من عمرها، لأن العالم يصبح أفضل، نعم هو ذلك، العالم مقدّر له أن يصبح أفضل، ليس بخطأ أحد أننا ولدنا قبل أبنائنا. غير أنّي لم أر كارول حين كانت في الثامنة عشر، فقد كنت ما أزال جندياً يخدم في الجيش، فكيف لي إذاً أن أعرف؟ وعلى أي حال، في واقع الأمر، لم أخبر سو أبداً عن هيامي بشقيقة أمها الكُبرى، ربما الآن هو الوقت المناسب.

لطالما هويت خالتك دايزي.

"أخبريني إذاً ما الذي يعرضه عليك آندي، ما هو عرضه؟"

أتصورهما يقطعان أستراليا في سيارة جيب.

وقبل أن أعرف، تأتي كارول من السوق، كلانا يسمع صوت الباب الأمامي يفتح وأكياس المشتريات تلقى على الأرض. يفترض أن أكون في «العربة» الآن، أشرب قدحي الأول، وأضع رهاناً ثلاثيًّا. ثوانٍ ويتطاير الشرار، وسأجد نفسي مدافعاً عن رغبة سو كأنها رغبتي في الأساس. ففي النهاية الخطأ خطئي، كما تقول كارول، كما

تحاول إفهامي، أن الخطأ صنيعتي أنا، كأنما سو ورطت نفسها وحبلت. لذا لا فرار من الوقوف في صف سو، لأدافع عن نفسي لابدّ أن أجادل لصالح أمرٍ لا أريده. أظن أن هذا ما اعتمدت عليه سو في استراتيجيتها. لكني لا أظن سأقنع أيا منهما بتغيير رأيها، لأن المسألة في الحقيقة هي بينهما، أراها رؤية العين، المعركة هي بينهما. أنا فقط الرجل العالق في المنتصف الذي تحاول كل منهما الاحتماء من الأخرى خلفه. وعلى مدار نهاية الأسبوع يتعاركان مثل قطّتين شرستين، وأصل معهما إلى درجة تغمرني فيها الحيرة والارتباك، عقلي مشوش بينهما وأسأل نفسي، كيف عشت مع امرأتين ما يزيد عن ثمانية عشر عاماً وما أزال عاجزاً عن فهم النساء. حينها لا أعود أرى سو وكارول، بل أرى أمامي مؤخرة دووك.

أراهن بثلاثين جنيه على حصانٍ يُدعى (السيّد الفضّي)، حصان من بين خمسة خيول احتمالات فوزها ضعيفة. ثلاثون جنيهاً عام 65. لا أخبر أحداً برهاني. الفكرة هي إن فاز الحصان فسأدع سو ترحل وسأدفع لها كذلك مصاريف السفر. لم أجد سبيلاً آخر لتسوية الخلاف، لكن لك أن تقول إني سبق وسوّيت الخلاف، في ذهني أنا، لأني بالتأكيد لم أنو خسارة ثلاثين جنيهاً. هناك رهانات تعتمد فيها على معرفة كل ما ينبغي معرفته عن بنية الحصان وأدائه وكل تفصيل صغير آخر يتعلق به قبل أن تراهن عليه، لكن هناك رهاناتٌ أخرى تضعها لأنك رأيت الإشارات، إحساسك ما يقودك للرهان على الحصان.

الإشارات لا يراها كل مراهن. لكنهم يطلقون عليّ لقب «جونسون المحظوظ».

وحتى مع هذا اللقب، أحياناً أخطئ.

أقول لنفسي ها أنا أراهن على حياة سوزي، أراهن بمالي على فوز الاحتمال المعاكس لرغبتي، لكن عميقاً في بالي ترنّ فكرة أخرى، أحاول تجاهلها، لكني أسمعها، وأظن الفكرة ذاتها ترنّ في بال سو وكذلك في بال كارول. إن ما عادت سو تعيش هنا، إن رحلت بعيداً بعيداً عن هنا حيث يصعب علينا رؤيتها، فربما حينها ستتاح لنا الفرصة أنا وكارول لنصلح حياتنا.

يتقدّم في السباق بنصف دورة، اثنا عشر إلى واحد، وما إن غابت كارول عن البيت، أدس المال في يد سو، ثلاثمائة وستون جنيهاً. وأؤكد عليها: "لا تنطقي بحرف، هاك أجرة السفر، اصرفيها متى ما احتجت لها، إن احتجت لها." لم أكن أنوي إخبارها عن مصدر المال لكني لا أظنها ستحتار في التخمين. لذا قلت: "«السيد الفضي»، حلبة «شيبستو»، بنصف دورة."

ثم يأتينا آندي الحرامي ليصارحنا، سو جالسة إلى جانبه، يداها متشابكتان حول ركبتيها. ويعلمنا بقرارهما السفر سوياً، وأن لا مجال لإقناعهما بالتزحزح عن خيارهما، وأنه سيعتني بسو. وسيخبرنا آندي أنه أضحى متناغماً أكثر مع نفسه الآن بعد معرفته بجذور عائلته، وهو ما يصعب عليّ تصديقه مع ارتدائه السترة الأفغانية. يخبرنا عن شعوره "بالاكتمال" بسبب كل ما مر به هنا وبفضل سو. على وجهه تلك التجعيدة المزعجة كأنما اعتاد التحديق بالشمس. أتوق لركله. أتوق لعصر كتف الأحمق بيدي.

تغادر كارول الغرفة وتتجه إلى المطبخ. نسمعها تصفق الباب خلفها. نصمت وهلة ثم يقول: "شكراً سيد جونسون، يا له من حصان إيه؟" ألتفت نحو سو وأراها تعض شفتها وتخفض رأسها. الفاسق آندي يبتسم. ثم أنهض وألحق كارول.

لم تعد غاضبة. بل تبكي، راحة يدها على وجهها. كأنما الباب المصفوق هو الرصاصة الأخيرة التي أطلقتها. تنحني باكية فوق حوض المغسلة وتقول: "إن قررّت الرحيل فلا أود رؤيتها مرة ثانية أبداً، هل تفهم؟" لم تكن غاضبة حين قالتها، بل قالتها في رجاء.

أحيطها بذراعيّ، ما تزال تتمتع ببنية جيدة لامرأةٍ في الأربعين، ما أزال أشعر بضلوعها. لو كنت أطول قامة، لمالت برأسها تحت ذقني ولكنت قبّلتها على شعرها. شعرت وكأني أحضن ابنةً أخرى. لطالما كانت المدللة لدى أبيها، طفلة تشارلي. هي تزوّجتني من أجله.

أقول لها: "لا تستطيعين منعها، هي في الثامنة عشر من العمر."

فتقول: "وأنا لم أعد في الثامنة عشر."

هنا أدركت أن بكاءها ليس على رحيل سو إلى النصف الآخر من العالم لتبدأ حياةً جديدة هناك، بل غيرةً منها.

حاولت أن أكون رجلاً أفضل، أن أصنع حياةً أفضل لنا. حتى أني تخليت عن الرهان. تعلمت كيف أعيش من غيره.

لكن جهودي كلها لم تنفع. أو ربما كانت ستنفع لو أن والدها لم يتوفَّ فجأةً في ديسمبر. المصائب وكيف لا تأتي فرادى. كان في مهمة عمل حين وقع عليه مرزام من حديد، وشجّ رأسه. في لمحة عين، تشارلي ديكسون، تاجر الخردة، أخلى ساحة الحياة من روحه.

ليس أن شعوراً راودني، ليس أني رأيت إشارةً ما، كذلك لم تنفع محاولاتي معها. بل العكس تماماً.

نمت على فراش سو القديم، جفاني النوم على فراش سو القديم. أغادر البيت باكراً. فطوري أتناوله في (سميثفيلد).

ثم يوماً ما في إبريل نزل عليّ الوحي، ورأيت الإشارات. أو ربما لك أن تقول أنّي سئمت الحياة دون مراهنات. إن فزت برهاني مرة فسأفوز مرة أخرى. هذا ما يفترضه المنطق. أراهن بمئة جنيه. كل ما كنت سأراهن به خلال الثلاث أشهر السابقة.

وفي نهار سبت كنت أنا من نزل السوق. حين عدت إلى البيت كنت أدندن: «لو كان قلبي خالٍ من الهوى... لكنت عشقت الترحال لأبعد مدى. نظرت نحوها متأملاً وجهها كأنما الربيع قد حل وأنا من يحمل لها بشارة السعادة: " لقد أحضرت معي شيئاً أريدك أن تريه، خارجاً في الشارع."

نظرت عبر النافذة وأشرت إليها.

(روكابيللي). (حلبة أتوكسيتير). مئة إلى ثمانية.

فقالت لي: "ما هذه؟"

أجبتها: "(دورموبايل)... عربة تخييم، من الفئة ديلوكس، بيت متنقل لاثنين."

"هي القشة الأخيرة." قالت لي.

ڤينس

لم يكن الوضع كما هو عليه الآن، تقود السيارة كأنك في سباقٍ سريع، طعم لندن ما يزال عالقاً في فمك حتى بعد قطعك نصف المسافة على طريق (كِنت). بل كانت رحلةً بحرية، لكن باتجاهٍ مغاير. فعوضاً عن الانتظار على متن السفينة وتأمل العثور على اليابسة، كنت تقطع البر بنفاذ صبر، متحمساً لأقصى درجة لاختلاس النظرة الأولى. شاطئ البحر. البحر.

كنت أتأمل ساقَي سالي. تأملت الحقول والغابات والتلال والأبقار والخراف والمزارع وتأملت الطريق، حارٌ ورمادي، كجلد فيلٍ يعدو نحونا، دائماً يعدو نحونا، كأننا نحن من يناديه حتى نلتهمه، لكن أعود وأتأمل ساقي سالي، مستقرتان على حجر آمي. لا، لم تكونا مستقرتين، بل كانتا تتدليان، تتقافزان، تنزلقان، وكلما اقتربنا من البحر أرى ساقيها ترتجان للأعلى والأسفل، تؤرجح قدميها أسفل لوحة القياس، تؤرجحهما أيضاً كلما فازت في لعبة "اعثُر على الكلمة"، حرف الباء "بستان"، حرف الميم "محطة وقود"، أو حين تسألها آمي إن كانت تحتاج لاستراحة، حرف الباء "بول". حينها نقف على قارعة الطريق، كلتاهما تغادران السيارة، ثم تنفصلان عن بعضهما خلف الشجيرات، فأدرك أن المهمة لا تقتصر على سحب رشّاشك، بل هناك ما هو أكثر من ذلك.

لم تكن حتى الطريقة التي تتحركان بها، أو حتى الطريقة التي ترتفع بها تنّورتها القطنية عنهما فتعود وتجذبها آمي للأسفل إن لم تفعل سالي. بل نعومتهما وانكشافهما، لُزُوجتهما دون أن تكونا لزجتين، وكذلك رائحتهما المخفية تحت روائح الطريق، لا يمكنك شمها، ومع ذلك كنت أشعر بوجودها، فأعرف أنها رائحة سالي، رائحة الأجزاء المخفية من جسدها. هي رائحة مثل عبير شاطئ البحر، مثل اختلاف الشاطئ عن البر قبل وصولك إليه.

سالي على حجر آمي، أنا في الوسط، وجاك. كان من الممكن أن نتبادل المقاعد،

فأجلس أنا على حجر آمي، فلم أكن ثقيلاً. «سالي تجلس على حجري أنا». لكن بدا لي واضحاً أن هذا الترتيب هو رغبة آمي.

ويوماً ما أعلن لي الترتيب الجديد: "عليك أن تركب في الخلف. فأنت لم تعد صغيراً، وكذلك هي. إن كنت ترغب بحضور سالي معنا فانقلع للخلف."

لذا ركبت في الخلف حيث حُرمتُ رؤيةَ ساقي سالي، حيث الرائحة الوحيدة التي تشمها هو العبق الحلو الفاسد الذي يلتصق بحلقك لرائحة اللحم.

في البداية لا تشمها، فهناك سلة الغداء وحقيبة أغراض الشاطئ والبساط الذي فرشوه لي ورائحة الصابون الذي استخدمَه في فرك العربة. لكن ما إن يمر الوقت حتى تنبعث رائحة اللحم وتتسلل من مخبئها، وبعد وهلة يغمرك الغثيان وعليك أن تقاوم الاستفراغ.

لكني لم أخبرهما، أبداً لم أخبرهما، ولا أظنهما خمّنا. فالنوافذ الأمامية مفتوحة والنسيم المنعش يغمرهما، لم أطرق يوماً على الحديد وأصرخ، «أخرجاني من هنا، أحتاج لأستفرغ». كُرمى لسالي لم أفعل، حتى تتمكن من المجيء معنا. كانت تجلس في الأمام حيث لا يمكنني رؤيتها ولا شم رائحتها، كل ما أشمه كان رائحة اللحم، لكن ظل وجودها هناك حيث أعجز عن رؤيتها وشمها أهوَن عليّ من ألّا تكون معنا على الإطلاق، ومتى ما وصلنا وجهتنا ها هي أمامي حقّاً، وها هو شاطئ البحر. رائحة اللحم وشعور الغثيان سرعان ما يتلاشيان أمام عبير شاطئ البحر، ورغم معرفتك أن رائحة اللحم ما تزال عالقة هناك في العربة تنتظر النيل منك في طريق العودة، ما كنت لتفكر في الأمر إلا حين دخولك مرةً أخرى. فلكل حالٍ مقام. ومتى ما ركبت العربة في رحلة العودة، أرى أن الأمور تعادلت، ففي اتجاهٍ تحمل معك الأمل، وفي الاتجاه المعاكس تحمل معك الذكرى، وربما هذا هو ما عليه الأمر حقا، هذا هو ما عليك أن تتوقعه من الحياة، أمرٌ جيد بين أمرين سيّئين. في المنتصف الشمس ونسيم البحر، وعلى الطرفين الحبس في صندوق اللحم.

اعتقدتها ستُعجب بي لأني ضحّيت من أجلها. لذا لم أخبرها قط. لكن ربما لم أنل إعجابها، ربما حتى لم يرد الأمر على بالها، ربما حتى وجدَت ركوبي في الخلف مثل

حيوانٍ حبيسٍ في قفص مثيرًا للضحك، وربما السبب الحقيقي لرميهما لي في الخلف أنهما فضّلا سالي عليّ.

«جوون ليست بأختي. أنا لا أخت لي.»

كنت أركب في الخلف ثم تُغلَق عليّ دفتا الباب، الدفة اليسرى مطبوعٌ عليها «دودز» واليمنى مطبوعٌ عليها «وابنه». ثم يعود إلى مقعد القيادة ويدير المحرك وأشرع أنا بكرهه. أكرهه وأكره رائحة اللحم إلى أن يتحدّا سوياً فيضحيا كياناً واحداً لا يتجزأ. كراهيتي كانت الدافع الوحيد لأقاوم الغثيان والاستفراغ، دافعاً أفضل بكثير من التفكير في الأمور الجميلة، في عبير شاطئ البحر وسالي، فلا رغبة في القتال تستمدها من مشاعر كتلك. كنت أستلقي على البساط كارهاً إيّاه وأقول لنفسي لن أصبح جزاراً أبداً، ليس هذا ما سأكون عليه. وبينما أنا مستلقٍ هناك كارهاً إيّاه اكتشفت أمرًا آخر، أعمق وأبعد من رائحة اللحم، أمرًا ساعدني على احتمال تلك الرحلات. كنت أضع أذني على البساط وأشعر بالحديد ينبض من تحتي. كنت أسمع صوت طحنٍ مع كل قبضة على ناقل الحركة، أسمع طنّة المحاوِر الدوّارة تدفع بالطاقة عبرها لتمدّ العجلات بقوة الدوران. فأرى أن هذه هي الطريقة التي تتحرك بها السيارة، أني مستلقٍ على القلبِ المحرّكِ للعربة وجسدها. فلا أعود أنا أنا، بل أضحيت جزءاً من هذه العربة.

لكن في نهار أحد، ورغم مقاومتي، استفرغت. استفرغت على البساط وعلى حقيبة أغراض الشاطئ وسلة الغداء وكل شيء. ولم أخبرهم، تقيأت وسكتّ. لذا ما عادت رائحة اللحم هي الموجودة، بل طغت عليها رائحة القيء. وفي رحلة الأحد التالي أخبرني أن سالي لن تحضر معنا وسأجلس معهما في الأمام. فأرى أني أخيراً قضيت على متعة الرحلة وسالي لن تأتي معنا أبداً. فأناشده: "لا بأس، لا مانع لدي من الركوب في الخلف، لن أتقيأ مرةً أخرى، أعدك." لكنه يقول: "هي لن تأتي على أي حال، ليس اليوم، لذا انقلع للأمام."

كلاهما يلتزم الصمت، لم أسمع منهما إلا القليل. كأن وجودي في الخلف كان عقابًا نوعاً ما، والآن حين عدت للأمام أضحيت معاقباً أيضاً. لكني أقول لنفسي لستُ

بأنا من عليه أن يعتذر، أنا لست بآسف، بل هما من يشعران بالأسف. يشعران بالأسف على رميي في الخلف، بالأسف على لعب دور والدَي سالي وخيبتهما باستعادتي مرة أخرى. ثم يخرج عن الطريق الرئيسي ويدخل منعطفاً مختلفاً، كأننا هذه المرة لن نذهب إلى الشاطئ.

نقف على مقربة من قمة تل، والحقول تنحدر من أمامنا. الحقول كلها خضراء. فأقرر التزام الصمت، لن أسألهما، «لم نحن هنا؟» هناك طاحونة قديمة أعلى قمة التل، أذكرها، وأذكر المنظر أسفلها: حقول وغابات وشجيرات وبساتين، هناك مزرعة وبرج كنيسة وقرية. كأنه لحافٌ درَزَه أحدهم من رُقَع مختلفة وبسطه على مد النظر.

نجلس بُرهة في العربة، المحرك يتكتك والنسيم عليل. ثم يختلسان نظرةً نحو بعضهما فيقول: "انظر، هناك في الأسفل. هناك التقيت أمك أول مرة. نقلع الجنجل[10]» لا أفهم جيداً ما يقوله، أنا أعرف معنى القلع، وأعرف ما يعنيه حين يأمرني بركوب العربة، «انقلع للخلف»، «انقلع للأمام». لكن لا فكرة لدي بتاتاً عما يعنيه "بقلع الجنجل". لذا أسأله: "وما قلع الجنجل؟" فيحاول أن يشرح لي لكن يبدو وكأنما لم يخطط لهذا الجزء. وما أدراني أنا بما يقصد. فتقول آمي: "أتدري أنهم يطلقون على (كِنْت) لقب (جنة إنجلترا).[11]" وتبتسم لي بصورة غريبة. فيقول، كأنما لم يخطط أيضاً لهذا الجزء لكنه سيقوله على أي حال كي لا يضطر إلى لحديث في أمرٍ آخر: "لن يكون لديك مدينة إن لم يكن لديك الريف. تأمَّل تلك البساتين هناك، لولاها لما كان لدى عمك ليني تفاحٌ يبيعه، أليس كذلك؟ وتلك الخراف..." لكنه يقف عن الكلام ويصمت، يتأملني. ثم ينظر نحو آمي وآمي تومئ له فيقول: " تعال معي."

---

(10) الجُنجُل- Hop: هي زهور نبتة تنتمي إلى الفصيلة القنبية (اسمها الشائع حشيشة الدينار) يتم استزراعها بكميات كبيرة إذ تعتبر المكون الرئيسي في صناعة البيرة. م.

(11) جنة إنجلترا – The Garden of England: التلاعب اللفظي في اللقب يعتمد على كونه مستمد من (جنة عدن: The Garden of Eden) حيث التقى آدم بحواء أول مرة. م.

نغادر العربة ونسير نحو الحقول وينتابني الخوف. الخراف تثغو وتحدق بي. يقف ويتأمل المنظر. فأقول لنفسي لأن الخراف تُذبح. لأنها تقطع إرباً وتؤكل. المنظر يمتد أمامنا إلى أبعد مدى وكل ما نراه يبدو لي بالغ الصغر، وكأننا نحن أيضاً نقف على أبعد مدى ونبدو بالغي الصغر وشخصٌ آخر يتأملنا كما نتأمل نحن المنظر أمامنا. ينظر إليّ فأدرك حينها لِمَ ينتابني الخوف، لأنه هو خائف. وأبي جاك لم يخف يوماً. الرجل الواقف أمامي لا يبدو لي أنه أبي جاك، بل يبدو كأي رجل آخر. يأخذ نفساً عميقاً، ونفساً آخر سريعًا، أظنه أراد أن يغير رأيه، لكنه يترنح، أراه يتساقط أمامي على قمة التل، وما كان في وسعه أن يمنع نفسه.

ليني

ويعود ڤينسي إلى أرض الوطن، في حلّته المدنية الجديدة، يُقحم مؤخرته على مقعد المشرَب في «العربة»، ويدعو الجميع للشراب على حسابه، وبعد أن يستميلني بكأس ويسكي كبيرة ما كان علي أبداً أن أقبلها، يقول لي ببرود أعصاب كأنه يوم الكريسماس: "وكيف حال سالي؟"

من النظر إلى وجهه ما كنت لتعرف إن كان سؤاله صفاقةً أم أنّ جزءاً غبياً منه ظنّ فعلاً أنّ بإمكانه المواصلة من حيث توقف، أنه دفع ثمن فعلته في خدمته العسكرية، وها هو أمامي يسألني عن حال ابنتي.

أظنه كان سيحتال علي ويغطي عينيّ بالرّباط ذاته الذي غطّى به عينَي جاك، فتصرّفات جاك بخصوص عودة ڤينس توحي لك وكأنما ڤينس قد عاد إلى رشده، كأنما في رحيله أدرك سوء تصرفاته. كنت ستتوقع من جاك أن يكون أكثر عقلانية، ألا يصدق أن السبب الوحيد الذي دفع بڤينس إلى الفرار منه خمسة أعوام هو حتى يعود إليه تائباً بعد أن أدرك خطأه ويواصل من حيث توقف.

آخر الدواء الكيّ. الجيش كفيل بسحق طموحات الشاب الجنونية.

سعيدٌ بعودتك بنيّ. خذ وقتك، على راحتك، استمتع. مكانك في الدكان القديم محفوظ، أنت تعلم ذلك جيداً.

لكنه لا يرتاح ولا يستمتع، بل يباشر العمل بسرعةٍ فائقة. يراهن بحصة كبيرة من مدّخرات راتبه العسكري على حصانٍ بناءً على توصية خاصة من توصيات راي جونسون، وكما أضحت عادة راي مؤخراً، فتوصيته جاءت في محلها، والدليل: عربة التخييم. غير أن عربة التخييم موضوعٌ حسّاس لا نتحدث فيه، مثله مثل الموضوع المتعلق بتوصيته الخاصة لصديقه ليني تايت حين احتاج أحداً ينفذ مهمة خاصة لابنته.

وڤينس لا يشتري عربة تخييم، بل يشتري سيارة (جاغوار) موديل 59، كأنما يرسل

للعالم رسالة واضحة عن أسلوب الحياة التي يسعى وراءها. يبدو أن الجيش قد أظهر معدنه الحقيقي: متبطّل. لكنه يركن (الجاغ) في ساحة تشارلي ديسكون القديمة، كرم ضيافة من راي. فالساحة أضحت مهجورة بعد انتقال تشارلي ديكسون إلى ساحة الخردة في السماء. ثم يشتري لنفسه صندوق عدة وعربة ترولي وينكب معظم يومه في العمل على المحرك، ينهمك في تفكيكه ومن ثم إعادته مرة أخرى، بعدها يعمل على تجميل بدن السيارة ويبيعها. ثم يذهب ويشتري سيارةً أخرى ويكرر معها الشيء ذاته، وقبل أن ينقضي العام هناك سيارتان مركونتان في ساحة راي إلى جانب عربة التخييم، فأقول لجاك: "لا تخدع نفسك أكثر، هي ليست فقط بهواية الصبي. ربما هو يجد سعادته في قضاء يومه كاملاً مستلقياً تحت سيارة، لكنه بالتأكيد لا يفعل ذلك من باب الاستمتاع فقط. الأمر لا يقف لدى متعته."

فيجيبني: " هو خطأ راي."

" ربما. لكن راي لديه مشاكله التي تكفيه، أليس كذلك؟"

لكن جاك لا ينوي الاستسلام بسهولة. يحاول مع ڤينس مرةً أخيرة عله يبدل رأيه. محاولة حمقاء وسخيفة، بحماقة وسخافة ماندي بلاك من (بلاكبرن).

القصة تبدأ في صباحٍ باكر مع قدومها إلى (سميثفيلد) في شاحنة نقل لحوم، كانت قد قطعت طريقاً طويلاً من بلدتها وما كانت لتمانع قطع طريقٍ أطول، لولا أنها تعبت وجاعت وأضاعت طريقها. لذا يدعوها جاك ورفاقه إلى وجبة إفطار. لكن جاك يبسط يده أكثر في كرم ضيافته ويعرض عليها المبيت ليلةً في منزله. أي شخصٍ آخر لكان اكتفى بالإشارة نحو الطريق الذي أتت منه ولكان كفى نفسه المتاعب وضحك الناس عليه من ورائه، لكن ليس جاك. ولكنت توقعت من آمي الاعتراض على تلك المبادرة. لكن يبدو أن تصرفه جاء نابعاً من اللطف، أو ربما كان يتبع تقليد عائلة دودز في إيواء الحيوانات الضالة. على أي حال، ماندي تظهر فجأة في (بيرموندزي)، في عربة جاك، ولا أظن جاك كان يفكر حينها في ڤينس على الإطلاق. بل لمرة واحدة جوون من كانت في باله. آمي من كانت في باله. الأحمق المسكين.

العقدة في القصة أن مع عودة ڤينس من الجيش لم يكن هناك من سريرٍ إضافي.

لكن لا مشكلة، يخبرهما ڤينسي، سيرى إن كان بإمكانه قضاء الليلة في عربة التخييم لدى راي. فهي مجرد ليلة وقد اعتاد على العيش في خيم معسكر الجنود حتى في أجواء مماثلة لأجواء نوفمبر. وهكذا سيكون أقرب لسياراته العزيزة على قلبه. لكن ضيافة الليلة تمتد لأسبوع، وترجوهم ألا يفصحوا عن وجودها لديهم، ولم يطاوعهم قلبهم على طردها، وأظن الفكرة طرأت على بال جاك حينذاك مع اعتيادهم على وجودها لديهم كمقيمة دائمة، أقنع نفسه أنه وجد الطُّعم الذي يستدرج به ڤينس للعودة إليه. ولا أدري كيف صدّق أن الفكرة ستنجح، لا أدري. كأنما كان يتوقع من ڤينس أن يقول، «شكراً جاك، من اليوم سأعاود القدوم إلى (سميثفيلد)، فهو يبدو مكاناً ممتعاً.» كأن ڤينس لا يعرف كيف يغوي الفتيات بنفسه، والإغواء ليس بالشيء الوحيد الذي يفعله معهن. وكأنّ ماندي هي مُلك جاك يُلقيها لڤينس متى يشاء. فها هي الآنسة (يخنة لانكشاير) تسكن غرفة ڤينس، وڤينس يسكن عربة راي، وعاجلاً أم آجلاً ستذهب إليه في الساحة لتشكره على تحمله النوم في العربة من أجلها، وكي ترى بعينيها كيف يقضي يومه هناك. وها هما وحدهما وهناك عربة التخييم وڤينسي لديه المفتاح. لذا سُحقاً لك جاك.

النكتة أن ماندي لم تدر حينها كم هي محظوظة، أو أنها كانت أكثر ذكاءً مما ظنه الجميع، بصيرتها رأت المستقبل البعيد. ففي تلك الفترة، ورغم جهلنا حينها بما سيجري، ڤينسي كان في طريقه إلى إنشاء "سيارات دودز" والتي ستغدو بعدها "صالة عرض دودز للسيارات". أنا أدعوها "جراج". ورغم أنها بدت لي تجارةً متقلّبة وليست بالمثال الناصع لمستقبل الرجل المهني، فقد نجحت معه، وربح من ورائها ما يفوق أرباح "دودز وابنه" على الإطلاق. «تأمّل تلك البدلة.» أمّن لها الفساتين والتسريحات وعُطَل الصيف تحت أشعة الشمس. أحياناً أتمنى لو أن ابنتي سالي اجتمعت مرة أخرى بالصبي الكبير وعادا لبعضهما، سحقاً له، نعم أتمنى. فنصيبها معه ما كان ليكون أسوأ مما تعيشه الآن، وأتذكر الرحلات إلى (مارغايت) التي لم نشاركهم بها أنا وجوان أبداً، نعم أتمنى.

يقول لي: " وكيف حال سالي؟"

فأجيبه: " أظنك فعلاً تود معرفة حالها."

" نعم أود أن أعرف، هاك كأساً أخرى." ملامح وجهه ثابتة.

"لقد تزوّجت. ألا تدري؟"

أقول لنفسي هذا الأحمق يملك جرأة، أعترف له بذلك، الغبي يعرف كيف يتصرف. تربية الجيش. هو ليس بالقبيح أيضاً، لسوء الحظ، بنية جسده جيدة. وأرى لم يسمح له الجميع بالدوس عليهم، مع استعانته بتمثيلية اليتيم الصغير متى ما تطلب الأمر. أظنه في السنوات الخمس السابقة استمتع بنصيبه من العاهرات والفاسقات. ولا أدري علام يجلس هنا، يوزع المشروبات على الجميع، كأنما هو بطلٌ منتصر، بينما كل المجد الذي حققه هو خروجه ضمن دفعة الجنود الأخيرة من عدن، حيث قضى أعوام الخدمة في تعلم استخدام مفتاح البراغي ومسدس التشحيم؟ لا يشبه أبداً ما عشناه أنا وجاك وراي في الصحراء اللعينة.

أقول له، لقد تزوّجَت ألا تدري؟، لكني لا أخبره أنها لم تعد تعيش مع زوجها، مع وجود زوجها في سجن (بينتونفيل). لأنه لابدّ وسمع القصة. عليه أربع قضايا سرقة وقضية اعتداء. يبدو أن ما يحتاجه البلد هو عودة التجنيد الإلزامي، إيه ڤينسي؟ ولا أخبره كيف تُدبّر أمورها. المهام الغريبة التي تقوم بها من أجل المال. استقبال رجال غرباء في بيتها. فهذا زمن «افعل ما تشتهيه»، اسأل رايزي.

ولا أخبره أن لا أطفال لها. على الأقل هذا عبءٌ لا يثقل كاهلها، أليس كذلك؟

يجيبني: " نعم سمعت، سمعت بزواجها." ولا ذرّة إحساس. "وكيف هو وضعك مع تجارة الخضرة والفاكهة، ليني؟"

ڤينس

لكن السيارة الرائعة ليست فقط بسيارة جيدة.

السيارة الرائعة هي مصدر الراحة والرفقة والأفضلية للرجل، مثلما هي وسيلة نقله من أ إلى ب. لا يسعني التكلم نيابة عن النساء. فماندي تقود سيارتها كأنها لا تعني لها شيئاً، كأنما السيارة حقيبة يد. لكن السيارة الرائعة تستحق الاحترام، عاملها بالحسنى وستردّ لك المعاملة بمثلها وأحسن منها. وإن راودتك رغبةٌ جارفة في التعرف إليها عن قرب، فكّك أجزاءها وسترى كيف تعمل. لا غموض هنا.

الناس يلعنونها. يصفونها بلعنة هذا الزمان. لكني أقول أليس مذهلاً؟ أليس مذهلاً وجود شيء نقفز داخله ونرحل إلى أي مكانٍ نريد؟ لا أملك تخيل العالم دون السيارات. فلا شيء أروع منها، وإن سألتني، فسأقول لك أن لا شيء في هذا العالم يعبر عن الحياة، أنك فعلاً حيٌّ ترزق في هذا الزمان، مثل دوسك بقوة على البنزين والانطلاق بسرعة على الطريق حتى تشتعل إطاراتك، وها هي اللوحات وإشارات المرور والخطوط البيضاء كلها وضعت من أجل السيارة، وها كل شيءٍ يتحرك، الكل يرحل. أين نحن؟ (غرايف سِند)، ثلاثة أميال. نحن نقترب من (غرايف سِند). أو حين تجول في البلدة في يومٍ حار، نظارتك الشمسية على عينيك وذراعك تتدلى خارج النافذة وسيجارة تتدلى من بين اصبعيك وتصطدم كفك عرضاً بتنورة تتهادى على الرصيف.

Ridin' along in my automobeeel[12]

ودائماً ما أقول هي ليست السيارة وحسب، بل السيارة والرجل، الانصهار الحراري بينهما. السيارة لا تساوي شيئاً دون رجل يدير أزرارها. وأحيانا كثيرة الرجل لا يساوي شيئاً دون سيارة، أنا أدرى بذلك. «التعريب»، هذا ما أطلقه على حِرفتي. صمّم

(12) من أغنية: No Particular Place to Go للمغني Chuck Berry (1963) ترجمتها إلى اللغة العربية هي التالي: أتجول وحدي في سيارتي. م.

العربة على مقاس الزبون. فأنا لست بتاجر سيارات، أنا «مصمم سيارات.» كذلك أنا ميكانيكي سيارات، معلم ميكانيكا من الدرجة الأولى، أعرف المحركات كما يعرف الرجل فرج زوجته، لكن تلك أيامٌ ومضت. السيارة الرائعة مثل البذلة الرائعة.

قال لي: "حزينٌ لمصابك سيد دودز. حزنت جداً لدى سماعي الخبر."

الوغد المنافق.

" العمل عمل سيّد حسين. هلّا نأخذها في جولة حول الحي؟"

لذا نركب أنا وهو المرسيدس.

سألني: "متى الجنازة؟"

أجبته: " الخميس. المحرّك ممتاز كأنه خرج توًّا من المصنع. الطلاء والتحسينات نفذت جميعها حسب الطلب."

"هي ضربة قاصمة سيد دودز، لا ضربة أقسى من خسارة الأب."

"النابض الأماميّ يتطلب إلقاء نظرة سريعة عليه، سأحرص على ذلك. وما رأيك بذراع نقل السرعة؟ سلسٌ مثل القشدة."

يظنني أصبحت لقمة سائغة له مع وفاة جاك.

قلت له: "الضمانات المعتادة."

قدنا على طول طريق (جامايكا)، ثم أخذنا جولتين في طريق العودة على منعطف (روثيرهايث).

قال لي: "دعني أفكر في الموضوع."

ما يعني أنه قد لا يشتري السيارة. ما يعني أنه بدأ يسأم من كاث. ما يعني خسارتي الورقة الرابحة في الصفقة، ما يعني خسارتي الإكرامية.

وأنا أصلاً ينقصني ألف.

عدنا أدراجنا على شارع (آبي) وركنّا على حافة الطريق ثم جلسنا هناك بُرهة من الوقت. مهما جرى، دائماً أَفْسح المجال للزبون كي يفكّر.

قلت له: "لقد تلقّيت طلباتٍ عدّة عليها يا سيّد (H)، لكنك تعرفني، اسمك يحتل

أعلى القائمة."

أجابني: "امنحني حتى الجمعة وسأجيبك، طبعاً كاتي ستحضر الجنازة."

"هل تسألني أم تخبرني؟"

أمرٌ مثبط ويدعو للكآبة، أليس كذلك؟ أن تضطر لرؤية عشيقتك تدّعي الحزن؟ تجر نفسها جراً لحضور الجنازة وإظهار احترامها؟

أجابني: "أسألك"

" القرار يعود لها." ما يعني أن القرار يعود له. "هي سيارة جميلة سيد (H)، تناسبك من كل النواحي كأنها صنعت خصيصاً من أجلك. لا أدري إن كنت أنا سأحضر الجنازة."

ينظر إليّ محتاراً. يظن طالما جاك قد مات فقد أصبحت لقمة سائغة.

فقلت له: "أتعني أن كاث لم تخبرك، لم تخبرك أبداً؟"

هي أروع شيءٍ في العالم بأسره، الاختراع الأروع على الإطلاق. لو لم يخترعها أحد لكنّا اخترعناها بأنفسنا. هي ليست فقط بمقاعد على عجلات. هي الشريكة. هي الرفيقة. لن تسألك شيئاً. وأبداً أبداً لن تكذب عليك. هي المكان الذي تكون فيه على حقيقتك. فإن لم يكن لك مكانٌ تنتمي إليه، لا بأس، في سيارتك ستكون بخير.

(غرايفسِند)

يستقر ڤيك على مقعده، العلبة لم تعد في حجره، يدير الأزرار على لوح الباب محاولاً تعديل وضعيّة المقعد.

يسأله ليني: "هل أنت مرتاحٌ، ڤيك؟"

فيجيبه: "نعم."

"المقاعد كلها تُعَدّل إلكترونيًا." يخبرنا ڤينس، "تنجيد المقاعد مصمم وفق طلب الزبون."

فيرد عليه ليني: "لكن ڤيك ليس بزبون."

"لا تستعجل، ربما. كم تطلب فيها ڤينس؟" ويلتفت ڤينس فجأةً نحو ڤيك مصدّقاً لحظة أنه فعلاً ينوي شراء السيارة قبل أن يراه يغمز ويضحك في سرّه. وڤيك ضحكها في سره فعلاً.

من بيننا، أرى ڤيك الأفضل حالاً، الأفضل بأشواط. إن رأيتنا نحن الثلاثة سوياً: أنا وليني وڤيك، ستخمن أن ڤيك أصغر منا بخمس سنوات. الرهان على وصوله آخراً خط النهاية هو رهانٌ صائب. طبعاً إذا استثنينا ڤينس، وحتى ڤينس لم يعد بالدّيك الشاب. وأول من سيصل منا خط النهاية، اللاحق من بيننا سيكون...

يقول لڤينس: " كنت فقط أختبرها."

وجهُ ڤيك دائماً ما كان صافياً هادئاً ووقوراً. وأظنه يحرص على قص شعره كل أسبوعين. ربما هو هكذا نتيجة تعامله مع الجثث، كأن التعامل اليومي مع الموت يحفزك على الحفاظ على صحتك. وربما هي تأثير المكملات الغذائية التي يتناولها، أو ربما تأثير خدمته العسكرية في البحرية حيث المحيط والهواء النقي. لكن بقيتنا، أنا وجاك وليني، نحن من أكلناها غباراً وذباباً.

ليست ملامحه فحسب، بل شخصيته. كأن ڤيك تاكر على صوابٍ دائماً ولا أحد يملك أن يصحح خطأه. كأن لا أحد منا يحق له أن يعارض جلوسه في المقعد الأمامي

سواء يحمل العلبة أم لا، كأنه هو قائد هذه البعثة. ثابتة على مسارها، ڤينسي. آي آي قبطان ڤيك. وأظنها مهنته كحانوتي أيضاً، تدفعه دوماً نحو رؤية الحياة من منظورها الحقيقي، تمنحه قوة الحفاظ على توازنه أمام أمواجها المتلاطمة. فما كان لينفعه أبداً في مجال عمله أن يكون منقوص الكرامة.

الكرامة، هذه هي، الكرامة.

ڤيك تاكر، خلاصك بين يديّ.

يغوص ڤيك أكثر في مقعده، عيناه نصف مغلقتين.

يسألني ليني: "لمْ تُجبني بعد رايزي؟"

"أجيبك على ماذا؟"

"إن كانت سو ستزورك، تدري، لتودّعك."

"ليس بالأمر الهام، لن يعني شيئاً."

"ولو" يتابع ليني حديثه بهدوء كأنما يخشى إيقاظ ڤيك من غفوته،"ستحتاج شخصاً إلى جانبك."

ما يعنيه: لا كارول ولا أحد آخر موجودٌ الآن في حياتك.

أجيبه: "الطريق بعيد من أستراليا إلى هنا."

"ليست بأبعد من هنا إلى العالم الآخر."

أحدّق بليني.

ويسأل ڤينس: "أي عالمٍ آخر؟"

فيجيبه ليني: "هو مجرد كلام أيها الصبي الكبير."

"لكنها تظل أبعد من (سيدنهام)."

ڤينس يقصد المنطقة التي تقطن فيها كارول الآن، إلى حيث انتقلت. باري ستوكس: متجر مستلزمات منزلية والكترونية.

" أظن"، يجيبه ليني كأنما لم يفهم قصده.

"أظن بإمكاننا أن نخطف زيارة سريعة هناك في طريق عودتنا، إيه رايزي؟ على الدائري الجنوبي."

ڤينس أخذ يتحمس، كأنما تذكر أنه الولد في مجموعتنا.

أما ليني فظل يلاحقني: "افرضْ، افرض وقتها سيكون لديك طلبٌ خاص كالطلب السخيف الذي طلبه صاحبنا جاك، فمن سينفذه لك؟"

"لن أطلب طلباً سخيفاً."

"من يدري؟ ربما ستطلب"

أقول لنفسي: آمي ليست هنا.

أنظُر نحو ليني وأقول: "ها أنت هنا."

ينظر ليني إليّ، وجهه يبدو مهروساً. لابدّ أنها سنوات عمله في بيع الخضار والفاكهة. لك أن ترى أن إجابتي هي تماماً ما كان يود سماعه، لكنه يهز رأسه برفق، مبتسماً: "ربما عليك أن تعيد التفكير في حضوري، إلا إن كنت تنوي التخطيط لطلبٍ سهل."

حتى ڤينس دخل على الخط: "لا تقلق رايزي، أنا سأكون هنا. ما السيارة التي تريد: مرسيدس أم رولز؟"

ڤينس سيّد الإحساس.

ليني ناهراً ڤينس: "أبْقِ عينيك على الطريق وإلا لن يبقى أحد منا هنا لتنفيذ طلبه."

لكن ڤينس لا يكترث له: "وأين تريد لرمادك أن ينثر؟"

يسعل ڤيك ويتزحزح في مقعده، لم يكن نائماً: "بإمكانك الذهاب هناك رايزي، أليس كذلك؟ الآن إن أردت، سافر إلى أستراليا واجتمع بسو، تعرّف على أحفادك الذين لم تلتق بهم مع أنك جدّهم. ما الذي يمنعك؟ فأنت رجلٌ حر."

يلتفت ڤيك للوراء وينظر نحوي. كأنما خلّصني من زاوية ليحشرني في أخرى.

فأجيبه: "مسألة بسيطة تتعلق بالمصاريف، ڤيك."

"إذن راهن على حصانٍ رابح، أظنك فعلتها من قبل."

أحدق بڤيك لكن لا تعابير على وجهه. ما الذي يعنيه «برجلٍ حر؟»

وڤينس يؤيده: "ڤيك معه حق. سيتسنى لك رؤية شيءٍ من العالم. تستمتع بحياتك قليلاً. وفي طريقك توقّف في بانكوك."

رأس ڤينس مائلة نحو مرآة القيادة.

ويسألني ڤينس مرةً أخرى: "لكن من باب الفضول، أين تريد أن تُنثَر؟"
كأنما هو سائق تاكسي. إلى أين تريد مني إيصالك سيدي؟
"لن أكون نيّقاً، سأترك الخيار لڤيك."
لكن ڤيك لا يقول شيئاً. لا يقول لي، «متى ما أصبحت جاهزاً راي،» ثم يرفع لي أصبعه الوسطى، تحيّة الحانوتي لزبائنه. ثم فجأة تراءت لي صورتي وأنا في السيارة، في علبة الكرتون، في سيارة كبيرة، ولا أحد موجود سوى ڤينس الذي يتولى قيادة السيارة، ڤينس بربطة عنقه وأزرار كمه ونظارته الشمسية.
لقد بِعته الساحة برخص التراب، وباعها هو بالغالي.
ثم أعود وأقول لنفسي، لكني يومها لن أرى. لن يهم. لن يعني لي شيئاً، لأني لن أرى. إلا إن كان صحيحاً ما يعتقده ڤينسي، أنهم يروننا، الأموات، وحين أموت سأتمكن من رؤية جنازتي. وكلهم يروننا، أعينهم علينا في هذه اللحظة، والدي، تشارلي ديكسون، والدة ڤينس ووالده، ودووك، وجاك الجالس معنا، يختلس النظر من داخل العلبة، وكل الأموات الذين تركناهم أنا وليني وجاك في الحرب، خلّفناهم وراءنا مرميين في الصحراء، لأننا نحن من حالفنا الحظ يومها، نحن من لم يكن الدور قد أتى علينا بعد.
لذا يومها سأرى إن كانت سوزي ستحضر.
يقول ليني: "أقترح أن ينثروا رمادك على (تاتينهام كورنر[13])"
أنظر نحو ليني، لا يحاول حتى إخفاء قصده.
وڤينس يقول: "لقد سهّلت علينا الموضوع." وتشتعل الحماسة في ڤينس، كأنما وجد لعبة جديدة: "وماذا عن بقيّتنا؟ ماذا عنك ليني؟"
"أنا مع راي، لن أكون نيقاً. فلن يعني شيئاً."
العلبة مسجاةٌ بيننا كأنها مُسند ذراع.
فيقول ڤينس: "الرماد شيء."

(13) الحي الذي تقع فيه حلبة سباق الخيل في (إبسوم). م.

ينظر ليني نحو ڤينس.

"وماذا عنك أنت ڤيك؟"

يرفع ڤيك رأسه قليلاً كأنه قد غفا مرة أخرى، ويجيب ڤينس: " آه، لقد رتبت الموضوع."

" ما الذي رتبته؟"

" اشتريت قبراً، قبل عدة أعوام، حين كانت القبور ما تزال رخيصة، لي ولزوجتي بام، مقبرة (كامبرويل) الجديدة."

الكل يصمت. نتابع رحلتنا على الطريق. لا أحد فينا له أن يخمن ما يفكر فيه الآخر، لكني أظن تخمين ڤيك سيكون الأقرب للصواب. أظن ڤيك يعرف أكثر مما يبدي. ربما هي صفة اكتسبها أيضا من سنوات عمله مع الجثث.

ڤيك

هي تجارةٌ شريفة. تجارةٌ لا تشتري فيها الرّخيص كي تبيعه بالغالي من جديد، تجارةٌ لا تبيع فيها الزبون شيئاً من سقط المتاع وكأنه شيءٌ نفيس. هي تجارةٌ لا أحد يرغب في بضاعتها، لكن الكل في حاجةٍ إليها. وكحال أي تجارة أخرى، هناك المحتالون، وفي هذه التجارة بالذات المحتالون هم الأسوأ، فهم يعتاشون على مصائب الآخرين. أعرف منهم من هو مستعد لسلب أرملةٍ لم يتعد على وفاة زوجها أسبوع، يقنعها بشراء تابوت من خشب البلوط، بطانة من ساتان، مقابض من نحاس، وغيره وغيره، بينما تابوتٌ من خشب عادي مصقول سيؤدي الغرض. حتى اليوم لم تصلني أي شكوى من أي جثة. وهناك من سيصمم توابيت وفق الطلب كما يفعل ڤينس مع سياراته. لكن تظل في النهاية تجارةً شريفة، تجارةً مستقرة، تجارةً أبداً لن تبور.

هي أيضاً امتياز، وكما أراها أنا، هي مدرسة. ترى فيها الإنسانية في أضعف حالاتها وفي أقواها. تراها متعريةً من كل همومها اليومية التي جبرتها على التصرف طوال الوقت بجدية، تراها لحظةَ جلّ ما تحتاج إليه هي أن تتدثر بلطف في احتفاءٍ وقور. لكن لا ينفع الحانوتي أن يلتزم الوقار طوال الوقت، فحس الفكاهة له دوره في مهنتنا، لذلك دائماً أعرّف عن نفسي هكذا: «ڤيك تاكر، خلاصك بين يدي!»

هي ليست بالمهنة التي يسعى إليها كثيرون، عليك أن تكبر في أجوائها، هي مهنةٌ تورّث من أبٍ إلى ابنه. تجري في عروق العائلة، كما الموت يجري في عروق الإنسانية، ومن المطمئن أنها تجري هكذا، بالتوريث. لن تراها مهنةً مفضلة عند أحد. لكن ستجد فيها الرضا والكبرياء. يستحيل عليك أن تقيم جنازة دون كبرياء. حين تتقدم الجمع وتسير متمهلاً بخطىً ثابتة أمام عربة دفن الموتى، مرتدياً معطفك وقبعتك وقفازيك، فليس من المقبول أن تؤدي دورك آسفاً. عليك أن تحقق في تلك اللحظة ما يبتغيه منك الأيتام والأرامل والأمهات الثكلى. عليك أن تجعل العالم بأسره يقف ويعي أن الموت قد خطف منه إنسانًا. هناك أوقات يبسط فيها الحانوتي نفوذاً يفوق

ما لدى الشرطي. إذ يستحيل عليك أن تقيم جنازة دون فرض سلطتك. حين يقف الناس عاجزين عن فعل أي شيء فعلى أحدٍ أن يدلهم. أمام رهبة الموت، معظمهم يعجز عن معرفة يمناه من يسراه، أمامه من خلفه، تلك هي الحقيقة. الشيء ذاته حدث في جنازة جاك كما في آلاف الجنازات. حين تسدل الستائر وتعلو الموسيقى لا أحد يعرف متى ينهض ويرحل. لا أحد هناك كي يُعلن للملأ، «لقد انتهى العرض». وها هو رايزي، يجلس إلى جانب آمي، في الصف الأول من المقاعد، على طرف الممر، يحدق نحو الأمام، فأسير نحوه وأربت على كتفه وأهمس في أذنه ما همسته في آلاف الآذان: «يمكنك الرحيل الآن رايزي، الكل سيتبعك، آمي ستتبعك.» وفي تلك اللحظة، راي جونسون، المعروف لدى الجميع بالمحظوظ، أضحى ألعوبةً في يدي، طفلاً نائماً أقوده نحو الفراش.

شاهدت جاك يفرغ صواني اللحم، يرفع أصيص أوراق العسلوج الصناعية، ثم يشرع بشطف منضدة العَرْض بسلاسة دون توقف، كأنما باستطاعته أن يؤدّي كل تلك المهام معصوب العينين، لكنه يؤديها بحذر وتؤدة، يأخذ وقته، رغم أنه يومٌ حار. فقلت لنفسي لقد جاء مبكّراً، وقد مرت فترة منذ رأيته يؤدي تلك المهام بنفسه، في العادة يؤديها الفتى، ذاك الذي قال عنه أنه لا يعرف لحم الكتف من لحم الظهر ودائماً ما ينسى السّعر. إلا إنْ طردَه هو الآخر. وتلك الظلة الرثة المخططة بالأبيض والأحمر لن تصمد حتى نهاية العام.
هي عادة قديمة لديّ، مشاهدة الدكاكين الأخرى تُغلق أبوابها نهاية اليوم. المفترض بالدكان أن يكون مكشوفاً للأعين، لذلك هو مبنيٌّ حول نافذة. لك أن تتأمّل ما في داخله من بضاعة وترى صاحب الدكان بينما يؤدي عمله، كأنك تتأمل أحواض السمك، لكن ليس مع دكان الحانوتي. دكان التوابيت هو الدكان الوحيد الذي لا يرغب أحد في استراق النظر إلى داخله. التوابيت مسجّاة أفقيًا جنباً إلى جنب، حرفياً لا مجازاً. الستائر، الأحجبة المنخلية. لا أحد يرغب في مشاهدة منظّم جنائز أثناء عمله.

لذا في مساءٍ هادئ وقفت حيث اعتدت الوقوف، خلف الستارة المخرمة الممتدة على عرض نافذة الدكان، المنسدلة على السّاتر-النصفيّ الدّاكن. هي عادةٌ نَرِثُها أيضاً مع هذه المهنة. السرية، عيناك على الجميع لكن لا أحد يراك.
تريف أخذ بقية اليوم إجازة، وديك ذهب في مهمة استلام من (ميدستون)، وبقية الموظفين تسللوا خارجاً، عربة دفن الموتى مركونة في الخلف، مشمعة وملمعة من أجل الغد. لذا بقيتُ وحدي في المكان. طبعاً إذا استثنينا السيد كونولي المستلقي في انتظار زوجته لتلقي عليه نظرة الوداع.
شاهدت جاك يقف خارجاً كي يُنزل الظلّة، يفتل المقبض عدة مرات ويعود إلى الداخل، ثم يخرج مرةً أخرى ليقفل المتجر ويسحب المصراع نحو الأسفل. لابدّ أن تلك الاحتياطات مُكلفة، رغم أني لم آبه بتركيبها على دكاني، فأنا لم أسمع مؤخراً بدكان حانوتي يتعرض للسلب. هي ليست بالتجارة المفضلة حتى لدى اللصوص. لكني أجرؤ على القول أنّ ما تحويه خزنتي من مال هو أكثر مما تحويه خزنة جاك.
ظننته سيلتفت يميناً، يربت على جيبيه، ينظر إلى ساعته، يلوّح نحو (ديز) في المصبغة، ثم يتجه صوب «العربة»، حيث يحتمل أن أجتمع به خلال ساعة، إن لم تتأخر ڤيرا كونولي عن موعدها. الجو حار يثير العطش. لكني رأيته عوضاً عن ذلك يمشي نحو حافة الطريق وينظر نحوي، كأنما باستطاعته رؤيتي واقفاً خلف الستارة المخرمة، كأنما يستدعيني إليه. ظل واقفًا هناك ينتظر خلوّ الطريق من السيّارات ثم قطعَ الشارع، لذا عدت داخل الدكان بسرعة. ثم سمعته يخشخش الباب.
قال لي: "عمت مساءً ڤيك، هل أنت قادمٌ (للعربة)؟" واستغربت سؤاله، فهو إما سيراني هناك أو لن يراني، وفي كل الأحوال فأنا أدل طريقي إليها. وهو يعلم أني عادةً ما أحضر متأخراً، إذ نادراً ما أنهي يومي في العمل وقتما يفعل هو، في الساعة الخامسة والنصف بالثانية.
أجبته: "كنت أفكر في الذهاب."
" الجوّ يبعث على العطش، يومٌ جميل رغم ذلك."

"يومٌ جميل. هل أتيت لتسألني؟"

" الأول من يونيو، ڤيك. أتعرف أي يومٍ هذا؟"

نظرت نحوه، أمّا هو فأخذ يتلفت من حوله.

" أنت وحدك الليلة؟"

أومأت له: "لم لا تجلس؟" يختلس نظرة سريعة نحوي، محتاراً، كأنما ليس من الواضح كالشمس أنه هنا في مهمة، لكنه يجلس، على الكرسي ذاته الذي يجلس عليه زبائني، حيث يجلس أقارب الفقيد ونناقش طلباتهم. ثم يقول: " لقد حانت اللحظة، ڤيك. الأول من يونيو. سأبيع الدكان."

يقولها كأنما يعترف لي بجريمةٍ ارتكبها. كأنما جاء لينظم جنازته.

فأقول له: "حسنٌ طالما هذا هو الأمر سآتي حتماً (للعربة) وأشرب نخب قرارك، فهناك ما نحتفي به. على حسابك؟" تضيق عيناه لحظة بينما ينظر إليّ، كأنما لم يقصد بكلامه أن أستهزئ به، وربما لم أكن مختلفا عن الآخرين، عن كل أولئك الساخرين.

" أنت الوحيد الذي أخبرته ڤيك، لم أخبر أحداً غيرك، ليس بعد."

" هو شرفٌ لي. لن أنبس ببنت شفة."

لكني أقول لنفسي وأين السر في الموضوع، ولم الخجل العميق؟ ألأنه قرر التقاعد في سن الثامنة والستين، وهو ليس بسن التقاعد المبكر لمعظم الناس. أم حديثه الدائم أنه سيعمل ويعمل حتى يقع ميتاً، لكنه لم يقع ميتاً، ورغم ذلك سيترك العمل. أنه سيأخذ أخيراً بنصيحة ڤينسي قبل أعوامٍ عدّة: أن يترك تجارته بأقل الخسائر قبل أن تتركه هي مفلساً. ربما هذا هو لُبّ الموضوع، إنها نصيحة ڤينسي. وهناك أيضاً آمي التي كادت تيأس منه. غير أنه لم يعرف بيأس آمي منه، ولا كيف يئست منه.

غريبٌ أمرُ الكبرياء. ينفخ في الرجل الصغير فيظن نفسه كبيراً. لكن ما يفعله الكبرياء بالرجل الصغير لا يساوي شيئاً أمام ما يفعله بالرجل الكبير الذي يخشى على نفسه أن تبدو صغيرة.

يقول لي: "وعلى أي حال، ما قيمة دكان الجزار؟"

فأقول لنفسي أجبني أنت جاك، فعلى وجهك أقرأ إجابتك، الدكان يعني لك كل

شيء، ومن المؤلم لك أن تعترف بغير ذلك. أعجب كيف تراها مأساة، توقفك أخيراً عن الحرث حول الساقية. ابتهج جاك. في كتابي، الجزارون اعتادوا أن يكونوا أوغاداً مَرِحين، رجالاً ضخاماً بأذرع ضخمة وابتساماتٍ عريضة، تماماً مثلك أنت فيما مضى. أنا من يفترض به أن يلعب دور السيد (حزين). فما تتحدث عنه هو التقاعد لا الهزيمة. وطبيعة عملي هي ما تدفعني للتريث رغم

أني في سنك، ألبث هنا في المكتب بينما بيدي أن أسلم الإدارة لأبنائي. لكن عليّ أن أبقى، فهذا هو السن الذي سيحتاج فيه معارفي إلى حانوتي، السن الذي ستُمسي فيه زوجاتهم أرامل، وأنا أدري كم ستقدّر السيدة كونولي وجودي.

"هناك ما هو أهم في الحياة من لحم الخنزير المقدد، أليس كذلك؟" يسألني كأنما هو محتار في هوية ذاك الشيء الأهم. "وهي الخطوة الصواب من أجل آمي."

"هل أخبرتها؟"

يرفع عينيه مصدوماً بسؤالي. "مهلك علي، ڤيك، فقد أخذت قراري قبل خمس دقائق، بينما كنت أبدل صواني اللحم."

قلت لنفسي، هذا أقرب إلى جاك دودز الذي أعرفه.

لذا، ومن غير قصد، كنت أنا الشاهد على لحظة اتخاذ القرار العظيم. لابدّ أن هناك وحيٌ يلهمك أن تنظر حيث تنظر وقتما تنظر.

"لذا رأيت من الأفضل أن أخبر أحداً بقراري وبسرعة، أن أخبر ڤيك بسرعة، قبل أن أعود في قراري وأنا في طريقي لإخبار آمي."

هذا بالتأكيد جاك الذي أعرفه.

"لكنك بهذا ستحرجني، أليس كذلك؟ إن لم تخبرها."

يؤكد لي ساخطاً: "سأخبرها." لكن سرعان ما تعود ملامح الصدمة على وجهه، كأنما لم يحل بعد مسألة عبوره الجسر، كأنما لا يوجد في العالم ما هو أصعب من نقل الأخبار الجيدة.

هناك ساعة حائط قديمة في مكتبي، تكاتها منتظمة. هي مصدر راحةٍ لي.

" أولادك بخير ڤيك؟"

أولاد! كلاهما تجاوز الأربعين. لكني ما أزال أشير لهما بالأولاد.

"أبقيهما مشغولين."

يتلفت حوله في المكتب المهجور ثم ينظر نحوي كأنما يود أن يقول لي، «يبدو لي أنّهما من يبقيانك مشغولاً ڤيك.» لكني أعرف ما تعنيه تلك الومضة في عينيه، فقد لمحتها من قبل. هي تعني، من السهل عليك ڤيك أليس كذلك، من السهل عليك أن تستسلم وتتخلى عن دكانك بوجود ولديك. بوجود ديك وتريف. هكذا الدكان يبقى ولن تخسره. سيكون من السهل علي.

تلك الومضة تعني ڤينس.

لقد حرقت فرصك معه جاك. لا أمل حتى لأحدٍ أن يمد لك يد المساعدة.

يسألني: "هل تعرف ما اليوم؟ هو الأول من يونيو."

أهز رأسي.

"هو عيد ميلاد جوون. عيد ميلادها الخمسين. الأول من يونيو 1939. هل تعرف أين هي آمي الآن؟"

"تزور جوون."

يومئ لي، ثم ينظر نحو يديه. "هي لم تقل شيئاً لكني عرفت بم تفكر به. اليوم فرصتي لأكسر القاعدة. خمسون عاماً إما تعني شيئاً أو لا تعني شيئاً على الإطلاق. فرصتي أن أقوم بما لم أقم به قط من قبل. قالت لي، «أنا ذاهبة لزيارة جوون. هو يوم زيارتي المعتاد لكن اليوم مميز، أليس كذلك. لقد اشتريت لها هدية، سواراً.» ما كان من داعٍ لتقول شيئاً آخر، اكتفت بالنظر إليّ. لم تستسلم. لذا أخبرتها "سأرى، سأرى." لقد كلفني كثيرًا، ڤيك، مجرد قولي هذا."

فأقول لنفسي كثيرًا من ماذا؟

"قلت لها ربما سأغلق الدكان مبكراً، ربما، وسألتقي بك هناك. سألتني، «أمتأكّد أنك تدلّ الطريق إلى هناك؟» لم يكن وعداً ما قطعته لها، بل شبه وعد. لكن عندما حان الوقت – قبل نصف ساعة – عرفت أني عاجزٌ عن الذهاب هناك، فلن أتغير الآن، ليس هكذا. خمسون عامًا. جوون تجهل عمرها، أليس كذلك.

جوون تجهل الغرض من السّوار. لذا حينها قلت لنفسي، بيدي أن أتغير، لكن بطريقةٍ أخرى. هي لن تراني قادماً إليها في ذاك المستشفى لكن بإمكاني أن أُعدّ لها خبزاً جيداً، خبزاً يعوّضها.

أقول لنفسي، كان بوسعك أن تتغير بكلتا الطريقتين.

"آمي عنيدة لا تستسلم."

أقول لنفسي، انظُر من يتحدث عن العناد.

"جوون لن تتغير أبداً، لن تتغير. هي ما تزال رضيعة، رضيعة في سن الخمسين، هي لن تتغير أليس كذلك؟ لكن أنا، ربما أستطيع."

لا شيء أقوله لنفسي.

ينظر إليّ ويرى أن لا شيء أقوله لنفسي. يتلفت حوله في المكتب مرة أخرى، الحذر باد عليه، كأنما نسي وهلةً أين هو ونسي أنّ هذا أنا ڤيك تاكر، الحانوتي، وليس راعي الأبرشية.

يومئ برأسه نحو الباب خلف المكتب، ويسألني السؤال المعتاد: "أهناك مقيمون في الغرفة؟"

"مجرّد واحد."

ولي أن أراه يتذكر، يتذكر الوقت الذي قطعت فيه أنا الشارع جرياً إليه. حينها أيضاً كنت وحدي، ينقصني موظفون، وصدف يومها أني استضفت مقيمَين، أحدهما في حاجة ماسة للاهتمام. رجلان بإمكانهما أن يؤديا المهمة. كان يوماً حاراً كذلك. فكرت بجاك على الرصيف المقابل، وقلت لنفسي، ربما الجزار أهلٌ لها. فقلت له: "جاك أتصنع لي معروفاً؟" كان عليّ أن أقوده إلى الخلف، بعيداً عن سمع الزبون، كي أشرح له الوضع. نظر نحوي ثم قال: "لا مشكلة ڤيك." كأني طلبت منه أن يزيح معي قطعة أثاثٍ عن مكانها. مسح يديه بمئزره وسألني: "أتظنني سأحتاجه؟" قطعنا الشارع سوياً نحو دكاني وقبل أن ندخل سألته: "هل أنت متأكد؟" ثم نظر إليّ بحدة: "لقد رأيتُ جثثاً من قبل." فقلت لنفسي أنا رأيت جثثاً كذلك، فحربك لم تكن الحرب الوحيدة. رأيت رؤوساً تغلي في الزيت. قلت له: "أدري، لكن لم

تر جثثاً لنساء." ورغم ذلك لم تهتز فيه شعرة، عينه لم تطرف، كأنَّ امرأة ماتت في عمر الرابعة والسبعين بينما تقطع الشارع ليست بمختلفة عن شريحة كبيرة بعظمها من لحم العجل. فقلت له: "شكراً جاك، ليس بمقدور أيّ شخص أن يفعلها." فرد علي: "في أي وقت فيك، فأنا لست أيَّ شخص."

وحين حضر الابن الأكبر لرؤية أمه، قلت لنفسي، ما كنت لتعرف أن من أعدّ أمك هو الجزّار على الرصيف المقابل.

أظنك تتوقع من الجزار ألا يكون سريع التأثر، تتوقع من رجلٍ مثل جاك ألّا يفقد رباطة جأشه. جاك دودز كان سريع التأثر وفاقداً لرباطة جأشه فقط حيال رؤية ابنته، لحمه ودمه.

أقول له: "واحدٌ فقط. شخصٌ سيأتي لرؤيته بعد قليل."

"إذاً من الأفضل أن أنقلع من هنا."لكنه لا يتحرك. " أظن بوسع رجلٍ أن يتغير في اللحظة الأخيرة."

ينظر إليّ، وأنظر أنا إليه وكأني أحاول معرفة قياساته. أتخيل آمي ذاهبة لرؤية جوون. تماماً مثل حال السيدة كونولي.

"هل أنت متأكد أنك ستخبر آمي؟ أنا الشاهد عليك الآن جاك."

وأقول لنفسي، نعم أنا شاهد. هلّا أخبرتها بما رأيت؟

"سأخبرها." يقولها كأنما ما يزال يملك خدعة أخرى يريني إياها "أو احتفظ بهذا."

ينبش في جيبه ويتناول أوراقًا نقديّة مجعّدة. لا أظنها تزيد عن خمسين جنيهًا.

"محصول اليوم. هاك ضمانين، كلمتي ومالي. الآن ترى أني لا أملك ما يكفي للإبقاء على الدكان."

يدفع بكومة الأوراق النقدية نحوي. لا أرفض أخذها. ثم يقول لي: "هل تعلم فيك، هل تعلم ما أردت مرةً أن أكون؟"

أنظر إليه.

"طبيباً."

هي تجارةٌ شريفة.

راي

قلت له: "أرغب برؤية الأهرامات."

فأجابني: "وأنا أرغب برؤية ما في داخل أقرب بيت دعارة."

كان جاك من أطلق عليّ لقب المحظوظ. لم يرتبط اللقب حتى برهاناتي، الارتباط وقع لاحقاً.

قال لي: "الرجال صغار البنية يملكون الأفضلية، يملكون الحظ، أرجو أن تعي ذلك. فهم أهدافٌ صغيرة في مرمى العدو، وخفيفو الوزن أثناء نقلهم يتلوون من الألم على الحمالة اللعينة. لكن انتبه، أفضليتك لا تقلل من شأن أفضليتي. فبمقدوري أن أطيح بك أرضاً أيَّ وقتٍ أشاء. أرجو أن تعي ذلك."

ثم ابتسم، مد لي يده، قبضها وهلة، ابتسامته عَرَضَت، ثم عاد وبسطها.

"جاك دودز."

"راي جونسون."

"أهلاً راي. أهلاً بالمحظوظ. بالمناسبة كيف أضحيت بهذا الصغر؟ هل انكمشت حين غسلك أحدهم؟"

حديثه معي جاء من باب المراعاة، هكذا أظن. جاء من باب رغبته في طمأنتي، فقد كنت حينها مجنداً جديداً بينما خدم هو في العسكرية ستة أشهر. لم يكن من داعٍ ليسخر مني. لكني أظنه قد قرّر، لسببٍ ما لن أعرفه أبداً، أن يختارني. كل حديثه عن الحظ كان كلاماً فارغاً. لكن ربما إذا قلتَ شيئاً تمعّنتَ فيه وعنيته، فربما ما قلت سيتحول إلى واقع. كذلك الحال مع اختيار الحصان. ما يدفعك ليس الحظ بل الثقة بالنفس. تلك الثقة التي، عدا عن تجليها حصرياً لدى الرهان على حصان، فراي جونسون يحظى فقط بقبسٍ بسيطٍ منها. لكن مع جاك، فقد كنت أنا الحصان وهو من اختارني. وهكذا أصبحت جونسون المحظوظ.

سألني: "من أين أنت؟"

فأجبته: "بيرموندزي."

"حقًّا!"

أظنها الإجابة التي حسمت اختياره.

سألته: "هل تعرف شارع (فاليتّا)؟ هل سمعت بتاجر الخردة فرانك جونسون؟"

وسألني بدوره: "وهل تعرف ملحمة دودز على طريق (سبرينغ)؟ أراهنك أن أمك تشتري اللحم من هناك"

لم أخبره أن لا أمّ لي. فقد يعيد تقييم حظي إن عرف.

قال لي: "أجود أنواع السجق واللحم المفروم تجدها في (بيرموندزي). وبمناسبة الحديث عن اللحم المفروم، فلا أظننا أقل أماناً هنا ممّا لو كنّا هناك."

أخبرني أن عليه ملازمتي لأني محظوظ، لكن في حقيقة الأمر الوضع كان مقلوبًا. هو من كان الضامن لحياتي. فطلقات الرصاص لم تخطئني لأني قصير، بل لأنه هو الضخم، كما الجدار، كما الجلمود. وطلقات الرصاص لا تصيبه ولذلك لا تصيبني، ما عدا تلك المرة. فالرجل القصير في حاجة لمن يتكلم عنه، مثلما حين قال والدي أني أملك الذكاء فالأجدر بي أن أستخدمه. ولم أعرف قط عن امتلاكي الذكاء إلى أن أصرّ والدي على ذلك، إلى أن جعل منها جاك أفضلية لدي. "هذا راي، قوّته هنا في رأسه."

عدا أني عرفت حقّاً مدى قوّتي التي في رأسي حين قرّرتُ ملازمة جاك.

قلت لنفسي، لازِم هذا الرجل وستغدو على ما يرام، لازِم هذا الرجل وستنجو من هذه الحرب.

مرّر لي سيجارة.

"اسمعني راي، دعنا من زيارة الأهرامات." ثم تناول بطاقة مجعّدة من محفظته مخربش عليها عنوان. "صديقٌ لي أعطاني إياها. توصية خاصة."

"ربما بإمكاني..."

"الأهرامات هي أضرحة، أليس كذلك راي؟ الأهرامات هي للموتى. أما المومس فهي صيدة!"

ثم أخرج شيئاً آخر من الجيب الصدري لقميصه، ودفعه على الطاولة نحوي قائلاً: "هو يوم إبهاج قضيبك."

"لا أدري..."

"ما الخطب؟ ألم يقض وقتًا طويلًا منذ رؤيتك لزوجتك؟"

أخبرته أن لا زوجة لدي.

"هكذا إذاً." ثم قال لي وهو ينفث سحابة دخان كبيرة، وكأنما الأمر يعنيه مثلما يعنيه أي شيء آخر في حياته، "أنا لدي". وتناول شيئاً آخر من محفظته وناوله لي. رأيت الصورة وقلت لنفسي أريد صورةً كتلك الصورة، فتاةً كتلك الفتاة.

نظرت إليه ونظر إليّ هو الآخر كأنما لم يلاحظ السؤال وراء نظرتي، أو لاحظ ولم ينوِ الإجابة عليه، ثم قال:

"أرضٌ مختلفة، قوانين مختلفة، إيه؟"

أجبته بينما أمرر له الصورة: "أنت رجلٌ محظوظ."

"لا، المحظوظ هو أنت، أتذكر؟ اشرب."

ثم قادني نحو الضجيج والشمس الساطعة والأجواء النتنة، ولم أخبره أبداً – فأنا لست بهذه الحماقة – «أنا لم أفعلها من قبل – لم أفعلها من قبل.» أقرب ما وصلت إليه هو حين داعبتني ليلي فوستر في ملجأ الغارات الجوية، أيام كانت القذائف الوحيدة التي شهدها الملجأ هي التي تُقذف داخله. دسستُ يدي في سروالها الداخلي كأنما أنقّب داخل حقيبة مليئة بالأغراض المبعثرة، لكنها قالت لي: "لن أسمح لك بالدخول." فقذفت بسرعة على نحو مفاجئ ولوّثت تنورتها، أجزم أنّه من الصعب على الفتاة أن تشرح ما جرى. وهكذا دمّرت أيّ فرصة ثانية لي معها.

لكن وبينما كنا نتحاشى المتسولين قال لي: "أتدري رايزي، سنزور الأهرامات بعد أن ننتهي." لذا أظنه عرف.

وهكذا أصبحت لدينا صورة تجمعنا أنا وجاك، التُقطت بعد ظهيرة ذاك اليوم، كلانا راكبٌ على ظهر الجمل والأهرامات من خلفنا. ولابدّ أن هناك ألف صورة لعينة لجنود في الصحراء القديمة على ظهور الجمال ومن خلفهم الأهرامات، لكن هذه

كانت صورتي أنا وجاك. وركوبي على ظهر ذاك الجمل كان أقرب ما يكون إلى تحقيق حلمي في أن أصبح جوكي[14]. سألني: "هل أنت متأكد؟" وأجبته: "لا تقلق، اعتدت على قيادة حصان عربية والدي." فردّ علي: "لكن هذا ليس بحصان عربة والدك، هذا جمل." وما كنت لتظن أن الجمل، من بين كل الأمور، هو ما سيضايقه. قلت له: " ثق بي." وأجابني هو: "أنا أثق بك، فلا خيار آخر أمامي."

وها نحن، كلانا جالسان على ظهر الجمل داخل الإطار النحاسي على نضد مائدة جاك، بجانب سلطانية الفاكهة. أضحك فيها من كل قلبي. جاك يحاول أن يضحك. أما الجمل فوجهه خال من أي تعبير. وآمي لم تعرف أبداً، ما تزال تجهل حتى اليوم، ما الذي كنا نفعله قبل ساعات من التقاط الصورة. "المرة الثانية التي نمتطي فيها، إيه رايزي؟" أو أن ذاك اليوم هو اليوم الذي رأيت فيه صورتها للمرة الأولى.

قلت: "أليس من المذهل جاك، وجودنا في مصر القديمة؟ مَعلمٌ من معالم الدنيا."

فقال لي: "سترى معالم أخرى."

ورأيت. كلانا رأى. ومن حسن حظنا أننا رأينا، كَوْني موظف تأمين وهو جزار. يبدو مذهلاً لي الآن، كأثرٍ من تاريخٍ قديم، أنني يوماً ما كنت هناك، مع جاك، في الصحراء. أني تقدمت مع جاك من مصر إلى ليبيا، وانسحبتُ معه من ليبيا إلى مصر ثم تقدمت معه مرة أخرى إلى ليبيا. رجلٌ صغير في تاريخٍ عظيم. وفي مكانٍ ما في تلك الصحراء ذاتها، كان ليني تايت يتقدم وينسحب هو الآخر معنا رغم أنّ كلينا لم يعرفه حينها. وميكي دينيس قُتل في (بلحامد) وبيل كينيدي قُتل في (مطروح)، وجاك قال لي أنْ ليس من العدل بمكان أن يحظى فرعون بهرم كامل كضريح بينما قبر بيل بالكاد يضم نصف جسده. ومن هناك إلى طرابلس، لم يُصبنا خدش هناك، أبداً لم يصبنا خدش، ما عدا تلك المرّة. ولم أكن أنا من تعرّض للإصابة بل جاك. الرصاصة اخترقت كتفه اليُسرى، وأكملت طريقها فوق رأسي بشعرة. لكنه دائماً ما يقول لو لم أكن متواجداً هناك لأسحبه عن أكياس الرمل لكانت إصابته

---

(14) جوكي: فارس خيل السّباق. م.

أخطر، لربما انتهى به الحال مثل بيل كنيدي. أو لكان لقي مصيراً أسوأ إن نالت الرصاصة من أعزّ صديقٍ لزوجته.
رأيتها حين كان مستلقياً بعد خروجه من العملية. الندبة الجديدة على بطنه. الندبة القديمة على كتفه.
أترين هذا «ممرضتي الصغيرة؟» اقتربي قليلاً. حصلتُ عليها في شمال أفريقيا. لولا أن صديقي محظوظ لما كنت هنا اليوم.

قال لي: "لك الاختيار الأوّل راي، طالما لن تختار النهدين العارمين ذاتهما على يميننا."
لكن لم يكن سهلاً علي، فأنا لم أر في حياتي خمس نساء سويةً، يتّكئن على الشُّرفة الخشبية، عاريات من أي شيء ما عدا بضعة خرز وريش. كان أشبه بالنظر نحو صفّ من الكعك المحلّى بنثار من سكر. كلهن كنّ يقهقهن.
" كلهن يضحكن، جاك."
"وما الذي تنتظره منهن، أن يبكين؟"
لذا اخترت الأصغر حجماً بينهن. لا داع لأذكر السبب، لكن اتضح لاحقاً أنه الخيار الأفضل. أظنني كنت بحاجة إلى امرأة تريني كيف أفعل ما لم أفعله من قبل، كي أفعله المرة التالية دون مساعدة، امرأة لن تكشف سري لأحد. حتى وإن خمّن جاك أني لم أفعلها من قبل. أراهن أنه عرف.
"خيارٌ موفق راي، على قياسك."
وحين اصطحبتني داخل خيمتها الصغيرة – حيث تحوم خمس عشرة ذبابة وتفوح رائحة غالونٍ من العطر – لم يكمن العائق في الأفعال بقدر ما كمن في الكلمات. فمثلاً حين قالت لي: "تلعقني؟" قالتها بعد أن خلعت عنها كل شيء، دارت حول نفسها، هزّت خصرها، ثم دارت حول نفسها مرة أخرى، هزٌّ في هزٍّ. نصف لساني تدلى من فمي، كأنني في عيادة طبيب، قبل أن يخطر على بالي أنها ربما تقصد «تعانقني؟» ربما تقصد «تعانقني،» أظنني لن أعرف أبداً. أو حين قذفت، سريعاً كأني أبصق، مشكلتي ذاتها مع ليلي فوستر لكن على الأقل دخلت، على الأقل أصبت

الهدف، ثم نهضت عنها لأرحل، ورفعت بنطالي الكاكي، لأني ظننت أني أنجزت مهمتي بسرعة وعذوبة دون إطالة، ثم قالت لي: "عسرُ دقائق متبقية. أُنظُر للسّاعة. ما الذي سيظنه صيقك إن خرجت الآن؟"

وحين عدنا كان جاك من رأيناه ينتظر متكئاً على الشرفة ويدخن، يخبر الفتيات الأخريات اللواتي كن ما زلن يقهقهن عن أمور لم يفهمنها، يماحك جنديين من وحدة الألغام كانا يساومان صاحبة الماخور في الساحة أسفل الشرفة، كأنما بمقدوره أن يمنحهما سعراً أفضل.

يقول لي: "طمّني راي؟ كيف كان الوضع في الداخل؟ مدام يشمك كانت على وشك الصّعود هنا وخلعك عنها."

لكني لم أكن مضطرًّا للإجابة لأن مومسي كانت تقف خلفي وهي من تكلمت عني إذ قالت: "جيد جداً، جيد جداً. رجلٌ صغير، قصيبٌ كبيرا!"

وجاك يردد من وراءها: "قصيب؟ قصيب!" والكل ينفجر ضاحكاً ووجهي يحمر بلون الكاتشاب.

"قصيب؟"جاك يضحك والفتيات يقهقهن وجنديا وحدة الألغام ينظران للأعلى ويضحكان أيضاً، جميعنا في القاهرة، في مصر، في أفريقيا، في عزّ معمعة الحرب.

"حسنٌ رايزي، يبدو لي أنّ كل المزايا اجتمعت فيك."

ومن ضمنها الحظّ.

ڤينس

لذا ضربتها. ضربت سالي تايت.

لأني قلت: "هل تعلمين من أين يأتي الأطفال؟" وهي أجابتني: "لا." فقلت لها: "أنا أعرف." ثم لم أقل شيئاً، وقالت: "حسنٌ أخبرني، أخبرني من أين يأتي الأطفال." لذا قلت: "من الجنجل. الأطفال يأتون من الجنجل." ونظرَت إليّ كأنها على وشك أن تضحك.

"وما الجنجل؟".

أجبتها أني لست متأكداً تماماً ما هي، لكنها من حيث يأتي الأطفال. ولابدّ أن تفعل شيئاً بها، يطلقون عليه، قلع الجنجل.

كانت تنظر إليّ بتلك الضحكة، كأنما تعرف مسبقاً من أين يأتي الأطفال فعلاً. لابدّ أنها أول من أطلق الدعابة. إياك أن تشارك أسرارك مع أحد. مزحة صغيرة فوق المزحة الكبيرة، لكنها لصقت بي. وهكذا بعد أعوامٍ عدّة سيقول لي ليني: "هاك قدح بيرة أخرى ڤينس، اشرب جرعة أخرى من عصير الأطفال."

ولم يكن القصد وراء سؤالي لها، أو إخبارها، هو اهتمامي بالقلع ذاته أو بالجنجل الذي نقلعه، بل «مَن.» سؤالي هو عمّن قلع الجنجل؟

لذا صارحتها بالمغزى وراء سؤالي لها. لم يكن جاك وآمي من قلعا جنجلي، بل قلعا جنجل طفل آخر. إسمها جوون. ما يعني أن ما قاله الأولاد الآخرون، أولئك الذين ضربتهم، هو صحيح. «ڤينسي له أخت.» لكن ليس صحيحاً تماماً، لأن جنجلي قلعاه والدان آخران، هما...

وهنا أخبرتني، أخبرتني أنها تعرف مسبقاً بقصّتي.

لذا ضربتها. لم تكن تسخر وتضحك مني كبقية الأولاد الذين ضربتهم، لكنّي ضربتها كأنها أحدهم.

ولم أتوقف عن ضرب أولئك الأولاد، بل سدّدت ضرباتي عليهم أكثر وبعنف أشد.

لأني أدركت أن ما يقولونه لي هي الحقيقة، ليست الحقيقة تماماً. لأنها لم تكن أختي، «جوون ليست بأختي، أنا لا أخت لي.» ومع أنها في الحقيقة ليست بأختي، لكني سدّدت لهم الضربة تلو الأخرى، كل ضربة أقسى من الأخرى، لأني أضرب من أجلها، أضرب بالنيابة عنها، لأنها عاجزة عن الضرب دفاعاً عن نفسها. فسابقاً، حين لم أعلم بعد بوجود جوون، لم يكن لي أحد أضرب دفاعاً عنه، كنت أضرب لمجرد الضرب.

فكرت أن الضرب هو الشيء الوحيد الذي أملك فعله من أجلها. لأنها حتى وإن لم تكن أختي، فحالي لم يختلف عن حالها. ليس أنَّ رأسي معطوبٌ مثل رأسها كما اعتادوا القول لدى سخريتهم مني، بل لأن كلينا وقع ضحية خدعة. لذا ضربت.

الأولاد أضربهم. ضربت (أليك كلارك)، وضربت (فريدي نيومان). الفتيات لم أضربهن، ما عدا سالي. فلا يحق لك أن تضرب الفتيات، هن مختلفات. لكنهن يعرفن كيف يجرحن، هن لسن بمختلفات. لذا حين تتسلط إحداهن أو اثنتين منهن أو مجموعة كاملة منهن علي، كما يفعل الأولاد معي وأحياناً بألفاظٍ أقسى، ما كنت لأضربهن، بل أرد عليهن، " أرنَا سراويلكن."

آنذاك انضمت سالي، حين بدأت المضايقات تتحول إلى لعبة، حين بدأت الفتيات بالتجمع علي، يثبن ويقفزن ويرقصن الجيغ من حولي، وحينها تشرع سالي بالصياح، «انظر ڤينس، انظر إلى كلّ الجنجل!» محاولةً ثني عن تسديد ضرباتي عليهن.

فقبل تلك اللعبة ظلّت سالي بعيدة عني، لم نتبادل حتى الحديث لأني كنت سأضربها.

لكنها لم ترفع تنورتها بسرعة وتفر من أمامي صارخة ثم تنسل عائدةً لتريني لمحة أخرى. بل قالت: "تعال معي ڤينس." أخذنا نسير بحذر عبر مواقع القصف، عبر الحشائش والقرميد والمخلفات ولم يخطر على بالي مسبقاً ما حقيقة موقع القصف، بالنسبة لي كان مجرد وصف. ثم توقّفَت عن المسير ووقفت تنظر إليّ ثم رفعت تنورتها بيديها الاثنتين، حاشية التنورة تلامس أنفها كأنما تضع خماراً على وجهها. ولم يكن سروالها الداخلي ما أثار اهتمامي، لونه أزرقٌ داكن. بل حقيقة

وقوفها أمامي هكذا رافعةً تنورتها كأنما تطوي مفرش طاولة، على أهبة التفتيش.
لذا قلت لها: "أريني ثقب بولك."
اللعبة أضحت مختلفة تماماً مع سالي.
أجابتني: "لا." لذا قلت: "وإلا سأضربك." فردت علي: "إن أريتني ثقبك."
" لا ثقب لي، أملك قضيباً."
"لكنك تتبول منه أليس كذلك؟" لذا وقفت عاجزاً عن الرد عليها وقالت: "حسنٌ؟"
وجهها كان ممتلئاً وجديًّا. وقلت لنفسي لم تعُد بفتاة، هي الآن امرأة مفعمة بالحياة.
لذا رفعت أحد ساقي بنطالي القصير بسرعة، لمحة لنصف ثانية، لكنها قالت: "مرةً أخرى." كأنما هي المسيطرة في هذه اللعبة. نظرت، ثم وضعت يدها عليه. وضعت يدها وتحسسته، كأنها تتلمس غرضاً تفكر في شرائه، حبة طماطم أو غيرها من الثمر ممّا يبيعه والدها. لا تعصرني قبل أن تملكني.
لذا ضربتها.
كانت الفتاة الوحيدة التي أضرب. ولابدّ أنها أدركت كم هي مميزة. لكن الأولاد أضربهم عشوائياً. ضربت (تيري سبنسر)، ضربت (دايف كروفت). لذا يستدعيني الناظر إلى مكتبه ليلقي عليّ محاضرة. كان يُدعى السيّد سنو واعتاد على التنفس بصعوبة من منخريه كلما غضب لذا أطلقنا عليه لقب المشخر. لا أظن كان من السهل عليه محادثتي، إن كان على علم أني على علم بحقيقتي، وأظنه علم. سألني إن كنت أعرف معنى كلمة «المتنمّر». في تلك السن الصغيرة هناك عديد من الأمور التي تعجز عن إيجاد الكلمة المناسبة لها، لكنّي أجبته، بطريقة أو بأخرى، بعد أن شخر من منخريه، إن كان بإمكانه أن يشرح لي معنى كلمة "يتيم".
تلك كانت إجابة جيدة، بل لي أن أقول إنها الإجابة الأفضل على الإطلاق.
لذا يتكئ للخلف على كرسيه ويشخر ويفتل قلمه. حين دخلتُ على الجرّاح تذكرت سيد سنو. يبدو أن الحياة هي سلسلة وقوف أمام رجال حمقى يودّون رؤيتك متذلّلاً أمامهم.
يقول لي: "ماذا تريد أن تكون، ڤينس؟ ما الذي تنوي أن تكون عليه؟"

أقول لنفسي، يا له من سؤال فارغ، فأنا أصلاً كائن. ينظر إليّ ويفتل قلمه. لكن كيف أجيبه إن كنت أجهل أصلاً من أكون. لذا ألتزم الصمت وأتكدّر ويرى انزعاجي. أصوات اللعب في الساحة تصل المكتب. أريد أن أكون (غاري كوبر) لكن لا أستطيع. أريد أن أكون أي شخص آخر، حتى أني أريد أن أكون السيد سنو وأعرّض ولداً مسكيناً مثل حالي لتأنيبٍ قاسٍ، لكني لا أستطيع فأنا من أنا. وأتخيل أن الوضع هو ذاته بالنسبة إلى جوون. فكل هؤلاء الأشخاص من حولها هم ليسوا جوون، لأنها مختلفة، وإن كانت جوون تفكر على الإطلاق فلا بد أنها قالت لنفسها لا أريد أن أكون أنا، أريد أن أكون مثلهم لكني لا أستطيع لا أستطيع لا أستطيع.

لكن ربما جوون هي حقاً عاجزة عن التفكير مطلقاً، ولا فكرة واحدة تحوم في رأسها، وتخيُّل من تريد أن تكون ليس بالفكرة البسيطة. تخيُّل من تريد أن تكون هو عمود الإدارة في حياتك.

أخبَروني أن قذيفة قتلتهم جميعاً لذا كنت محظوظاً.

يقول لي: "ما أعنيه هو، ما الذي تريد «فعله؟»" ويبتسم كأنه لا يعني جرحي بسؤاله.

"ما المهنة التي تود القيام بها؟"

وأرى كل تلك المهن معلقة أمامي كما الأزياء معلقة على الحامل: سمكري، خياط، جندي. وعليك أن تختار إحدى تلك الأزياء وتدّعي طوال حياتك أن هذا ما أنت عليه فعلاً. لذا في النهاية أظن اختيار المهنة هي من حوادث القدر. كنت أجهل العبارة حينها، لكني عرفتها لاحقاً. هي في محلها.

أظنه يريدني أن أجيبه «جزّارًا»لكني ما كنت لأقولها. ما كنت أبداً لأقولها.

قلت لآمي، «خذيني لرؤيتها، خذيني معك لرؤية جوون.» قمت بأمرٍ "هو" لم يقم به على الإطلاق، حتى وإن قمت به مرةً واحدة فقط. «ڤينسي له أختٌ بشعة، وجهها مقرف مثل البثرة.» وكانت آمي من أخبرتني أنه لم يود إخباري بالحقيقة على الإطلاق، أبداً. ظنّه حقاً أنّ بيده إبقائي مخدوعاً إلى الأبد، يفوق استيعابي. وكانت آمي من أخبرتني أن جوون هي حادثة، حادثة من حوادث القدر. لم تعن أن جوون بذاتها هي الحادثة، بل أنهما لم ينويا أبداً الحمل بها.

إذاً جوون هي حادثتهما وأنا اختيارهما، السمكري، الخياط.

يقول لي: "حسنٌ، كيف ترى نفسك؟"

يتأملني مدركاً أني لا أملك سوى إجابة واحدة على سؤاله. الصفارة تنطلق معلنةً انتهاء الفسحة ويعمّ الهدوء المكتب، لا صوت سوى صوت تنفسه الثقيل. في أوقاتٍ مثل هذه يخطران على بالي، إن كانا فعلا يرياني، فهما ولا بد يرياني الآن.

«لا أحد قبّلها قط، لا أحد اشتاق لها قط.»

ألتزم الصمت، وأظنه أدرك أن ما أود فعله حقّا هو ضربه.

ثم أجيبه: "ما أود فعله سيدي، ما أود حقّاً أن أكون، هو قالع جنجل."

راي

كان صوت آمي لكن ما سمعته، ولو وهلة، كان صوت كارول.

قالت لي: "ليس في يدهم فعل أي شيء له، راي." سمعت الشجاعة في صوتها، ذاتها التي سمعتها في كارول.

أخبرتني أنه لم يفق بعد من العملية، وستريكلاند لن يعلمه بحقيقة وضعه إلا حين يصحو تماماً. لكنه أعلمها وأعلم ڤينس، دون مواربة وبكل وضوح. لم يفعل شيئاً له، شقه فقط ثم أعاد خياطته. وبعدها، بينما كانت تجلس إلى جانب فراشه أفاق وهلة ولم تخبره بشيء وهو لم يسألها لكنه نظر إليها وكل ما قاله: " أريد رؤية محظوظ."

قلت لها: "أتظنينه يعرف؟" وما قصدته هو: هل تظنينه يعرف أنها النهاية؟ لكني خمنت وأظن آمي خمنت الشيء ذاته، إذ كيف لك أن تفسر طلبه بغير هذا التفسير، وربما لهذا طلب رؤيتي، وإلا لأي سبب آخر يستدعي المرضى الناس إلى فراشهم؟ في كل الأحوال كنت مواظباً على زيارته معظم الأيام، لكنه الآن يطلب: أريد رؤية محظوظ. ما تجهله لن يؤذيك، لكن الأمر مختلف حين يرقد أحدهم على فراش الموت، فلا يمكنك القول أنّه كلّما قلّ الكلام الْتأم الجرح أسرع، فما عاد في حياتهم عاجل ولا آجل ولن تحظى بفرصة أخرى لتقرر بين أن تقول لهم الحقيقة أو لا تقول.

ربما هذا ما كانت تفكر به أيضاً لأنها التزمت الصمت وغصّت.

لذا قلت: "لا تظنّينه يعتقد أنّه لأن لقبي محظوظ فإنني...؟"

كان تعليقاً غبياً.

ثم شرعت بالبكاء. كنت أستطيع سماع جلبة الناس في الأروقة.

"هل تريدين... أحداً معك؟"

"لا بأس، أنا هنا مع ڤينس وماندي. سيبيتان الليلة معي."

"سآتي غداً في الصباح الباكر، لحظة فتح الباب للزيارة."
ثم قالت لي: "وداعاً راي."، كأنما كانت تنوي الذهاب في رحلة طويلة، كأني لن أراها مجدداً، لن أرى آمي التي أعرفها. لكنه جاك من يغادرنا، وليست آمي، وهنا تحول صوتها إلى صوت كارول.

«أنا أعني ما أقول راي، لن أعود أبداً إليك، هل تسمعني؟ لن أعود أبداً.»
لم تقو على قولها في وجهي.
ضغطت بالسماعة على أذني كأني عاجزٌ عن سماعها بوضوح وتذكرت حين اتصلت سو للمرة الأولى من (سيدني) وانحنيت بظهري على الهاتف كأنما هذا ما عليك أن تفعل حين يَرِدُك اتّصال من الجانب الآخر من العالم، ومع ذلك بدا لي صوت سو وكأنها تعيش نهاية الشارع. قلت لها: "صوتك يبدو لي وكأنك تسكنين نهاية الشارع عزيزتي." والآن كارول من بدا صوتها لي وكأنها الجانب الآخر من العالم، لكني عرفت من أين يرد اتصالها.
ليس من (سيدني)، بل (سيدنهام).
"لم أملك الشجاعة لأواجهك لكني أقولها لك الآن."
كان بإمكاني رؤية وجهها، كان بإمكاني رؤيته والسماعة على أذنها، تحاول قول كلماتها الأخيرة لي. وما أزال أراه.
" أنا معه راي، أنا معه الآن ولن أعود إليك. وداعاً راي."
لم أقل لها، «وداعاً كارول». وداعاً سيدة جونسون. لم أمنحها الرضا، ولم أجلب لنفسي العار. هذا كل ما استطعت فعله لأرد اعتباري، هذا الانتصار الرخيص، أني لم أودعها أبداً. وضعت السماعة على الهاتف. وجلست في صمت، بينما المساء على وشك أن ينسدل في الخارج، وقلت لنفسي لن أذهب إلى «العربة»، لا أقوى على الذهاب إلى «العربة». لم أقو على تخيلها مع رجل آخر، حتى مع معرفتي بوجودها مع رجل آخر. باري ستوكس. تخيلي لها هو سخيف سخافة تخيّلي مع... لكن طالما رغبت برجل آخر لكانت اختارت قوّادًا ثريًّا، أو قوّاداً مهندماً، أو قوّاداً بارعاً

بين الشراشف، إن كان هذا ما تريد. عوضاً عن المدير الفرعي في مركز بيع المعدات المنزلية حيث عملت بدوام جزئي.

لو كنت رجلاً آخر لما اكتفيت فقط بالجلوس في العتمة، غير آبه حتى بإنارة الضوء، كأني، إن بقيت جالساً بثبات على هذه الحالة، كلّي سيتلاشى. رجل آخر كان سيركل خزانة أو خزانتين، أو كان سيرمي بكل ما على رف الموقد من توافه ويطيح بها على الأرض بضربة واحدة من ذراعه. رجلٌ آخر لكان ارتدى معطفه واتجه مباشرة إلى حيث هي وكسر الباب عليهما إن اقتضى الأمر ومن ثم شجّ رأسه.

لكني لست برجلٍ آخر. أنا الرجل الضئيل.

أولاً ابنتي هجرتني إلى (سيدني) وانقطعت رسائلها عني، والآن زوجتي تفر مني. ويدعوني الناس بالمحظوظ.

قلت لنفسي، لا أظن قتالك في معركة العلَمَين سيساعدك بشيء.

رجلٌ آخر كان سيتصرف بشكلٍ آخر. لكن كل ما فعلته هو الجلوس في العتمة، دون حراك، لم أتزحزح حتى قيد أنملة، ثم لم أعد جالساً، بل متكوراً حول نفسي بكامل ملابسي والساعة كانت السادسة صباحاً. ثم نهضت واغتسلت وحلقت ذقني وبدلت ملابسي ووضعت شريحتَي توست في المشواة وأعددت الشاي كأن لا شيء يشغل بالي. غسلت الصحون الموجودة في الحوض. تفحصت محفظتي ووضعت بعض الأغراض في كيس. توجهت بعدها إلى ساحة الخردة، حيث كان الإسطبل القديم قبل أن يحوله تشارلي ديكسون إلى مخزن. في طريقي اشتريت مجلة (سبورتنغ لايف) وعشرون عدداً من مجلة (بلايرز) وقلت لنفسي أنا حيّ في صباح هذا الأربعاء. كنا في أواخر إبريل. قدت عربة التخييم خارجاً ومسحت الغبار عن نافذتها الأمامية بينما المحرك ما يزال يعمل. تفحصت الإطارات وكنت على وشك تفحص المحرك لكن قلت، لِمَ أزعج نفسي فأنا بالكاد قدتها؟ تحققت من سلامة الاسطوانة ومشاعل الغاز، كذلك تحققت من حامل الماء ومن وجود صندوق الرحلات وما في داخله من إبريق وأكواب ومنشفة شاي وغيره من عتاد. «الدّليل إلى معالم مميّزة في إنجلترا وويلز.» قدت العربة خارج البوابة، توقفت، خرجت منها

وأغلقت البوابة. «تشاز ديكسون، إخلاء مواقع البناء» وأحكمت عليها المزلاجين والقفل. كان صباحاً مشمساً وصافياً. ثم عدت وقفزت داخل العربة وقدت في اتجاه (نيوماركت).

ڤينس

وعرباتٌ غرامية.

إن رغبت بالمضاجعة، فعليك أن تقتني سيارة.

قلت لها: " انقلعي للداخل، ماند."

اعتدت على اصطحابها بالسيارة على طول طريق (A20) القديم، أو على طريق (سيڤين أوكس) أو على الطريق حيث نمضي الآن. ثم نعود أدراجنا في مكانٍ ما قبل (روتشستر). قرية (بادجر ماونت)، قرية (شورهام ڤالي) وحلبة (براندز هاتش) لسباق السيارات وكل تلك المعالم في (كِنْت). لكني لم أصطحبها قط إلى أبعد من تلك النقطة، لم أصطحبها على طريق الذكريات. كان بوسعي أن أتوقف، كما فعل جاك وأقول هنا حيث... لكن ما كان من داعٍ لاصطحابها في رحلة غموضٍ كتلك، لأني أخبرتها بالحقيقة مباشرة يوم تضاجعنا للمرة الأولى في مؤخرة عربة راي، أخبرتها القصة كاملةً، الخدعة الكاملة لجاك وآمي. عن جوون وكل ما سواها.

قالت: "إذاً آمي وجاك استقبلاك في بيتهما، تماماً كما استقبلاني. كانا طيبين معك كما هما طيبان معي." كأنها قررت تولّي الدفاع عنهما.

فقلت: " أنا لم أسألهما معروفاً أبداً."

كنا متشابهين، ماندي وأنا، معجونين من نفس الطينة.

في تلك الأيام كانت الطريق سالكة نحو الريف، تقود بسرعة دون أن تعاني من أزمة سير خانقة، وهكذا كنت أضرب عصفورين بحجر. أمتحن أداء السيارة بعد عملي اليدوي في تجديدها وأكتشف بنفسي إن تحسن أداؤها بشكل كبير على يديّ أم لا. من ثم يمتحن كلانا عمله اليدوي على جسد الآخر. في تلك الأيام عاشرنا عديدًا من المقاعد الخلفية.

بالتأكيد كان بوسعنا أن نغادر السيارة ونمشي ونبسط البساط على رقعة عشبٍ دافئ في مكانٍ ما ونفعلها كما الأرانب تفعلها. وأحياناً فعلناها هكذا. لكن هناك

أوقات لم يكن العشب فيها جافاً ولا النسيم دافئاً وأظنها التقطت سريعاً متعتي بالمضاجعة داخل السيارات، بالفعل تلك كانت متعتي. مقعد أسود جلدي قديم وممزق هو المفضل عندي على الإطلاق. أعشق المضاجعة في حيز ضيق ومحشور وعلى عجل، كأنما تلك هي الطريقة المفترض بها أن تضاجع طالما لا سقف يؤويك، وأظنها الأسلوب المفضل لديها كذلك، إذ لم يتطلب إقناعها سوى غمزة، إيماءة، وإذ بساقيها تلتفان حول عنقي. سألتها: "أمتأكدة أنك لم تفعليها في سيارة من قبل؟" فأجابتني: "لا أحد من أصحابي في (بلاكبرن) امتلك سيارة." فسألتها: "أصحاب؟ ما قصدك؟ لكن لا بد أنك فعلتها في مكانٍ ما." فقالت: "وكيف خمنت؟"

كانت تمتطي قضيبي، ثم ترفع ذراعيها إلى أن تلامس كفاها سقف عربة التخييم، والذي كان عالياً بما فيه الكفاية، وتدفع.

أدري أنها ليست بالحياة التي تصورتها، لكن سرعان ما يتأقلم الناس، سرعان ما يتكيف الناس. يرمون جانباً أحلامهم الوردية. أدري أنها رأت نفسها تغرق في ملذات الحياة في (سوينغينغ لندن[15]) أياً كان ذاك المكان، أو رأت نفسها تجول بالسيارة في أنحاء لندن تمارس الحب بدل العنف مع حمقى طويلي الشعر ومثارون جنسياً. لكن ما حصل أن جاك وآمي التقطاها عن الشوارع في ليلتها الأولى في لندن دون سؤال، كأنما فرت من أمها وأبيها لترتمي في أحضان أم وأب آخرين. ولم تنكر فضلهما عليها، ومع وضع كل شيء في الاعتبار، هي لم يخب أملها. قلت لها، لقد فعلاها من قبل، أتدرين، منذ زمن بعيد. رميت الحقيقة مباشرة في وجهها، «لأنّ من المفترض أن تلعبي دور الأخت التي لم أحظ بها.» وكان بيدها أن تهرب مرة أخرى، لو كانت ذكية، لو أرادت، لكنها لم تفعل.

وبدلاً عن الحياة التي أملت بها، اقتنعت بي: ڤينس دودز، ابن القذيفة الساقطة، القادم تواً من مؤخرة الصحراء العربية. يستلقي تحت السيارات معظم الوقت، وفي الوقت المتبقي يستلقي فوقها.

---

(15) Swinging London: مصطلح يشير إلى الثورة الثقافية الشبابية التي عمّت لندن منتصف الستينات. م.

أخبرتها أني هربت. فررت بحياتي إلى الجيش. معظم الناس يفرون من الجيش لكني فررت نحوه. لأني رفضت أن أكون ابن جزار، فقط لأرضيه.

سألتني: "ولماذا عدت إذاً؟"

أجبتها أن الوضع مختلف الآن، فقد تمكنت من تدبير أموري بفضل عمّي راي، وبفضل وحدة الهندسة والميكانيكا الملكية. وإن ظنّ جاك أني سأتخلص من اللهو بالسيارات وسأضع مئزري الأبيض، فسيصدم بما يراه.

سألتني: "إن كنت تكرهه لهذه الدرجة فما الذي يمنعك من مغادرة بيته؟"

"لكني غادرت حلوتي، ألا ترين؟ أنتِ من انتقل إلى بيته."

"أقصد بشكل دائم."

أخبرتها سأفعل لكن خطوة خطوة، عليّ أن آخذ وقتي. أؤسس تجارتي أولاً، من ثم أؤمن بيتاً لي.

" تجارتك؟"

"نعم."

اعتادت على لعق وشومي كأنّما ستمحوها عن جسدي.

"ومتى ما أمنت بيتك الخاص، أسيكون مكانٌ لي لديك؟"

"ربما، إن طلبتِ مني بلطف، لكن للوقت الحالي العربة تفي بالغرض."

عربة التخييم، جاءت تماماً في وقتها.

من الطينة نفسها، أنا وهي، حتى وإن لم نبد كذلك. هي كانت في الثامنة عشر وأنا في الثالثة والعشرين. أظنني بدوت لها أحياناً وكأني أنتمي إلى شلة شباب أخرى، شبابٍ أكبر في العمر، بدوت وكأني خالها اللعين. اعتادت أن تلح علي بين الفينة والأخرى، "تغيّر"، "واكب العصر"، "ثُر على العادات". فها هو روي أوربسون[16] فعلها كلها ولم يزل شاباً. أخبرتها أني تغيرت منذ زمن طويل، أني بالفعل ثرت، ألم أفعل؟ تحولت إلى شخصٍ آخر، ألم أفعل؟ أما «واكبت العصر»؟ أتظنيني منفصلاً عن العصر؟

(16) Ray Orbison مغني أمريكي اشتهر في الستينات، وصاحب أغنية Blue Bayou. م.

ألا تدرين أني سرت على درب الهيبي كل الطريق إلى عدن. هل وقعت عيناك من قبل على رجل قُطعت رأسه؟

أخذت تنظر إليّ، عيناها تطرفان.

العالم كان على وشك التغيّر، كنت أرى ذلك. فأنا لست بمغيب عمّا يجري حولي. لكني قلت لها: "سأخبرك بما هو التغيير الأكبر، التغيير الذي جعل التغيّر ممكناً. ليس (البيتلز) ولا (الرولينغ ستونز) ولا الشعور الطويلة ولا التنانير القصيرة ولا الحليب المجاني ولا موانع الحمل الموزعة لدى الصحة الوطنية. بل الحركة، التنقل من مكانٍ إلى آخر. فها أنتِ، كيف وصلت هنا من (بلاكبرن)؟ كيف تمكنت من رمي والديك خلفك؟ في وقتٍ مضى، الخيار الوحيد للتنقل كان عبر الانخراط في الجيش، ولم يكن كل مكان جدير بعناء رؤيته، خذي بكلامي. لكن انظري حولك، الكل يتنقل، الكل يغادر من مكان ويرحل إلى مكان. هل تعين ما أقول؟ عشر أعوام من الآن (البيتلز) و(الرولنغ ستونز) سيضحوان موسيقى من الماضي، لكن ما سيبقى الجميع يرغب به هي السيارة. السيارات. سيارات أكثر وأكثر. وأنا من سيبيعها لهم، سيجدون ڤينس دودز يبيعها لهم. أنا في التجارة الصحيحة، تجارة التنقل. لذا لا تعظيني عن المواكبة.

نظرت إليّ وشعرتُ بها تحسب حساباتها هي الأخرى في عقلها.

" معك حق، حبيبي."

قالتها وهي تلف نهايات خصل شعرها وتمصها، كأنها تلميذة.

قلت لها: "لولا هتلر لما تزحزح جاك قيد أنملة عن دكان أبيه. لكن يوماً ما سيأتي زاحفاً إليّ، انتظري وسترين."

" طبعاً سيفعل، حبي."

كنا ننطلق مسرعين على الطريق عبر الضواحي، كأنّما سطونا على مصرف، ونحن الآن فارّون من العدالة.

Just runnin' scared! Du-du-du-dum[17]

وبعد بلدة (سوانلي) كان هناك على جانب الطريق موقع تجمّع للسيّارات حيث

يوجد مقهى متنقل يقدمون فيه اللحم المقدّد والشاي المخمر ولا أدري إن كانوا يتوقعون منك مزج الشاي بمقياس العمق. السيارات منطلقة والهواء المندفع يسحب معه بخار الشاي من كوبينا ويبعثر شعرها الطويل. في خيالي سأراها دائماً واقفة على جانب الطريق. بعدها كنا نجد لأنفسنا موقفاً خاصاً لركن سيارتنا بعيداً عن الأعين. وأشعر بالسيارة كأنها تشاركنا متعتنا. نتضاجع بجنون داخلها. نتزلق عن مقاعدها الخلفية، وبعد أن ننتهي نمسح عنها عرقنا وغيره. ثم نغادرها ونمضي بالمسير في الغابات، عبر الحقول، نستمع إلى تغريد الطيور، نتنسم الهواء العليل، نتأمل المنظر الجميل. ثم قلت لنفسي، لم لا أثير إعجابها، كونها أتت من (بلاكبرن)، أظنها ستعجب بما سأقول، كونه صادرٌ عني أنا، فقلت:

" أتدرين أنهم يطلقون على (كِنت) لقب جنة إنجلترا؟"

(17) من أغنية: Running Scared للمغني الأمريكي Roy Orbison (1962). ترجمتها إلى اللغة العربية هي التالي: نفر مذعورين! م.

(روتشستر)

وصلنا بداية طريق (M2) لكن ڤينس بقيَ على طريق (A2) سالكاً الطريق إلى (روتشستر) عبر (ستروود). نقطع (ميدواي) عبر جسر الطريق القديم، جانب جسر السكة الحديد. ونفاجأ بالمنظر المذهل للنهر الواسع أمامنا، كأنها إطلالة على العالم غابت عن ذاكرتك أمداً طويلاً، كأنك نسيت وجودها من الأساس. القوارب، المراطم، المراسي والضفاف الموحلة.

يخبرنا ڤيك: "المد مرتفع." وينظر نحو ساعته. "وكذلك سيرتفع على شاطئ (مارغايت)."

ويعقب عليه ليني: "أظنه خبرٌ جيد، يعني، لمهمتنا."

بإمكانك رؤية القلعة والكاتدرائية، قممها مستدقة نحو السماء، بارزة أمامنا كأنها مجسمات أعدها أحدهم خصيصاً لاستقبالنا.

يسألنا ڤينس: "حسنٌ إذاً، أيعرف أحدكم حانة جيدة في (روتشستر)؟"

وڤيك يجيبه: "لا، لكن فيما مضى قصدت بعض الحانات في (تشاثام)."

رجل بحرية.

فيقول ڤينس: "درب الذكريات، إيه ڤيك؟"

الطقس يتقلب، والغيوم تتلبد.

نتجاوز المخرج على الطريق الرئيسي ثم نعود إلى الخلف، وإذ بنا نتوه في الشوارع الفرعية ذات الاتجاه الواحد. أخيراً ننسل نحو موقف سيارات أسفل تل القلعة.

ليني متهكماً: "لم أدرك أننا في رحلة لرؤية المعالم." ويقول ڤينس: "الجميع خارجاً."

يخلع عنه نظارته الشمسية ويربت على شعره. أحمل العلبة حتى يتناول سترته ويلتف نحونا ويمد ذراعه. ينظر نحو ليني كأنما يتوقع منه أن يناوله إيّاها لكنه لا يفعل، ثم أعود وأضع العلبة على المقعد. ثم نغادر السيارة جميعاً ونتمدّد ونرتدي معاطفنا وقفازاتنا. يداهمنا البرد القارس بعد الوقت الذي قضيناه في السيارة.

القلعة تبدو ناتئة وذابلة تحت أشعة الشمس. يفتح ڤينس صندوق السيارة ويُخرج منه معطفه. وَبَر الجمل.

علينا أن نبدأ بالمسير لكننا نثبت في مكاننا، نتسكع حول السيارة، نحدق في بعضنا كما الخراف.

أقول لهم: "لا يبدو من الصواب تركه هكذا على المقعد الخلفي، أليس كذلك؟"

فيجيب ليني: "وأين تظن علينا تركه، في صندوق السيارة؟"

"أعني لا يبدو لي صائباً أن نغادر المكان ونتركه وحيداً خلفنا."

يهز ليني كتفيه استخفافاً بما قلت.

ڤيك يلتزم الصمت، كأنما لم يعد يعنيه مصير العلبة، لم تعد الكلمة كلمته، بعد أن سلمني البضاعة. يخطف نظرة حادة نحوي، يسوي قبعته، ثم يرفع رأسه ويخزر الغيوم في السماء.

يوافقني ڤينس: "أنت محق راي، سنصطحبه معنا."

ينحني ڤينس داخل السيارة ويرفع العلبة. هي المرة الأولى التي يمسكها. يدسها تحت ذراعه بينما يقفل السيارة، ثم يقف منتصباً ويحضنها إلى صدره. وبما أنه يحملها الآن، وبما أنه يقف أمامنا مرتدياً ذاك المعطف والعلبة بين ذراعيه، كأنما أصبح هو القائد، كأنما نال شارة السلطة. ڤيك من كان القائد لكنه التزم الحياد في الوقت ذاته، لكن الآن ڤينس هو القائد.

يقول لنا: "هيا يا رجال، الحقوا بي." كأنما يقود دورية من جنود البحرية، ويتقدم المسير بخطىً عسكرية عبر موقف السيارات. وألمح ليني يدير وجهه كأنما على وشك أن يبصق.

نصل شارع البلدة الرئيسي، لكنه ليس بكبير ومزدحم مثل الشارع الرئيسي في بلدتك. الشارع الذي وصلناه ضيق وهادئ وملتوٍ وتاريخي ويزخر بالمباني القديمة المائلة. هناك أناس يسيرون على مهل أعلى وأسفل الشارع، يسيرون دون هدف كما يسير السوّاح. يبدو كما الشارع الرئيسي الذي نراه في كتاب مصوّر، كأنما ليس من المفترض أن تتواجد هنا، أن تسير عليه، أو كأنما ليس من المفترض بالشارع أن

يظل موجوداً من الأساس مع أزمة السير المتحزمة حوله على مخرج الطريق السريع (A2). عدا أنّ الشارع من جاء أولاً.

هناك بقالة فاخرة مقابلنا، متجر روتشستر للأطعمة، إحدى البقالات التي تبيع أنواع شايٍ غريبة وعلب بسكويتٍ أنيقة، وفجأةً يدخل ڤينس البقالة بسرعة، تاركاً إيّانا واقفين في الخارج. ثم يغادرها حاملاً معه كيس بلاستيك. يدسّ العلبة داخل الكيس، لكن من الواضح أن غرضاً آخر موجودٌ في الداخل. "ماندي أبلغتني أن القهوة نفدت لدينا." نتلفت يميناً ويساراً، ومرة أخرى ينطلق ڤينس أمامنا بسرعة كأنما لا يطيق التعامل مع حيرتنا. أمامنا لوحة مكتوب عليها (Bull Hotel) ويتجه مباشرةً نحوه، كأنما خطط مسبقاً لاصطحابنا إليه: "هلم أيها السادة، سيَفِي المكان بالغرض." الفندق القديم كبير ومزدحم، يضم مطعم شواء ولحومًا طازجة كما يضم مشربًا يُقدّم مقبّلات. أرى ڤينس يفكر ملياً في اصطحابنا إلى مطعم الشواء ودعوتنا على مائدة باذخة كي يجعلنا نشعر وكأننا ندين له. لكنه يتراجع بخطاه على الرصيف ويقنع باصطحابنا إلى المشرَب. من مدخل الفندق لك أن ترى الجسر فوق النهر. شارع البلدة الرئيسي ينحدر للأسفل نحو النهر ويغطس فيه متوارياً أمام الطريق السريع، وإن أغلقت عينيك وفتحتهما مرة أخرى لك أن تتخيل كيف لحوذي فيما مضى أن قاد عربة المسافرين أعلى شارع البلدة الرئيسي، عربته تصلصل على الحصى وينعطف بها داخل ساحة الفندق، والقلعة تطل على المشهد من الخلف تماماً مثل صور بطاقات معايدة الكريسماس.

هو (نُزُل عرباتٍ) قديم، ديكوراته مبالغ فيها بشكل قبيح، لكني لا ألقي أيّ نكتة عنه. الجو في الداخل دافئ ومضيء وتعلو فيه الثرثرة. بالكاد تجاوزنا عتبة المشرَب وإذ بڤينس يقول: "سأطلب لنا، هاك راي." ويناولني كيس المشتريات. "اجلسوا على تلك الطاولة هناك. أقداح بيرة للجميع وكأس ويسكي لك، ڤيك؟"

يسحب محفظته من جيبه ويسير نحو المشرَب كأنما الجميع هنا يعرف من هو ڤينس دودز.

هناك ساقية ترتدي بلوزةً بيضاء وأحمر شفاه بلون الكرز.

نتجه نحو الطاولة. يصلنا صوت ڤينس، "هل من أطباق جيدة لديكم عزيزتي؟" ليست بعادته أن يطلب بلطف لكن ربما قصد أن نسمعه. يميل برأسه نحوها، "بصحبتي ثلاث رجالٍ هرمين عليّ رعايتهم، وآخر معهم لن يأكل." الساقية تنظر نحونا، محتارة، ثم تعود وتنظر نحو ڤينس، كأنها ليست متأكدة إن كان عليها أن تبتسم أم لا. لا أرى وجه ڤينس لكني أدري كيف ينظر إليها، تلك النظرة المميزة التي تعلو وجهه، يعرف أنه قد يبدو سخيفاً بعض الشيء لكنه يتحداها أن تتعامل معه على هذا الأساس.

تماماً مثل تلك المرة حين قال لي: "أنت مهتمٌ بعقد صفقة بشأن السّاحة؟"

تمدّ يدها نحو قوائم الطعام، وجنتاها تتوردان، وبوسعي سماع ڤينس يقول لنفسه، «نهدان جميلان.»

نبدأ باحتساء مشروباتنا، ثم طلبنا المقبلات. ويطلب لنا ڤيك جولة شراب أخرى. بعدها يصلنا الطعام: طبق نقانق كبيرة مع الفاصولياء والبطاطا لي وليني، طبق ستيك مع بطاطا لڤينس، وكيش لڤيك. كان الأجدر بڤيك أن يتناول اللحم، اليوم بالذات. تحمل لنا الساقية الأطباق وتمط ظهرها أعلى الطاولة فيقول ڤينس: "تبدو شهية، عزيزتي." وجهه في إبطها، ولا أحد منا ينطق بكلمة. على وجنتها تنسدل خصلةٌ شقراء كأنها منسدلة عمداً وبغير عمد. نتناول طعامنا ونحتسي شرابنا ثم نشعل أنا وليني سجائرنا ويطلب ليني جولة شراب أخرى ونشعر كأننا زبائن قدامى لدى فندق (روتشستر) ولطالما عرفنا جيداً، وكلنا يراودنا الإحساس ذاته، أنّ من المؤسف ألا نتمكن من قضاء الوقت هنا نتخلّل على مهل، جالسين في سلام مع العالم، من المؤسف اضطرارنا إلى أداء واجبنا نحو جاك واصطحابه إلى (مارغايت). فجاك ما كان ليمانع، بل لكانت تلك رغبته، أن نتلذذ بالشراب ونترنح سكارى على حسابه. «امضوا بحياتكم أصحابي، لا تقلقوا علي.» لو كان معنا الآن لشجعنا وانضم إلينا. «انسوا الرماد، شباب.» عدا أنه لو كان بيننا حقّا لما كانت هناك مشكلة، ولما كان هناك من واجب. لما كان هناك من رماد. ولما كنا هنا أصلاً، في منتصف رحلتنا على طريق (دوڤر).

"يحز في قلبي أن جاك ليس بيننا." يقولها ليني وكأن جاك هو من خطط لحضورنا لكنّ أمراً طارئاً وقع له ومنعه عن المجيء.

فيوافقه ڤينس: "كان سيستمتع بالأجواء."

وأقول: "ما كان عليه أن يغادرنا بسرعة." فقد غمرني الحنين.

ويرد ليني: "من الحماقة أنه فعل."

ڤيك يلوذ بالصمت.

ويعاود ليني: "فعلا يحز في القلب."

كأنما إن تابعنا الحديث على هذا المنوال فسيدخل جاك حقاً عبر الباب، في أي ثانية الآن، يفك أزرار معطفه. «لقد خدعتكم أيها الحمقى!»

ثم يقول ڤيك، بعد أن وجدنا ننساق وراء نكران الحقيقة، فوجد لزاماً عليه أن يعيدنا بلطف إلى الواقع: "لو كان هنا، لما كنا هنا، أليس كذلك؟ لأنه ما عاد هنا نحن هنا!"

فيعقب ليني: "سواءٌ لديّ."

أما ڤينس فيظل على كلمته: "كان سيستمتع بالأجواء."

ويرمق ليني ڤينس.

"لولاه لما كنّا هنا،" يقول ڤينس وكأنما علق بكلماته، وكلنا نبدو مثله، كأن كل ما نقوله يحمل معنيين، ظاهرًا وباطنًا.

فأقول: " عليّ أن أتبوّل."

لكن لم أنهض فقط لأتبوّل. أجد حمام الرجال وأفتح السحاب، ثم أشعر بعينيّ تلذعان وتصمغان، وها أنا أسرّب السوائل من أسفل وأعلى. الحمام بارد ورطب وتفوح منه رائحة نفاذة. هناك ماكينتان لبيع الواقيات الذكرية، إحداهما مكتوب عليها (جلودوم) والأخرى (فروت كوكتيل). «هو يوم إبهاج قضيبك.» هناك نافذة يعلوها الجليد بنافذة رُبعيّة نصف مفتوحة لذا أختلس النظر عبرها فألمح نزراً من حائط، نزراً من سقف، نزراً من شجرة، ونزراً من سماء، والتي لم تعد زرقاء. ولسببٍ ما أفكر بكل تلك المباول التي تبولت عليها، البورسلان، الفولاذ المقاوم

للصدأ، والاسمنت المطلي بالقطران، في الحانات ومواقف السيارات وساحات الأسواق على مدّ الريف، حيثما هناك مضمار سباق أراهن فيه. وفيها كلها تجد نافذة يعلوها الجليد، بنافذة ربعيّة مفتوحة، بإطلالة على خلفيّة مكان ما، ساحات المنازل، الأزقة، كأنها ثقبٌ صغير تختلس عبره النظر نحو الحياة. بلدات مضامير سباق الخيل. حين تقف وتتبول، في تلك اللحظة تدرك كم أنت سكران. كأس أو كأسين يمنحانك الجرأة على الرهان. كأسٌ أو ثلاثة كؤوس تشوش حكمك. كلما أصابني الأرق أستعرض في خيالي لائحة مضامير السباق التي حضرتها في حياتي، بالترتيب الأبجدي، وتتجلّى أمامي خارطة إنجلترا وطرقها المتقاطعة: آسكوت* برايتون* تشيلتنهام* دونكاستر* إبسوم.

أستجمع نفسي وأغلق السحاب. يسيل أنفي فأمسح وجهي بكم قميصي. زبونٌ آخر يدخل الحمام، رجلٌ شاب، لكني لا أظنه لاحظ حالتي، وإن لاحظ فلا أظنه سيكترث. فكبار السن تدمع أعينهم. أراه يسحب قضيبه كما يفعل الشباب، كأنها أداة عالية الكفاءة.

حسنٌ، هنا وكفى، اكتفيتُ من البكاء كأني أتبول من عينيّ. فليس من صالحك أن تجد نفسك مضطراً فجأة للبكاء، على الأخص حين تشارك آخرين السيارة في رحلة على الطريق.

لكن وبينما أعود إلى البار وأراهم مجتمعين إلى الطاولة، والساقية تجمع الكؤوس من أمامهم، بمؤخرتها الرائعة، وأرى كل أثاث غرَفة الحانات: المشاجب النحاس، الصور المعلقة على الجدار، كلّها لحانةٍ لم أدخلها من قبل ولن أدخلها أبداً مرة ثانيةً، أشعر وكأني أنظر إليهم لكني لست معهم. كأن الرماد ليس برماد جاك لكنه رمادي أنا، أطل عليهم من الحياة الأخرى وأستمع إلى أحاديثهم عني. هايدوك* كيمبتون. كأني لست هنا لكن كل ما أراه ما يزال موجوداً، ماضٍ في طريقه من دوني، وكل ما سيبقى هو المشهد، المكان الذي تعبره، حمولة عربة بعد حمولة عربة تمرُّ على نُزُل العربات. نيوبيري* بونتيرفراكت.

أسألهم: "جولةٌ أخرى؟"

ڤيك ينظر إليّ، يبدو كأنما يتأمل حالي.

ويرد ڤينس رافعاً كف يده بجدية: "لا شراب لي رايزي، ليس إن أردت استبدالي بسائقٍ آخر. اطلب لي فنجان قهوة ونصف قدح من بيرة كورونا."

ينظر ليني نحو ڤينس كأنما سيرفع له تحية ساخرة: "أما أنا فاطلب لي بوظة (نيكيرباكر جلوري)."

هي دائماً الكأس الثالثة التي تُسكر ليني.

أطلب الشراب وأوصل أقداح البيرة لأصحابها وكأس الويسكي لڤيك.

فيقول ڤيك: "خيراً فعلت آمي أنها لم تحضر معنا، ما كانت لتخطط للسُّكر هنا."

ويرد ليني محتداً: "أهذا كأس ويسكي أم شاي الذي تشربه ڤيكي؟" يتجرع ليني البيرة ويكمل: "جاك ما كان لينزعج من أي أحدٍ فينا، على أي حال ما عادت تفرق معه."

فيقول ڤينس: "وما الذي لن يفرق معه؟"

فيرد ليني: "أظنه كان سيقدر وجود الست حَرَمه معنا وتحملها مسؤولية تنفيذ طلبه."

فأقول له محاولاً تهدئته: "لقد قضي الأمر، ها نحن ننفذه نيابةً عنها."

الكل ينظر نحوي كأنما يتوقع مني إلقاء خطاب.

أتجرع البيرة من قدحي.

الساقية تناول ڤينس فنجان القهوة، يرفع عينيه ويقول لها مبتسماً: "كبار السن هم الأسوأ، ألا توافقيني جميلتي؟"

"المسألة ليست في «النيابة»." يواصل ليني غاضباً: "«النيابة»لا تنطبق هنا، هناك واجبات عليك أن تؤديها بنفسك، وإلا فما الفائدة، انظر من حولك، لا أحد منّا من دَمِه، لا أحد منّا مِن أقاربه، حتى ڤينسي هنا ليس من أقاربه." ويرمق ڤينس بنظرة رجُلٍ لو لم يكن سكراناً لما نظر إليه. ڤينس يُشعل سيجاره. "حتى الصبي الكبير هنا ليس من دمه، ألست محقاً؟ صاحبنا ڤينسي لا يملك أي أفضلية علينا، صححني إن كنت مخطئاً، إيه ڤينسي، خصوصاً، إن سألتني، فأنت لم تحمل في قلبك أي حب

له، عدت إليه فقط في أيامه الأخيرة، وحتى حينذاك لم تحمل له أي حب في قلبك، بموته لم تفقد شخصاً عزيزاً." وجهُ ليني محتقن إلى درجة ضاعت فيها كل ملامحه. ينفث ڤينس دخان سيجاره. لا ينظر نحو ليني. يصب الحليب من تلك العبوة الصغيرة في قهوته ثم يمزق كيس السكر وينثر ما فيه، على مهل وحذر، بكامل تركيزه، وبيده الأخرى يمزج القهوة. بدا وكأنه لا ينوي الحديث مع أي منا مرة أخرى.

ليني يفتح فمه كأنما ما يزال في جعبته الكثير ليقوله، لكن حلقه يغص بشيء ما. "علي أن أتبوّل." ينهض فجأة وينظر من حوله كأنما أصابه الدوار. أشير له بإبهامي في اتجاه الحمام.

ويقول ڤيك: "كنت أتساءل..."

ثق بقدرة ڤيك على لعب دوره في فرض السلام.

يترنح ليني في طريقه نحو الحمام، وأتساءل إن كان سينتحب هناك هو الآخر.

يهز ڤينس كيس السكر مع أنه فارغ، ثم يجعده. يرفع عينيه. "وما الذي تتساءل عنه، ڤيك؟" يبتسم بهدوء وأدب، ويرتشف قهوته.

"طالما نحن هنا، و(تشاثام) لا تبعد عنا كثيراً، كنت أتساءل لو بإمكاننا المرور عليها وزيارة النصب التذكاري، فأنا ولا مرة..."

ينظر ڤينس نحو ڤيك. يرفع حاجبيه قليلاً، ينفث الدخان عن سيجاره. ملامح ڤيك جدية ورصينة. هكذا هو ڤيك، يستحيل عليك قراءته.

فيجيبه ڤينس: " لا أرى ما المانع، هل تمانع رايزي؟" يحادثنا كأنه على رأس اجتماع في مجلس إدارة. يختلس نظرة سريعة نحوي ثم نحو ڤيك. كأنما نسي تماماً ليني. ثم يقول:" كأنك ورفاقك في البحرية لم تحظوا بما يكفيكم من نصب." يبتسم، وسرعان ما يمحي الابتسامة عن وجهه، فلا يوجد ما يستدعي الابتسام. "هذا السبب وراء حضورنا، أليس كذلك، لنتذكر الموتى."

"لكننا سننحرف عن مسارنا." يقول ڤيك.

ينفث ڤينس الدخان بينما يفكر بالأمر:

" لدينا مجال."

يعود ليني من الحمام. وجهه يبدو وكأنه دخل في ملاكمة مع نفسه، كأنما يجهل أي تعبير عليه أن يتقمص.

"الدور علي الآن، الطلب نفسه؟ ڤيك؟ راي؟ ڤينس؟ قهوة أخرى؟ أتود شيئاً آخر تتناوله معها؟"

على ليني أن يبذل جهداً أكبر.

يرمق ڤينس ليني بنظرة سريعة لكنه لا يقول شيئاً. ينفث الدخان عن سيجاره، عيناه تضيقان، ثم يتناول عقب السيجار من فمه قبل أن ينتهي منه ويسحقه في المنفضة. ويقول: "لا أدري عنك ليني، لكني هنا لأنقل غرضاً إلى (مارغايت)، هذا ما اجتمعنا من أجله اليوم، وصاحبنا ڤيك يود خطف زيارة صغيرة على الطريق، والتي لا مانع لدي عليها. فنحن هنا لنتذكر الموتى." ينظر نحو ساعته ثم يتابع: "الساعة الثانية والربع، إن أردت قضاء فترة ما بعد الظهيرة هنا في السكر،" – وفجأة يجول بنظره حول الطاولة كأنما ثلاثتنا مشتركون في مؤامرة ضده، ليس ليني وحسب – "فهذا شأنك. لكني سأنهض الآن وأتوجه للسيارة وأقود مباشرة إلى (مارغايت)، فإن لم ترغب بمرافقتنا أنصحك بالسؤال عن مكان المحطة."

يحتسي الرشفة الأخيرة من القهوة. ثم ينهض على مهل ويرتدي معطفه، يسوّي المعطف على كتفيه، ويشد طية الصدر والياقة. ثم يسير خارجاً، دون أن يلتفت للوراء، الباب يتأرجح من خلفه. حين كان ڤينس مجرد فتىً، (غاري كوبر) كان بطله. نجلس ثلاثتنا دون حراك ننظر نحو بعضنا، ومن الواضح أن لا خيار آخر أمامنا. ڤيك ينهض أوّلاً، ثم أنا.

ليني ما يزال على مقعده، يشتمه همساً: "الوغد ".

ويقول له ڤيك: "لا تحكم عليه."

وإذ بنا نلاحظ كيس البلاستيك «متجر روتشستر للأطعمة» ملقىً على المقعد، وإذ بشرارة جديدة تشتعل في وجه ليني، هناك نظرة جديدة في عينيه. يلتقط الكيس ويمسك بمعطفه. هو أول من يصل الباب، لكنه يقف لحظة أمامه، ينتظر، كأنما خطر على باله أنّ ڤينس سيعود إلى الداخل اللحظة. ثم يدفع

الباب بقوة ونحن نتبعه.

يسير ڤينس عائداً على الطريق ذاته الذي سلكناه. شارع البلدة الرئيسي يبدو كما الشوارع على صور البطاقات. لا يلتفت نحونا، كذلك لا يبدو حريصاً على الوصول بسرعة إلى السيارة. نسير خلفه، ليني يعدو نحوه حاملاً الكيس.

"هيه يا ولد!"

ڤينس لا يلتفت للوراء، يسرع في خطاه لكن قدميه تتعثران كأنّ ساقيه مربوطتان بوتد.

"أيها الصبي الكبير!" ليني يعدو نحوه بأقصى سرعته، ما كنت لتظنه قادراً على العدو بذاك الشكل. "لقد نسيت شيئاً أليس كذلك؟ لقد نسيت غرضاً مهماً!"

وإذ بكتفيْ ڤينس تغوصان ثم ترتفعان بسرعة، ورغم مواصلته السير يبدو وكأن ساقيه ما عادتا تحملانه، كأنهما موثوقتان بنهاية حبل يمنعهما عن الحراك قدماً. لا يلتفت حوله، كأنما عنقه علق في مكانه. يلحق به ليني ويدير ڤينس رأسه على مهل للوراء كأن أحداً آخر هو من يلف له عنقه.

"نسيت هذا إيه؟ نسيت قهوتك. ربما تظن أنّه بإمكانك أداء مهمتك دوننا، لكنك ستبدو أحمقاً لعيناً إن قطعت كل الطريق إلى (مارغايت) دون هذا."

راي

يقول لها: "لولا صديق عمري محظوظ."

هي تلك الممرضة ذات الشعر الأسود، الشهية بينهن، الممرضة كيلي. جاءت لتبدل له المحلول. تحمل عبوة الجلوكوز كأنها تحمل كرة في يدها أثناء اللعب وستقذفها. هاك، أمسكها. في عينيها بريقُ من اعتاد تجاهل التعليقات.

يعود ويرفع ملاءة السرير على كتفه حيث النّدبة القديمة التي أراها إيّاها توًّا، ويقول: "لم أعرّفك على صديقي محظوظ، هل فعلت؟"

تبتسم ابتسامة خاطفة نحوي.

"نلقّبه محظوظ، لكن اسمه الحقيقي راي، راي جونسون."

"أهلاً راي، أهلاً محظوظ، لقد رأيتك هنا من قبل."

"هل سمعت راي؟ وراي، هذه جوي. جوي كيلي."

كأننا ضيفان في بيته.

"جوي[18]، إسمٌ على مسمى."

تبتسم. كأنها ليست المرة المئة التي تسمع فيها التعليق من قبل.

"أنا ورايزي هنا نعود إلى أيام الركوب على الحمير، نُطفَتك لم تكن قد خُلقت بعد. حاربنا (رومل). وصاحبنا محظوظ أنقذ حياتي، أكثر من مرة."

أقول لها: "ليس صحيحاً، الحقيقة هي عكس ما قال."

لكنه يصر: "أدين بحياتي لمحظوظ."

تمد ذراعها للأعلى لتبدّل المحلول.

"ندعوه محظوظًا لأنه يجلب الحظ لمن حوله، وكذلك في حال أردت الرهان على الخيل، فهو الرجل المناسب لك."

تُعلّق عبوّة المحلول الجديدة.

---

(18) جوي – Joy: وتعني سعادة أو فرح. م.

"مثلاً، أنا وصاحبي راي راهنّا عليك، أن الجوارب النايلون التي تغطي ساقيك الجميلتين هي جوارب قصيرة، وليست طويلة."

تعبث أناملها بالعبوة دون أن تقول شيئاً، لكن بعد تثبيتها ترد: "سأكشف لك بسرٍّ إن أخبرتك."

فيقول:"ليس السرّ ما تخيّلتك تكشفين لي..."

"كيف وسائدك؟ هل أنت مرتاحٌ عليها؟"

تنحني فوقه لتعدل الوسائد ويقول لها: "أجزم أنك تتعرضين للتلميحات، أثناء عملك في هذا المكان." كأنما لم يلمّح لها هو نفسه توًّا.

"الفتاة منّا تُدرك متى لا تكون في أمان."

"والرجل منّا يدرك متى لا يعود يشكّل خطراً." ويرفع ذراعه المحقون فيها الأنابيب مستسلماً لها. "لكن ليس مع راي، ستكونين على ما يرام معه، فراي محظوظ. وهو ليس بمرتبط بزوجة كحالي أنا." يرفع ذراعه مرة أخرى. "جوي وراي، اسمان يليقان ببعضهما، راي وجوي[19]."

تستقيم وتعدل من هندامها.

"نعم هو رجلٌ ضئيل لكن..."

"أمورك كلها على ما يرام، سأحمل الوعاء."

هو وعاء بوله، داكنٌ ودامٍ.

"هل رأيت راي؟ كل مهمتها جمع قناني البول."

"سأراك لاحقاً." وبينما تغادرنا تلتفت للوراء وتمنحني ابتسامة خاطفة.

فيقول لي: "أظنّك نلت إعجابها، نلت إعجابها رايزي، رتّبتُ أمورك مرّة، وها أنا أرتبها لك مرة أخرى."

(19) راي – Ray: وتعني: الشّعاع أو البصيص. م.

(تشاثام)

يتذمّر ليني لاهثاً: "لم يقل لنا أنّه على قمّةِ تلّ لَعين."

لا لم يقل، ولم يقل لنا أنه يجهل موقعه أصلاً. كلما نقف لنسأل عن الإرشادات، الكل يكتفي بالإشارة إلى الأعلى، ها هو هناك، على قمة التل، انظر، نعم ها هو، لن تتوه عنه، النصب البحري، البرج الأبيض. يرتفع منتصباً مثل المنارة حتى يراه الجميع، لكن بدلاً عن المشعل ستجد كرةً خضراء أعلاه، هو معلم من معالم المنطقة. عدا أنَّ لا أحد منهم يدلنا على الطريق، ولا نجد أي لوحات إرشادية. أليس مضحكاً؟ نصبٌ تذكاري ولا أحد يذكر الطريق إليه.

تتحرك بنا السيارة ببطء في بلدة (تشاثام) من جهة، وعند أحواض بناء السفن على الجهة الأخرى، التل منتصب في الوسط بينهما، وڤينس يغلي، وأصلاً كان يغلي منذ ركبنا السيارة بسبب ليني. وها هو يحاول أقصى جهده ألا يشتاط غضباً على ڤيك، أن يجسد روح الصبر أمام ڤيك تعويضاً عن تذمر ليني الذي يقول: "إذاً لم يعلموك شيئاً عن الملاحة في البحرية، إيه ڤيك؟" وها هو ڤيك يجلس كرّةً أخرى على المقعد الأمامي لأن الرحلة إلى هنا كانت فكرته، فكرته هو وحده، ويبدو كأنما قد ندم على اقتراحها. لكني أعتقدها حيلة مقصودة منه: استراتيجية إلهاء، دع اللوم يقع عليه الآن، دع الغضب ينصب عليه بدلاً عن تبادله بين ڤينس وليني. عدا أنّ ڤينس يغلي مثل قدر ضغط. أظن ڤيك أخذ على عاتقه التضحية بنفسه، دور الشهيد يليق به، وعلى أي حال أجزم أن له رفاقاً أسماؤهم محفورة على النصب لأنهم قدموا أنفسهم قرباناً، هكذا اعتادوا أن يقولوا، لذا ليس من العدل أن ننكر عليهم تخليد تضحيتهم على نصب والوقوف احتراماً لهم. هذا إن وصلنا إليه.

أخيراً نعثر على موقف سيارات على منتصف الطريق أعلى التل، على الجهة المقابلة من مبنى البلدية. ورغم وقوعه على الجهة المقابلة من مبنى البلدية، فكأنما البلدة تقف حدودها عند هذه النقطة ومنها ندخل في البرية. كأن (تشاثام) لا تتعدى كونها

مخيماً على طرف الغابة. لا نرى أمامنا سوى مسارٍ موحل يقطع غابة مهجورة، ويفترض بهذا المسار أن يؤدي إلى النصب، عدا أنك لن ترى النصب خلف كل تلك الأشجار الكثيفة، ولن ترى لوحات إرشادية، ولا شيء.

الأفضلية الوحيدة لوجود الأشجار ومنظر الغابة الموحش الذي يوحي أن أحداً لن يدخلها إلا إن نوى شراً، ومع كل البيرة التي تجرعناها والقلق العصبي الذي أصابنا من التوهان حول (تشاثام) فأنا وليني سننفجر إن لم نتبول، أن المكان مناسب. لذا ولحظة ابتعادنا عن مرأى الناس في موقف السيارات ننطلق نحو المسار المهجور ونستغله خير استغلال.

"لم يقل لنا على قمة تلّ لعين." يتبول ليني ويلهث في الوقت ذاته، "وأدري أنّ الرحلة هي لخاطر جاك، لكن أحداً لم يخبرني أن اليوم هو يوم الذكرى الوطني."

فأرد عليه: "لن يصعب الأمرعلى ڤيك. لكن أنا وأنت، سيتطلب منا الأمر جهداً إضافياً، أليس كذلك، لاحترام ذكرى رفقائنا؟"

"لست متأكداً، فالأمور لا تسير بشكل جيد."

يتنفس ليني بصعوبة رغم أننا لم نمش مسافة طويلة. وجهه محمرٌ مثل مربى الفراولة. ڤيك يقترب منا، يسير وحده بوقار، كأنما يسعى لإظهار احترامه منذ الآن. ولا أظنه ارتاح لرؤيتي أنا وليني نتبول على المسار المؤدي للنصب. هذه ميزة الويسكي على البيرة. يستدير ڤيك ويواصل السير بثبات، لكن بإمكانك رؤيته يلهث هو الآخر، وڤينس يتقدمه بأشواط، يسير على سرعته دون أن يكلف نفسه عناء الالتفات للوراء، كأنما هو قائد السرية ولن ينتظر مجموعة جنودٍ مصابين للحاق به، فكل ما يسعى إليه هو بلوغ القمة بأسرع وقت والانتهاء من الأمر.

هو من يحمل الكيس «متجر روتشستر للأطعمة،» لكنه رمى بالقهوة.

براعم الأزهار تتفتح على أغصان الشجر، أشعة الشمس تنساب عبر الأغصان.

وليني يدندن متهكماً: "أبحري على الموج فرقاطتنا البحرية اللعينة[20]"

---

(20) النص الأصلي لدندنة ليني هي التالي: Wavy Navy. Frigging frigates يستهزئ فيها من أغنية فلكلورية للبحرية الكندية Roll Along Wavy Navy. م.

نمضي قدماً والمسار تزداد وعورته، ومن حيث نسير يمكن لنا رؤية نهايته على حدود الطرف الآخر من الغابة، ولا نرى سوى سهلٍ من العشب الطويل، شاحبٍ وبارد، وشجيرة هزيلة هنا وهناك ترتجف على وقع الريح. ولا نرى أي نصب أمامنا. نرى ڤينس يقف ويجول بنظره حول المكان، يده على خصره كأنما يتأمل منظراً طبيعياً. معطفه تصفقه الريح. ڤيك يقترب من ڤينس. وڤينس يقول له شيئاً، لكن لا نسمع ما يقول. ثم ينظر ڤينس للأسفل اتجاهنا كأنما مستمتعٌ برؤيتنا نعاني.

يتوقف ليني، يسعل ويبصق. ينظر للأعلى اتجاه ڤينس. "ألا ينوي الاستسلام؟" نتعثر في طريقنا، ثم يتوقف ليني مرة أخرى، الصوت من رئتيه يبدو مثل كير الحداد. ينحني واضعاً يديه على ركبتيه. وتوقعته يقول لي، «واصل المسير دوني رايزي. هيا اذهب.» ألمح على طرف فمه ما يشبه الرغوة. وأقول لنفسي لن ينفع ليني أن يموت قبل أن نودع جاك الوداع الأخير. لن ينفع أياً منا. وأنا بدوري لست بأفضل حال.

لكنه يرفع ظهره تدريجياً وعلى مهل. يضع يده على كتفي ويتكئ. ڤينس ينظر نحونا. ثم يكزني بلطف بمفاصل أصابعه على ظهري: "النصر التام أو الموت الزؤام، إيه رايزي؟" وكأنه قرأ أفكاري.

نتابع المسير بصمت، لا ننطق بكلمة، فنفسنا بالكاد يكفينا. نخرج من بين الأشجار وفجأة يتجلى لنا النصب، كأنما كان ينتظرنا طوال تلك المدة، يتوقع حضورنا، ينتصب أبيضاً عالياً مقابل السماء، قاعدته مخفية وراء حافة المنحدر. هناك كلمة تصفه. وأدنى القمة نرى المنظر ينبسط أمامنا، حيث التل ينحدر للأسفل. (تشاثام) تعانق (روتشستر)، انحناءة النهر وطيور الكركي تقف منتصبة فيه، والكاتدرائية تبدو مثل طير عجوزٍ وكبير يجثم على العش. ولك أن ترى كيف لأي بلدة أن تقوم حيث هي، بين طيات وادٍ على جانب النهر، على جانب جسر، ولك أن ترى النهر كيف يتلوى وينحني بين التلال. لك أن ترى وميض السيارات والبيوت. الشمس يشع ضياؤها من أسفل ضفاف الغيوم وتشرق على مد العشب الشاحب

ومع أننا ما نزال نتسلق، فقد دخلنا منطقةً صافية لطيفة ونقية. كأنما برج النصب يجذبنا نحوه. «المسلّة»، تلك هي الكلمة، المسلة. الشمس تشع بضيائها عليه. النصب أبيضٌ وعالٍ. يبدو وكأنما يطفو في السماء دون وتد، لأن قاعدته مخفية عن عينيك، فتشعر متى ما اقتربت بأنه قد يطفو إلى مكانٍ آخر. وحتى هنا لا لوحات إرشادية تدلك عليه، فقط أمواجٌ من العشب القاس تتلاعب به الريح، وطريقٌ وعر، ولا أحد هنا سوانا. كأنما نصبوه عالياً ثم نسوه. ڤينس يتقدمنا ويقترب منه، وڤيك يلحق به. كأنما لم يتعمدوا بناءه، ولم نتعمد نحن المجيء هنا، لكن ها نحن وإياه مجتمعون سويةً على قمة هذا التل. كأنما نسعى للحفاظ على ما تبقى من كرامتنا. نعم، هو هذا، جهدٌ عظيمٌ عالٍ للحفاظ على كرامتنا.

فيك

«... وها نحن نودِع أجسادهم أعماق البحر[21]»

يرتدُّ على عقبيه، يعوي ويهسّ، الجليد المتراكم على سطح مقدم السفينة يغطيها مثل طبقةٍ من حلوى (المارزبان)[22]، رأسها يغطس ويعلو، فكأنما لا حاجة لك بعدوٌ يطلق عليك القذائف والطوربيدات، إذ يكفيك البحر عدواً لك. أو حين ينبسط واسعاً عظيماً هادئاً في ليلةٍ صافية القمر فيها مضيء، والسفن منتشرة على سطحه مثل سرب بطٍّ على سطح بحيرة. توابيت طافية. أيهما أسوأ: بحرٌ هادئ أم بحرٌ غاضب؟ أو ما كنت لتراه، فقط تشعر به عبر تأرجح واهتزازات الحديد. أنت انضممت للبحرية كي ترى البحر، لكن كل ما تراه هو أحشاء السفينة التي تصيبك بالدوار، وما تستنشقه ليس بنسيم البحر المالح العليل، بل الرائحة المغثة لبطن السفينة، تفوح منها رائحة الوقود وأطباق الخبيص واعتذار الطاهي الأخير والصوف الرطب لمعاطفنا وأقنعتنا ومخدر الإثير والرّم والكورديت[23] والقيء، فكأنك هناك، حيث قد تكون، في أي لحظة، وللأبد، في الأحشاء المضطربة لليم العظيم.

انحنى فوقي وأدركت تمنّيه أن أكون نائماً لكن عينيّ كانتا مفتوحتين فقلت له: "جدّي مات، أليس كذلك؟" لأني عرفت. وجنته كانت باردة من رطوبة نسيم الليل وشعره كان رطباً لكن على ملابسه ما تزال عالقة رائحة المستشفى، رائحة جدي. لم تختلف رائحته عن الرائحة المعتادة، رائحة جلود الأموات على جلده. ولظننت بما أنها مهنة والدي اليومية وكانت مهنة جدي كذلك، لما كان سيعني الأمر كثيراً إذا جاء الدور على جدي.

أجابني: "نعم، جدك مات." كنت أعلم برغبته في تأجيل نقل الخبر إليّ حتى

---

(21) مقتبس عن كتاب الصلوات The Book of Common Prayer، فصل: طقوس دفن الموتى The Order for The Burial of The Dead. م.

(22) حلوى من مسحوق اللوز والسكر وزلال البيض. م.

(23) متفجّر لا دُخان له يُصنع على شكل حبال. م.

الصباح. ليتني ادّعيت النوم، من أجله. الآن سيغادرني عالماً أنه سيتركني أواجه وحيداً عتمة الليل، في هذه الغرفة الغريبة، حيث رذاذ المطر يضرب بالنافذة، بعد أن علمت بوفاة جدي. لكني أردته أن يعرف أني على قدر المسؤولية، وسأتحمل. مثلما فعلت حين أخبرني عن عمله. هو يضع الناس في صناديق، لأن هؤلاء الناس قد ماتوا. لكننا لا نتكلم عن الناس هنا، الليلة نتكلم عن جدي.

سألته: "هل ستغطي جدي بنفسك؟"

"بالطبع."

ثم مال نحوي وقال: "تصبح على خير، استودعتك الرب."

قطرات المطر كانت تدق على النافذة مثل الإبر، والريح تهسهس. لا بد أنها كانت تمطر حين مات جدي، فقد كانت تمطر طوال اليوم. لكني لا أظنه عرف، ولا أظن الطقس في الخارج عنى له شيئاً، حيث كان يرقد. إن كان مشرقاً أم ماطراً، بارداً أم دافئاً. أو إن كان بوسعك رؤية البحر، والذي بوسعك رؤيته إذا ما ذهبت إلى النافذة الكبيرة نهاية الجناح، فتراه مشرقاً وأملساً، مجعداً ورمادياً. وإن لم يكن بوسع جدي.

لهذا السبب قدموا إلى هنا، جدي وجدتي، كي يكونا على جانب البحر، في بلدة (بيكسهيل) على البحر. المكان الذي يذهب إليه الناس متى ما...[24]

في ليلةٍ كهذه تفكر بكل هؤلاء الناس في عرض البحر، وكيف أنك ترقد دافئاً وآمناً في فراشك، بينما الناس في عرض البحر يتمنون الدفء والأمان. لكن جدي ليس بوسعه أن يفكر هكذا، ليس بعد الآن.

كان بوسعي سماع حديثهم في الأسفل، لا أسمع الكلمات، فقط الأصوات. لاحقاً حين استيقظت في الليل كان بوسعي سماع يقظتهم. لم أسمع أصواتاً، فقط الريح والمطر، لكني سمعت يقظتهم. سمعت يقظتنا، كيف أنَّ كل واحد منا مستلق على فراشه لكنه يقظ، كلنا في هذا البيت المظلم الذي تتلاطمه الريح، كأنما كل واحد

---

(24) إبان الحرب العالمية الثانية أضحت بلدة (بيكسهيل - Bexhill) ملاذاً لأهالي لندن بعد عملية الإجلاء الكبيرة التي جرت على وقع القصف الألماني الكثيف للعاصمة. م.

منّا أضحى حاله من حال جدي حين كان مستلقياً في ذاك الجناح الغريب مع كل أولئك الرجال من حوله، لكنه كان وحيداً، مثلما كل رجل معه كان وحيداً كذلك، كأنما كلنا مجتمعون سويةً في هذا البيت لكن في الواقع نحن وحيدون، كل واحد منا مستلقٍ في فراشه، متدثرٌ بلحافه مثلما سنتدثر يوماً ما وإلى الأبد.

نحن عائلة (تاكر)، نرتب أمور الأموات. هذه هي مهنتنا. نحن من يدثرهم.

الوظيفة المدنية: مساعد حانوتي.

وانتشر الخبر بسرعة، كما النار في الهشيم، كما ينتشر أي شيء في السفينة. «إخخ، لقد انضم أحمقٌ إلينا، أصبح لدينا حانوتي على متن السفينة.» تماماً مثلما انتشر في ساحة المدرسة، «نحن نعرف ما يفعل والدك.» لكن أيام المدرسة لم أكن قد لمست حتى جثة واحدة، ولم أكن في البحر، ولا في الحرب. لا تناوِب مع تاكر، تحاشى الوجود معه في فرقة الإطفاء إن استطعت. كأنما بيدك التلاعب بالقدر.

أردت القول إني أعرف الموت وإن على بُعد، أعرف جيداً ما تخشونه. لا أعرف كثيرًا عن السفن والإشارات وقواعد الملاحة، لا أعرف أكثر مما تعلمته في شهرين كمتطوع للبحرية في (تشاثام). لكني أعرف عن الموت وأعرف عن الأموات وأعرف أن البحر يحيطنا من جميع الجهات. حتى ونحن على اليابسة، نحن محاطون بالبحر، حتى هنا على قمة هذا التل أعلى (تشاثام) حيث بوسعي قراءة الأسماء. كلّنا نقف في المرسى في انتظار السفينة تحملنا إلى الموت.

توابيت طافية.

لذا حين تعرضت (لوثيان) للقصف، القذيفة أصابتها في المقدمة، وكنت أنا هناك على رأس الفرقة، لكن بعثوا بي بعد الضربة الأولى لأحضر خراطيم أكثر وإذ بالقذيفة الثانية تضرب وتقتل (ديمبسي) و(ريتشاردز) و(ستون) و(ماكلود)، عرفتُ أنّ ألم النجاة أقسى من أيّ ألم آخر. لاحظ! لم يكن تاكر. بل (ديمبسي) و(ريتشاردز)، وليس تاكر. كأن بيدك التلاعب بالقدر.

أخبرني أنه لن يجبرني عليها. فهي حياتي ومن حقي أن أختار. ليس لأنها مهنة والدي وجدي من قبل، وليس لأنها تحمل اسم عائلتنا. لكن على الأقل دع قراري يبنى على

معرفة وخبرة، وليس بناء على مخاوف غيرمنطقية. لذا وافقته، إذ رأيته امتحاناً لي. فأراني ما يفعل وشرح لي كل شيء، وأدركت فعلاً أنّ لا شيء يثير الخوف، لا شيء لنخاف منه. في واقع الأمر هي تبعث فيك الهدوء، تبعث فيك الثقة. كنت في الرابعة عشر حينها، كلانا في الدار. ثلاثتنا. لذا لاحقاً قلت له: "حسنٌ سأفعلها." حياةٌ أنت مقدّرٌ لها، وأضحت مقدرةً لك. ومع الوقت سيفوت الأوان على ملاحقة أي خيارات أخرى تخطر على بالك، مثل الهروب إلى البحر.

قالوا لي، هاك مهمة تلائمك، مهمة أنت مؤهل لها، مهمة لا أحد آخر سيتطوع للقيام بها. الرجال في البحر تطاردهم خرافاتٌ حمقاء، مثل الحوريات ووحوش البحر وأنّ هذه السفينة ستكون نهايتهم. لذا حين أوقفنا المحركات، على بُعد أربع أيام من آيسلندا، لانتشال الناجين، الكل أخذ يقول لنفسه، ها هي مهمّة لتاكر، وتاكر سينشغل بها. لكن لم نتعنّى التقاطهم عن البحر وهم يسعلون نفسهم الأخير، ما تبقى من روحهم المتجمدة، إن كنّا سنحشد أجسادهم على متن السفينة فقط لنلقِ بها مرة أخرى في عرض البحر؟ من البحر يبعثون وإلى البحر يعودون، وبالكاد يتموج البحر الرمادي على وقع ارتطامهم به. تاكر سيعتني بهم، فهذا ما خُلق لأجله. وبعد فترة إذ بي أحظى باحترامهم واعتبارهم. عليك ألّا تحكم على أحد، عليك ألّا تحمل ضغينة في قلبك على أحد. حتى أنّ تطيّرهم منّي انقلب إلى تفاؤل بي: احرص أن تظلّ على يمين تاكر، احرص على المناوبة معه. نعم، سألعب دور بُعبُع السفينة، فلا بد لأحد أن يفعل. تاكر هنا، فلا تخشَ شيئاً. تاكر على وزن...[25] اسمه الأول، فيكتور[26]، فألٌ جيّدٌ في الحرب. تاكر سيتولى المهمة. تاكر سيحرص على تنفيذها. هو تقليدٌ من تقاليد البحرية، الاستفادة من مهن البحّارة على اليابسة: النجار والجراح وصانع الحبال. وللبحرية أيضاً تقاليدها الخاصة في التخلص من الموتى. من البحر يبعثون. طيّةٌ من قماش القنّب، ثقّالة من رصاص، وغُرزةٌ أخيرة فقط من باب التقليد والاحتياط، أُغلق بها أنف المسكين التعس والمرح (جاك تار).

---

(25) Tucker rhymes with f***er.

(26) فيكتور- Victor: المنتصر.

راي

لا أظن ڤيك سيخبرنا أيّ الأسماء تعنيه، سيظل واقفاً هكذا يتأملها بصمت.

المسلّة نصبوها في الوسط، كرسوها للأعوام «14 – 18»[27]، وهناك سورٌ حجريّ أبيضٌ عالٍ على مدار نصف دائرةٍ كبيرة وبوابةٌ حديدية في المنتصف من حيث دخلنا نحن، والأسماء مدونة على الجدار الداخلي للسور، على كامل المنحنى، قائمة تلو قائمة ابتداءً من عام 39[28]، وكأنها قوائم أسماء الخيول المشاركة في السّباق. هنك ضباط وملازمون وطلاب بحرية وضباط صف وملاحون متمرسون وعاديون، وحتى أولادٌ صغار. كذلك هناك الوقادون وعمال الإشارة والطهاة وعمال التلغراف ومهندسو المحركات والعاملون في العنبر الطبي، وكأن عالماً بأكمله موجودٌ على متن السفينة.

ولا يمكنك معرفة أي شيء بالنظر إلى تلك القوائم، فلا احتمالات الرهان ولا قيم السعر الابتدائي مذكورة. يمكنك أن تلقي نظرة سريعة على بطاقات الرهان، متى ما اعتدت عليها، وتحسب الاحتمالات في ذهنك، ستدرك أن الاحتمالات هي في صالح وكيل المراهنات والزبون هو من سيخسر. مثلما شركات التأمين تقوم بحساباتها وتعرف أنها على المدى الطويل لن تخسر، بغض النظر عن الحظ السيء الذي سيصيب المسكين صاحب التأمين. فدائماً هناك الرهان الذي يدفعك للتفكير في أن الحظ سيحالفك، ودائماً هناك المعادلة الرياضية الأشمل التي تدفعك للتفكير بضرورة ادخار مالك والاحتفاظ برسوم التأمين الأساسية التي تدفعها على ما هي. قرارك يعتمد على موقفك.

لكن من الصعوبة بمكان معرفة موقفك إن لم يكن هناك من احتمالات، إن عجزت عن رؤية المعادلة الرياضية الأشمل. وكل ما سيمكنك معرفته من قراءة

---

(27) أعوام الحرب العالمية الأولى.

(28) 1939 عام اندلاع الحرب العالمية الثانية.

الأسماء على تلك القوائم المصفوفة، بغض النظر عن كونها محفورة بالبرونز على سورٍ أبيض فوق قمة تل من خلف مسلة منتصبة أمامها، أن الرجل ما هو إلا اسم. اسمٌ يعني صاحبه ويرتبط به في ذهنه وذهن كل من يتعامل معه، على مدار حياته كإنسان، لكن بعد ذلك، فالاسم لا يعني شيئاً. لا يعني ذرّة تراب مقارنةً بكل ما سيعيش عمراً أطول مثل الجيش والبحرية وشركات التأمين وشركة مكاتب الرهانات، فكلها ستواصل الحياة من بعدك، وحياتك بأكملها لن تعدو نقطةً في محيط. موقفٌ منطقيّ واحدٌ فقط لك أن تأخذه، متى ما وقفت تقرأ قوائم الأسماء، حكمةٌ واحدة فقط، حكمة أدركتها قبلاً لدى مقتل ميكي دينيس وبيل كينيدي: "ليس أنا، لم يكن أنا، وأبداً لن يكون أنا." وهناك درسٌ واحد لك أن تتعلمه، مبهجٌ وغير مبهج، أن ما تعيشه ليس بحياة، يسمونها حياة، لكنها في الواقع محاولة للنجاة.

لكني أظن سأتعلم الدرس، وسأحولها من نجاةٍ إلى حياة، سأرمي المعادلة الرياضية الأشمل خلفي وأراهن. عش قليلاً وستحيا مرةً أخرى. سأذهب لرؤية أحفادي، إن كان لدي أحفاد، الأحفاد الذين سيحملون اسمي. سأفعلها في السنوات المتبقية لي في هذه الحياة.

بإمكاني رؤية العالم. الذهاب إلى بانكوك.

بإمكاني أن أقول لأمي: "بالنسبة للمال الذي ينقصك، فإنني..."

يقف هناك، يتأمل، ولا يخبرنا. ملامح وجهه صافية ووقورة، كأنه قائمة أسماءٍ بحد ذاته. كان قد خلع عنه قبعته ودسها في جيبه. النسيم رفع خصل الشعر عن رأسه. من الصعب تخيل ڤيك في زي بحار، يرقص على أنغام المزمار، يتسلق الصارية ويصيح «آهوي.» ليني واقفٌ عند البوابة، منحني الظهر مطأطئ الرأس، كأنما ينوي الدخول ورؤية علامَ كل تلك الجلبة متى ما استعاد نفسه أولاً بعد تسلقه التل. يرمقني بنظرة خاطفة كأنما يقول لي هذا مكانٌ للبحارة الصبيانيين وربما علينا نحن الجنود تحمل مسؤولية المهمة. أراها رمية نرد، البحر، الصحراء. ڤينس أخذ يتسكع حول المسلّة. الشمس على الحجر الأبيض تبهر الأبصار. وعلى

كل جانب من جانبي البوابة يقف بحارٌ صخريّ بكامل حلته الصوفيّة منتعلاً جزمته البحرية، يقف في وضعية الاستعداد، يحدق للأمام في الفضاء، يبدو أن ليني سينصرف خلسةً، ولا يبدو جِملاً حقّاً للمهمة. البوابة مطلية باللون الأزرق. مكتوبٌ على قمتها، «هؤلاء هم المكرّمون في أجيالهم وصانعو المجد لأوطانهم.»

ڤينس[29]

المسنّون الأوغاد.

(27) هذا الفصل من الرواية وردَ هكذا. م.

ليني

سواءٌ لديّ، سأود من جوان الحضور من أجلي، عدا أنّي لن أعرّضها أبداً لحماقةٍ كهذه. أنا كنت سأحضر من أجلها، إن هي سبقتني. ولا أظنها ستسبقني.

التل اللعين كاد يقضي علي.

هي مسألة واجب، لا أكثر ولا أقل.

ڤيك يقف هناك متأملاً، وراي ذهب نحو ڤينسي كي يحادثه، هناك أسفل البرج الغريب. كلاهما يمعنان النظر فيه كأنهما سائحان أمام عمود (نيلسون). محفورٌ عليه (هيليغولاند)، أياً كان هذا المكان، (هيليغولاند) – (جت لاند) – (دوغريانك)[30]. لكن لا يبدو لي أنهما يتكلمان عن البرج، بل يتكلمان في أمرٍ آخر، أمرٍ يخصهما، الاثنين فقط.

أظنني الغريب في هذه المجموعة، الغريب في هذه المهزلة، دُعيت فقط للرفقة والبيرة، وتسلّق التل. فها هو ڤيك أمام قوائم الموتى، كأنه لا يكتفي منهم في حياته اليومية، وأولئك الأحمقان يتهامسان مثل لصّين عند قاعدة البرج. لم أفهم قط كيف لرايزي أن يصادق غبياً كهذا. ربما لأن ابنته لم تحبل من الغبي مثلما حدث لابنتي. ومن يدري، ربما كانت ابنته سوزي ستحمل منه لو لم يخطفها الأسترالي أولاً.

هناك راي وجاك، صداقتهما تعود إلى أيام الصحراء، الصحراء ذاتها التي قاتلت فيها، المدفعيّ تايت، عدا أني لم ألتق بأيّ منهما هناك. وهناك جاك وڤيك، دُكّانيهما منصوبان وجهاً لوجه على الشارع نفسه طوال الخمسين عاماً الماضية، دودز وتاكر، شرائح اللحم مقابل الجثث. وهناك جاك وڤينس، أحدهما في كيس متجر، والآخر خرج من كيس فضلات.

والسبب الوحيد وراء وجودي هنا، إن لم تحسب رفقتي له في الشّرب حتى الثمالة

(30) (هيليغولاند – Heligoland): أرخبيل ألماني في البحر الشمالي حيث وقعت المعركة البحرية (جت لاند –Jutland) بين الأسطول البريطاني والأسطول الألماني عام 1916. م.

أربعين عاماً، هو سالي. من أجل كل الرحلات التي اصطحب فيها ابنتي سالي إلى شاطئ البحر وقت كنّا عاجزين عن اصطحابها. الطيبة التي وجدته يحملها، إحدى المرات القليلة التي تعامل بها أحدهم بهذه الطيبة معها. وجاء دوري الآن لأصطحب جاك في رحلته.

هي مسألة واجب. هناك واجب الجندي، واجب البحار. (هيليغولاند) (جت لاند). لكن إن سألتني، فواجب الجندي والبحار ليس بواجب بقدر ما هو تنفيذٌ للأوامر. القيام بواجبك في حياتك الاعتيادية أمرٌ آخر، هي مهمةٌ أصعب. مثلما اعتاد راي أن يقول، جاك كان جندياً عظيماً، كان يستحق ميدالية نظير خدمته، لكن ما إن عاد إلى حياته المدنية فحاله لم تختلف عن بقيّتنا، عاد يجهل ما عليه فعله في حياته، ولم يجد سوى الالتصاق بما تعلّمه على يد والده، كأن أمراً عسكرياً وصله من القيادة العليا يقضي بأن لا خيار أمامه سوى العمل جزاراً. وأصبح دكان اللحوم مقر الإيواء اللعين الواجب عليه البقاء فيه طوال حياته.

ثم أصبح مولعاً بالذهاب إلى شاطئ البحر.

يبدوان مثل جاسوسين في موعد سري أسفل البرج. مع أحدهما كيس، انظر، يحمل في يده كيساً مثيراً للشبهات.

حتى سالي جانبها الصواب، وإن كنت لا ألومها على الإطلاق، لا ألومها على زواجها من ذاك المجنون كردة فعل على علاقتها بالصبي الكبير. تومي تايسون، نزيل سجن (بنتونفيل). فقد وجب عليها الوقوف إلى جانبه، وسيصعب عليها الأمر أكثر متى ما خرج من السجن، ومع ذلك كان عليها مواصلة زيارته. مثلما آمي تواصل زيارة جوون. هي مسألة القيام بواجبك.

مثلما هو واجب راي أن يتصالح مع ابنته سوزي، مثلما كان واجب كارول ألا تهرب من راي. علينا ألا نفرّ أبداً من أداء واجبنا، نفرّ من خدمتنا. مثلما كان واجب ڤينسي أن يخضع ويقوم بالمطلوب منه لأنه يدين بكل شيء لجاك وآمي، فجاك كان والده بكل ما تحمله الكلمة من معنى.

وكان على جاك ألا يتخلى عمّن هي من لحمه ودمه.

ولا أنا.

جوان قد تحضر، لكن سالي لن تفعل.

ها هما يستديران خلف البرج.

سترى أنّ الوحيدة التي قامت، وما تزال، بواجبها وزيادة هي آمي، عاماً بعد عام. لم تتأفف ولو مرة واحدة، على ما سمعت. حتى الآن، ها هي تواصل القيام بواجبها في زيارة جوون. عدا أنها كانت تستطيع تأجيل زيارتها إلى الغد أو الذهاب لزيارتها البارحة. كنت تتوقع منها ألا تضنّ بهذا اليوم على جاك.

راي

ينظر ڤينس للأعلى نحو المسلّة، بكامل تركيزه، كأنما يخشى أن تقوم بحركةٍ مفاجئة ولا يريد أن يزيح عينيه عنها، كأنما هو مرتاحٌ لعدم اضطراره النظر إليّ. هي المرة الأولى التي ننسلّ فيها بعيداً عن ڤيك وليني. الشمس والإطلالة خلفنا. يداه في جيبيه، رسغه الأيسر محشورٌ في فتحة الكيس. لابدّ أن الكيس يزداد ثقلاً، شرائط البلاستيك تحزّ في جلده، لكنه لا يمانع. كأنه لا يرغب بالافتراق عن الكيس.

«...مَن لا قبر لهم سوى البحر.»

ينظر للأعلى نحو المسلة وأنظر أنا للأعلى نحوه. من الصعب أن تحظى بالعمر الطويل ولا ينعكس طوله على قامتك. لكن لا بد أن المسلة أثّرت بڤينس، فهو وإن لم يستدر نحوي بوسعي أن أرى على وجهه ملامح فتى يقف في حضرة رجل كبير. مثلما حدث حين انهال عليّ بأسئلته عن السّاحة ليعرف موقفي منها. أخذ يناديني "عمّي راي."

عيناه تضيقان بينما يحدق بالحجر الأبيض، فقد نسي نظارته الشمسية.

ليته ارتدى ربطة عنق أخرى.

يقول لي: "كنت أتساءل رايزي."

"تتساءل؟"

"هل أسرّ إليك جاك بأي شيء يخصّ المال؟ أعني حين كان على... ألم يخبرك أبداً عن مبلغٍ من المال؟"

هناك أسدٌ صخريّ رابضٌ على كل جانب من جانبي المسلّة.

أسأله: "أيّ مالٍ تعني؟"

"لا يهمّ." يترنح في مكانه. رأسه مرفوعة وينظر للأعلى، لكن يبدو وكأنه يرجوني. "فلنقل ألف جنيه."

ريدكار*ريبون*ساندون*ثيرسك.

أجيبه: "لا، لم يذكر لي شيئاً عن أيّ مال."

الآن ينظر إليّ، يخطف نظرة سريعة نحوي ثم يعود وينظر إلى المسلة. الشمس تحتجب خلف السحب والحجر الأبيض يضحو رمادياً، النسيم البارد يهب على عنقينا.

" عدا أنّ،" يقولها وكأنما أصبح رأس العائلة، "علينا الاعتناء بآمي، هو واجبنا أليس كذلك؟ علينا الاعتناء بآمي."

ڤينس

وقتها لم تكن قامتي أعلى بكثير من نضد المائدة. ما كنت لتتخيل أنّه في غضون بضعة أعوام، على آمي أن ترفع عينيها لتراني.

أخبرتني أن الصور التقطت حين كان جندياً، أيام الحرب. هناك تلك الصورة لكليهما راكبين على ظهر الجمل، راي في المقدمة وجاك من خلفه، كلاهما يضحكان. وهناك الصورة الأخرى لجاك وحده، يرتدي قميصاً مهلهلاً، صدره عارٍ، ويمسك بسيجارة. لكني لم أصدقها، لأني لم أرَ ما علاقة الضحك على ظهر الجمل بكونك جندياً. كان يضحك في الصورة الأخرى.

كنت أقول لنفسي، هو ليس بأبي، ليس بأبي، ذاك الذي يضحك.

قلت لها: " لا يبدو جندياً لي." فأجابتني: "لهذا السبب أحب الصورة." ولم تشرح.

أخبرتني أنها التقطت في الصحراء، كلاهما خدم في الصحراء، وكذلك العم ليني. قبل أن أولد.

الموز في وعاء الفاكهة من عربة العم ليني.

عليك أن تبلغ وتصبح رجلاً قبل أن تصبح جندياً، هذا ما قالوه لي. مثل كل الأمور الأخرى التي عليك أن تبلغ وتصبح رجلاً من أجلها، مثلما عليك أن تصبح رجلاً قبل أن تحظى بفرصة الموت. تلك كانت كذبة. الأمران مرتبطان بعضهما ببعض، فحتى تموت عليك أن تتحلّى بالشجاعة، والجنود شجعان.

لكني الآن أدرك أنه لا يلزم أن تكون شجاعاً لتصبح جندياً، وليس عليك أن تكون جندياً كي تتحلّى بالشجاعة.

"آمي، هل لي أن أحمل الصورة، فقط بُرهة؟"

"بالطبع ڤينس، يمكنك الاحتفاظ بها."

الشمس في وجهه، يحدق بك، ابتسامته عريضة، ما يزال على قيد الحياة، وكأنما يعرف أنك تجهل في الحقيقة من يكون. يحدق بك من قلب الإطار النحاس كأنما

يعرف أنه الآن في عالمٍ آخر، يختلس النظر إلى عالمك. هو يرتدي بنطالاً قصيراً، قميصه خارج بنطاله، أزراره مفتوحة، وهناك خوذة معدنية مائلة على رأسه تبدو وكأنما وضعها هكذا ليمرح بها، ومن حوله الرّمال في كل مكان. لا يبدو جندياً، ولا يبدو حتى رجلاً بالغاً. بل يبدو كولدٍ على شاطئ البحر.

ليني

ولو كانت آمي معنا لحرصت على التزامنا جميعاً حدود اللياقة. ما كانت لتقبل أي إساءة تصرف من أيّ أحد، لكنّا حافظنا أمامها على رباطة جأشنا. وهو ليس بالأمر السيء. فأنا لا أرى أن هذه الرحلة ستمر بسلاسة، ليس مع أربعة شبابٍ وعلبة.

ها هما يعودان من خلف البرج، ما عادا يتبادلان الحديث لكن كأنّ بالهما مشغولٌ به. الصبي الكبير ورايزي الصغير، مثل جاك ومحظوظ. أغلق نصف عينيك وسترى كل زوجٍ في الآخر. ربما هو قانون تجاذب الأضداد. هذا ما كان يخطر على بالي كلما رأيت جاك وراي مقبلين معاً، كأنما راي هو القزم الذي يخرجه جاك من تحت معطفه، جالب الحظ الصغير. أعرّفك بصديقي محظوظ.

لكن خذ حذرك من رايزي. في اللحظة التي تظنه وقع ولن يقوم على رجليه يفاجئك ويقفز في وجهك ويمارس عليك خدعة بارعة. كأنما ضآلته هي القناع الذي يختبئ خلفه.

ڤيك ما يزال يتأمل قوائمه. إلى متى علينا انتظاره؟ أجزم أنّ جاك لم يخمن أن رحلته إلى (مارغايت) ستستدعي زيارة قصيرة إلى البحرية الملكية. لك أن تراها وقاحةً من ڤيك، يجرنا جميعاً إلى الأعلى هنا كي ينظر إلى كل تلك الأسماء بينما اليوم هو يوم جاك، كأنما يقول لنا أن جاك ليس بتلك الأهمية. لكني لا أمتعض منه، فمشكلتي ليست مع ڤيك. هي فقط مسألة واجب.

(تشاثام)

الشمس تبزغ مرةً أخرى، والمسلة تلقي بظلها الطويل والرفيع عبر المرج باتجاه السور المتقوّس، كأننا نقف في قلب ساعةٍ شمسية. في الوقت المناسب من السنة حين تدنو الشمس، أتخيّل ظلّ المسلّة يتنقل على مهل، كل يوم، على الصف الأول من الأسماء أعلى كل قائمة.

بدأنا نغادر الآن، نتجه نحو البوابة الزرقاء. ليني ما يزال يتسكع عندها، كأنما هو الحارس الذي أدخلنا وهو في انتظارنا نغادر كي يغلق البوابة من جديد. دسّ جنيها في يده مقابل تعبه. ڤيك انتهى من تأمله، وضع قبعته من جديد، لا أظنه قراره بقدر ما هو قرار ڤينس: انتهى الوقت، الكل إلى العربة. نتجاوز البوابة، لا نسير جماعةً نتبادل الحديث، بل فرداً فرداً وبصمت. كأننا خرجنا توًّا من عرضٍ مسرحي ولا أحد منا يملك تعليقاً عليه. ڤينسي الأول، أنا الأخير.

نعاود النزول على المسار ذاته عبر قمة التل. الشمس والمنظر والنسيم من أمامنا. لا أحد آخر من حولنا ولا صوت تسمعه سوى حفيف أحذيتنا نجر أقدامنا وصفير ليني يجر نفسه. وحيثما يبدأ المسار بالانحدار للأسفل نحو الأشجار يتوقف ڤينسي فجأة ونقف جميعاً من خلفه نترنح، كأنما رفع يده توًّا. أشعة الشمس على وجوهنا. يخطو خارج المسار ويقف على العشب. "سألحق بكم، امضوا أنتم في طريقكم وسألحق بكم."

لسنا ملزمين باتباع أوامره، لسنا ملزمين أصلاً بالاستماع إليه، لكن فلنعترف، لن يشق عليه اللحاق بنا. ليس بعد ما رآه منا في صعودنا إلى الأعلى. لذا نواصل المسير على مهل، صفٌّ عسكري، فجوة بين واحد وآخر، وأنا في نهاية الصف أسترق النظر خلف كتفي نحو ڤينسي. أراه يمشي عبر العشب ولا يبدو عليه القلق من توسيخ بذلته الأنيقة وحذائه، وأراه يقف عند حافة التل يتأمل المنظر مثلما تأمل ڤيك كل تلك الأسماء.

أتلكأ في المسير خلف الآخرين. ربما يريدني أن أتلكأ، ربما هو يمنحني فرصةً ثانية. لكنه يكتفي بالوقوف هناك، الكيس إلى جانبه، يحدق في الفضاء أمامه مثل البحار الصخري.

الشمس تحتجب كرّةً أخرى خلف السحب، لكن لوهلة فقط. وأتأمل المنظر أنا أيضاً، فلا أود فقدانه، لكني أستدير وأعود أدراجي في المسير نحو الأسفل خلف الآخرين، الأشجار تبرز أمامنا والمنظر ينسل من أمامنا. أصبح هشّاً بين الأشجار.

نعود إلى السيارة لكن لا نستطيع الركوب فالمفتاح عند ڤينس، لذا نتسكع في موقف السيارات، لا نتبادل الحديث، فقط نسترق نظرات خاطفة بيننا. ليني ينظر نحو ساعته. ڤيك يبدو مذنباً كأنما الخطأ خطؤه، لكن لا يحقّ لك أن تلومه، ليس بعد اقتراحٍ كهذا. لكان مهيناً أن تقول له، أتدري، طالما المسألة فيها تعب، وسنتسلق تلا وما شابه، فلننس الموضوع برمته.

وليس هو السبب في تأخرنا الآن.

ننتظر دقيقة، ثم نراه ينزل على الطريق نحونا، حاملاً الكيس معه. ويبدو جليّاً لنا أنه مستعجلٌ أيضاً، إذ أخذ يسير بسرعة، ينزلق تارةً وأخرى في الوحل. وبينما يقترب منا نرى ملامح وجهه صارمة وباردة، كأنما يتمنى عدم وجودنا معه.

أظنه انتحب هو الآخر. كلنا في حاجة إلى تلك اللحظة.

بلطف يضع الكيس وبداخله الجرة على غطاء المحرك، ثم يفتح السيارة ويذهب للخلف ليدخل معطفه. نخلع معاطفنا لكن لا أحد منا يدخل، كأنما نقف في انتظاره يأمرنا. يغلق صندوق السيارة ثم يعود إلى باب السائق، ويخلع عنه سترته. يفتح الباب الخلفي ويدس سترته بعد أن طواها، يضعها على المقعد الخلفي حيث كانت.

"حسنٌ،" موجهاً كلامه بنفاد صبر، "من سيجلس أين؟"

ڤيك يجيبه أسرع من لمح البصر: "سأجلس في الخلف." أنا وليني ننظر نحو بعضنا.

"ومن منكما سيجلس على المقعد الأمامي؟"

كأنما هو بابا ونحن الأطفال، وبابا بدأ يحتد علينا.

ليني ينظر إلى ڤينس.

وفينس يصدر أمره: "حسنٌ، راي إلى الأمام."
ليس المكان الذي أود الجلوس فيه، ليس الآن، لكني أدخل والمقعد الكبير يبتلعني.
ليني يجلس في الخلف إلى جانب فيك.

يتمهل فينس عند باب السائق، يرتب شعره، يسوي ربطة عنقه، يكشط الطين عن حذائه بعودٍ التقطه عن الأرض، ثم يرفع الكيس عن غطاء المحرك. أظنه سيسألنا، «وأيّكم سيحمل...؟» لكنه يمرر الكيس مباشرةً إليّ، كأنما منحني إياه فقط كي أتولى رعايته له، قريباً منه وفي متناول يده، ضمن مسؤوليات الجلوس على المقعد الأمامي. لكني لا أعرف ما أفعل به، أجهل كيف أتولى مسؤوليته.

" هاك رايزي، احمله."

يُدير المحرك، يتناول نظارته الشمسية من داخل صندوق القفازات وينطلق بسرعة تنزلق معها العجلات هادرة. ينعطف في كل الاتجاهات عبر(تشاثام) كأن البلدة بأكملها تقف في طريقه. كلما أمعنت التفكير في الأموات لاحظت كيف تستعجلك الحياة. نقود خارج البلدة ونصل الطريق السريع (M2)، التقاطع الثالث، (دوفر48)، ومن هناك يدوس على البنزين بكل قوته. يقود السيارة كأنه يعوض عن الوقت الضائع، كأنه تأخر على موعدٍ هام. لكن لا موعد أخير لمهمتنا. عنقه متيبس ومشدود. أنظر نحو لوحة القياس وأرى الإبرة تخفق متجاوزةً الخامسة والتسعين. في سيارة مترفة كهذه لا تلاحظ السرعة. التقاطع الرابع، التقاطع الخامس. ما عدنا نقود بما يليق بوقار المناسبة. كلنا نجلس في صمت كأن علينا أن نقول شيئاً لكن لا أحد منا يجرؤ على فتح فمه، ولي أن أشعر بفيك يشعر أن الخطأ خطؤه، لكن لا يحق لك أن تلوم فيك.

فيك

لكن جاك ليس مميزاً، ليس مميزاً على الإطلاق. دعني أقلها، رجاءً. أود فقط أن أشير إلى هذه النقطة، بصفتي محترفاً وصديقاً. هو واحدٌ من كثر الآن. في الحياة هناك فروقات، هناك اختلافات، من الآن وصاعداً سأجلس في المقعد الخلفي. لكن الأموات هم الأموات، فأنا رأيتهم، وكلهم متساوون. إما أن تفكر بهم جميعاً أو تنساهم. لا ينفعك أن تتذكر أحدهم ولا تتذكر الآخرين. (ديمبسي)، (ريتشاردز). وليس من اللائق حين تتذكر الأموات الذين تعرفهم أن تضنّ بوقتك على الأموات الذين تجهلهم. فهذا ما سيجمعهم على قدم المساواة دائماً وإلى الأبد. في النهاية هو بحرٌ واحد.

مزرعة (وِكْ)

يخفّف فجأةً من سرعته، يتّجه بالسيارة نحو المجاز الداخلي، وكلنا نتنفس الصعداء. يسلك الطريق الجانبي المؤدي للمخرج القادم، لا ينطق بكلمة. التقاطع السادس، (آشفورد)، (فاڤيرشام). يسلك طريق (آشفورد)، يبدو على علمٍ تماماً بالطريق الذي يسلك، عدا أنه ليس بالطريق إلى (مارغايت)، وبعد ما يقارب الميلين ينزاح عن هذا الطريق أيضاً. كلنا ننظر إليه، لا ننطق بكلمة. "زيارة خاطفة." يجيب تساؤلنا الصامت، عيناه على الطريق ورأسه لا تتزحزح قيد أنملة، "زيارة خاطفة".
الطريق يضيق ويلتوي، أقواسٌ من الشجر تعلونا، وعلى جانب الطريق يمتد وشيعٌ[31] وتنبسط حقول. لك أن تقول إننا قد أصبحنا في الريف، بعيداً جداً عن (بيرموندزي). الأشجار منقطة باللون الأخضر، السماء زرقاء ورمادية وبيضاء، والشمس تسطع فجأةً وبقوة. ينعطف، ثم ينعطف مرة أخرى، كأنّ هناك خريطةً في عقله. نمر على سلسلة تلال ويتجلى على يميننا منظرٌ طبيعي شاسع نراه كلما عبرنا على فجوات الوشيع. كأنما أصبح مولعاً بالمناظر الطبيعية. يصعد بنا الطريق إلى الأعلى، ما زلنا على سلسلة التلال، وبينما ندنو من القمة أخذ يخفف سرعته، يتلفت حوله، ثم يركن السيارة على كتف الطريق حيث توجد بوابة في الوشيع. هناك مسارٌ محدد يقود أعلى وأسفل الحقل، وطريقان رمليان، وعند البوابة لوحة منصوبة من تلك اللوحات الخضراء تشير إلى المسار: «ممشى عام.»
يطفئ المحرك. ونسمع من بعيد الخراف تثغو. ينظر إليّ ويقول: "رايزي،"، باسطاً لي يده، كفه للأعلى، أصابعه ترتعش، وأدري أنه يقصد الكيس، العلبة، يقصد جاك. يقولها بطريقة لا ينفع معها الجدل ولا السؤال، لذا أعطيه ما يريد. يخرج العلبة من الكيس ويقذف بالكيس على حجري: «متجر روتشستر للأطعمة الفاخرة.» ثم

(31) الوشيع: سياجٌ من شجيرات أو أشجار خفيضة. م.

يقلب العلبة ويفتحها ويخرج الجرة من داخلها ويرمي بالعلبة هي الأخرى على حجري. وجهه قاسٍ لا تعبير عليه. يفتح الباب ويخرج، حاضناً العلبة بإحكام إلى صدره. لا يتناول سترته ولا يدور ليأخذ معطفه من الصندوق. يصفق الباب خلفه ويسير نحو البوابة. يهب عليه النسيم البارد فتطير ربطة عنقه على كتفه، وينتفخ قميصه كما البالون. البوابة معدنية تصلصل. يعبث بالمزلاج ثم يدفع بإحدى العارضتين نحو الأعلى، ثم يفتح البوابة بما يكفي لينسل عبرها. هناك لطخة صدأ على كم قميصه الأبيض. ينظر عبرالحقل، ثم يدفع بالوابة إلى الوراء، البوابة ترن وتهتز من خلفه، وينطلق سيراً على المسار.

ليني يقول: " إلهي، ما الذي ينوي فعله الآن؟"

ڤيك يلتزم الصمت، كأن كل شيء يقف عليه، هو أساساً من زرع الفكرة في رأس ڤينس. اذهب وابحث لنفسك عن تل.

أجيبه: "وما أدراني؟"

ليني هو أول من يغادر السيارة، ثم أنا، ثم ڤيك. النسيم البارد يصفقنا. والأرض موحلة تحت أقدامنا. وجب علينا تناول معاطفنا من الصندوق لكن ليني كان قد سبقنا نحو البوابة يحاول جاهداً فتح المزلاج، كأنما أدرك قبلنا جميعاً ما الذي ينويه ڤينس.

" الحقير" يصرخ قائلاً، "الحقير، ليس له ذلك..."

يقطع ڤينس الحقل إلى حيث المسار يأخذ طريقاً مرتفعاً شديد الانحدار. ربطة عنقه الحمراء ترفرف مثل اللسان الفالت على كتفه. الأرض ليست بحقل بقدر ما هي منحدر مفتوح. فنرى أمامنا المنظر بوسع المدى كأننا نقف على حافة زبدية مائلة. الأرض أسفل الوادي خضراء وبنية ومرقعة، الغابات محدّدة بحواف وزوايا مرتبة، والوشائع هي الغرز التي درزتها ببعض. هناك بقعةٌ حمراء من القرميد في المنتصف ينتصب منها برجٌ مستدق. ما تراه يشبه انجلترا، هذا ما يبدو عليه المنظر. الحقل ينحدر للأعلى يساراً، نحو قمة، حيث يوجد دغلٌ ملتف الأشجار، ومن الجهة المقابلة يختلس مبنى مهجور النظر إليك، طاحونة هواء، أشرعتها مفقودة. ومن

أمامنا ينحدر الحقل نحو الأسفل بسلاسة على مسافة ثمانين ياردة، ثم يهوي. أجزم أن هناك قطعةً كبيرة من المنظر لن يسعك رؤيته إلا إذا وقفت على حافة المنحدر. العشب من حول البوابة مداسٌ وتتناثر عليه غائط الخراف. هناك قناة ماء تقطع الوشيع، والقناة المعدنية مكهربة. بوسعنا سماع الخراف وشم رائحة الخراف ورؤية الخراف، القطيع ممتد هناك إلى اليسار، مثل نقطٍ بيضاء على المنحدر. الخراف كلها تحدق بڤينس بينما يقطع الحقل، كلها ما عدا الحملان، فهي متحمسة أكثر للعدو من مكانٍ إلى آخر، أو الاختباء تحت أمهاتها. بين فينة وأخرى تقفز إحداها عن مكانها كأنما داست على شيء كهربائي.

ليني يصارع المزلاج.

«"لا يملك الحق، هو ليس بابنه." أخيراً يحرر المزلاج، "ولم يكن يوماً."

يدفع البوّابة مشرّعاً إيّاها، وقبل أن يتسنى لنا الدخول أنا وڤيك عبرها نراه ينطلق على المسار ليلحق بڤينس. كأن معاناته في صعود التل نحو النصب أعادت إليه لياقته البدنية، كانت مجرد إحماء.

ڤينس يدنو من حافة المنحدر، لم يلتفت خلفه ولا مرّة واحدة. كُوع ذراعه التي يحمل بها الجرّة مستدقّ وقميصه المنتفخ بالهواء يخفق. لو لم تضحو الأمور جنونية في هذه الرحلة، لظننته معتوهاً، يسير هناك في وسط الحقل، يحضن جرة بلاستيكية، مع قميصه الأبيض وربطة عنقه البراقة والخراف تحدق به وتغثو: باع باع باع.

ليني يتحرك بسرعة، وأنا وڤيك عاجزان عن مجاراة سرعته. هو على بعد عشرين ياردة من ڤينس حين يتوقف ڤينس عند حافة المنحدر ويقف هناك بثبات وتأنٍ، كأنما عقد عزمه على تنفيذ ما جاء لأجله. لوهلة يبدو مثل رجلٍ جاثم على حافة جرف، لكن ما إن نقترب نرى التل يميل بانحدار شديد نحو الأسفل وهناك نرى القطعة المفقودة من منظر الوادي: غابة، طريق، بيت مزرعة. بساتين وبيوت الجنجل[32].

---

(32) بيت الجنجل: مبنى يستخدم لتجفيف زهور الجنجل وتخميرها لاستخدامها في صناعة البيرة. م.

ثم نرى ڤينس يحاول فك غطاء الجرة.
ليني يصيح به: "أيها الحقير،" كأنما عرف مسبقاً ما الذي ينوي ڤينس فعله.
يصعب عليه لف الغطاء، بدا كمن يحاول فك غطاء علبة مربّى جديدة. نحن الآن على بُعد ياردات قليلة من ڤينس ويرانا قادمين نحوه. وكأنما أعد نفسه لهذه اللحظة، كأنما انتظر منا أن نشهد على ما سيفعل. لكن بالتأكيد لم يُعدّ نفسه لما سيفعله به ليني.
ينقض ليني على ڤينس ويمسك بذراعه التي يحاول بها فك غطاء الجرة، لكن سرعان ما يفلت منه ڤينس ويرفع الجرة عالياً بعيداً عن متناول ليني. الغطاء ما يزال على الجرة، لكن لا يبدو محكماً، سينفكّ على شعر رأسه. ڤينس يراوغ لكن ليني ينقض عليه مرة أخرى. هذه المرة يمسك به من ربطة عنقه وبيده الأخرى ينتزع قميصه. بطن ڤينس ينكشف وزرٌّ من أزرار قميصه يطير في الهواء. وفجأة يقع ڤينس بعد أن فقد توازنه، لكن ذراعه ما تزال مرفوعة. يحاول جاهداً التشبث بالجرة، لكن وهو يتعثر تقفز الجرة من قبضة يده وتقع أمام أعيننا. أنا وڤيك أعيننا مثبتة على وقوع الجرة لا على سقوط ڤينس، لأنَّ ما إن تقع الجرة على الأرض فأحد احتمالين سيتحقق أو كلاهما. الغطاء غير المحكم سيطير في الهواء ويراق الرماد على الأرض، أو سترتد الجرة عن الأرض حيث تقع وتتدحرج على منحدر التل الهاوي.
لكن الجرة تقع وتستقر على أجمة نباتات شائكة والغطاء ما يزال عليها.
يهرع ليني نحو الجرة فيلتقطها، ويحكم إغلاق الغطاء. ثم ينهض ڤينس مترنحاً على قدميه ويندفع نحو ليني للنيل منه. قميص ڤينس منزوع خارج بنطاله. هناك لطخة خضراء موحلة على كم قميصه الأيسر يوازي اللطخة البنية للصدأ على كمه الأيمن. يحاول انتزاع الجرة بالقوة من يدي ليني لكنه ينزلق مرة أخرى ويدفع بيده ليخفف من أثر سقوطه، ويسحب ليني الجرة ويحتفظ بها لنفسه.
يعاود ڤينس النهوض، يشتعل غضباً مثل أسدٍ رابضٍ ويزأر، ويمد ليني الجرة أمام ڤينس ويغيظه بها بينما يثب في مكانه، ممسكاً بها بيديه. في حياتي لم أر ليني يثب بهذه الرشاقة والتوازن على قدميه. ڤينس يندفع للأمام وليني يندفع للوراء مراوغاً،

وكأنه يفكر برمي الجرة إليّ أو إلى ڤيك إن كنّا على أهبة الاستعداد لالتقاطها، لكنه يختار القيام برمية رُغْبي، منخفضة وسريعة نحو جانبه، فتهبط الجرة على العشب بعيداً عن متناول أيٍّ منا، ويخطو إلى حيث يقف حائلاً بينها وبين ڤينس، يرفع قبضتيه ويأخذ يراوغ ويتمايل.

" تعال أيها الصبي الكبير، تعال أيها الحقير."

يشكم ڤينس نفسه لحظة، ربما هو ليس بغاضبٍ لدرجة الانقضاض على رجلٍ في عمر ليني. لكن عينيه تقعان على الجرة خلف ليني، ولا يبدو ليني مستعداً لتسليمها، بل نراه عازماً دون هوادة على تحقيق هدفه. حتى وإن كان سيُهزم بعد برهة فهو لن يتنازل، هذه هي لحظته. أسمع ڤيك على جانبي يتنهد ويطقطق بلسانه. كان باستطاعة أي منّا التسلّل وحمل الجرّة لكن لا أحد منّا يفعلها. ولا أرى ڤيك ينوي التدخل ولعب دور الحكم، ليس هذه المرة.

"لم يكن عزيزاً عليك، لم تفقد عزيزاً عليك، إيه ولد".

يندفع ڤينس قُدُماً إليه، لا يرفع قبضتيه في الهواء لكنه يشمّر عن ذراعيه، ويرفع يديه مبسوطتين، كأنما يتحدّى ليني أن يفعلها، وليني يُريه أنه على قدْر التحدّي فيندفع نحوه ويسدّد لكمة قوية لا تخطئ الهدف في وسط صدره. ڤينس يترنح مذهولاً من اللكمة التي لم يراهن على قوتها.

"هذه من أجل سالي." يقولها ليني لاهثاً، ثم يسدّد لكمة أخرى.

"وهذه من أجل جاك."

هذه المرة لا يقف ڤينس ساكناً، بل يستعيد شتات نفسه، يقبض على ذراع ليني التي سددها نحوه قبل أن يلتقط ليني أنفاسه. يمسك بمعصم ليني، وبكفّ يده الأخرى يقبض عليه أسفل حلقه ويدفع به مرّتين، كي يعرف إن بإمكانه أن يلجأ للعنف معه إن أراد، لكنه لا ينوي أيضاً التساهل معه. ثم يرفع يده عن عنق ليني ويمسك بوجهه، ينشب أظفاره عليه ويهزّ رأسه إلى الخلف بقوة، مرة، مرتين، فيبدو وكأنّ عيني ليني ستنقلعان من محجريهما بين أصابعه، ثم يرفع يده عنه حتى يتنفس، فيقول له ليني: "ارفع قبضتيك أيها الغبي." ويلكم ڤينس على فمه. يبدو

وكأنّ اللكمة آلمت ليني أكثر مما آلمت ڤينس. ثم يسحب ڤينس ليني من ذراعه بيديه كلتيهما ويؤرجحه، مزمجراً، فيبدوان مثل لاعبي تزلج على الجليد يدوران حول بعضهما. يرفع يديه عنه فيطير ليني ويتعثر ساقطاً. يذهب ڤينس اتجاهه ويقف فوقه ولا تدري إن كان ينوي ركله أو الاطمئنان عليه. يمد له يده وليني يمسك بها وينهض، وسرعان ما يسدد لكمة على أضلع ڤينس فيدفع به على الأرض مرة أخرى.

لا أنا ولا ڤيك نتحرك قيد أنملة.

ليني ينبطح على العشب، شبه جالس وشبه مستلقٍ، يتكئ على يديه، يلهث واللعاب يسيل منه. ڤينس يقف فوقه منحنيًا، يتنفس بصعوبة هو الآخر. كل ما تسمعه هو أنفاسهما وغثاء الخراف تنبع، باع باع باع، كأنها جمهور في حلبة الملاكمة. الجرة في متناول ڤينس لكنه يتردد في التقاطها قبل التأكد من وضع ليني. يتحرك ببطء اتجاهها وها هو يقف بينها وبين ليني، وليني يدفع بجسده للنهوض.

وجه ليني يبدو مثل قطعة شواء محروقة، ينهض وينهق مثل الحمار مترنحاً على قدميه. ڤينس يتراجع للخلف، لاهثاً هو الآخر، ويرفع الجرة عن الأرض. ثم يتقدم نحو ليني حاملاً إيّاها كأنما دوره الآن ليُغيظه بها. ورغم محاولة ليني إخفاء حقيقة وضعه، إلا أنّ عينيه كشفتا هزيمته، «لقد هُزمت، لا أقوى على المواصلة، فبالكاد أقوى على التقاط أنفاسي.» وكل تعاطفك كنت ستوجهه إلى ليني الواقف لاهثاً، عدا أن ڤينس هو الآخر يترنح ويتمايل ويلهث وينظر محتاراً نحو ليني. وهناك أمرٌ آخر يجري مع ڤينس. وجهه مبلّل، عيناه مبلّلتان. يتشبث بالجرة مثل طفل يتشبث بلعبته.

"لم أكن سأرمي به هنا، لم أكن سأرمي به هنا." يقولها ڤينس بينما يعاود فك غطاء الجرة.

ينظر ليني بصمت نحوه، يترنح ويتنهد.

"فقط شذراتٍ منه،" يقول ڤينس،"قليلًا منه فقط."

ليني يحدق به ثم ينعق بصوته الأجش:"هل هذا ما سيكون عليه الحال؟ هل تنوي الوقوف بنا كل عشر دقائق في مكان ما وتنثر؟ حفنة هنا وحفنة هناك؟"

يواصل ڤينس فك الغطاء. يمسح الدموع عن وجهه وعينيه. الأمر مغرٍ. تماماً مثل علبة الشوكولا التي تنوي إهدائها لمريضٍ في المستشفى وإذ بأصابعك تندس في العلبة وتؤثرها لنفسك، قطعة، قطعتان، أو حين تتولى رعاية غرض يعود لشخص آخر ثم تستولي عليه لنفسك.

ويصرخ بنا: "ما الذي نعنيه «بنثر الرماد»؟" يمرّر يده على وجهه ليمسح دموعه، "ما الذي نعنيه «بنثر»؟"

فيرد ليني: "عليك أن تخجل من نفسك أيها الأحمق."

لكن كأنما ليني من يشعر أيضاً بالخجل من نفسه، يقف مترنحاً على وشك السقوط. على ما يبدو أخذ يلوم نفسه على لخبطته مجريات اليوم.

يفك ڤينس الغطاء أخيراً. يُلقي نظرة سريعة داخل الجرة. الخراف ما تزال تحدق بنا. أظننا نبدو سخفاء في أعينها كما تبدو هي سخيفة في أعيننا، وأجزم أن أي شخص في الأسفل يلقي نظرة علينا نحن في الأعلى سنبدو له أكثر غرابة من الخراف.

يضع ڤينس الغطاء في جيبه، ثم يحضن الجرة أقرب إلى صدره ويغمس يده الأخرى فيها. عيناه دامعتان. يسير بعيداً عن ليني مديراً له ظهره. ولا يبدو أنّ ليني يملك الإرادة ولا القوة لإيقافه. ولا أنا ولا ڤيك نوقفه. يسير نحو حافة المنحدر مواجهاً المنظر الطبيعي، مديراً ظهره لنا جميعاً. وفي البُعد تبدو السماء وكأنها انقسمت على نفسها وفي الوسط ينبثق غورٌ من أشعة الشمس، سحابةٌ كبيرة ناعمة ورمادية تدنو نحونا. يهب علينا النسيم بارداً، لكني لا أظن ليني أو ڤينس يشعران بها. الأرض يفوح منها شذى الربيع، والريح تفوح منها رائحة الشتاء. وإذ بقطرات مطر خفيف يتساقط علينا.

يقف ڤينس مواجهاً المنظر الطبيعي، ظهره مستقيم وقدماه ثابتتان. قميصه تلف بكل تأكيد وبنطاله سيحتاج إلى غسيل جيد. وماندي ستطلب تفسيراً. يغمغم كأنما ينوي أن يصرّح بأمر ما لكنه إما عاجز عن النطق به أو لا يدري من الأساس ما الذي يودّ قوله. ينقّب في الرماد المحفوظ في قلب الجرة وينثر شذرات منه سريعاً، مرة، مرتين. يبدو مثل غبار أبيض، مثل بهار الفلفل، لكن الريح تعصف به إلى

العدم. يغلق فيك الغطاء ويستدير سائراً نحونا.

"هنا،" يمسح الدموع عن وجهه، "هُنا أخبرني كل شيء."

راي

قال لي: "بتُّ أعرف الآن، رايزي."

مرّ يومٌ ونصف على إجراء العملية الجراحية التي لم تكن بالعملية الجراحية، والآن ما عاد مترنحاً ولا مشوشاً ولا بطيئاً. ذهنه صافٍ وحاد كما عهدته دائما، جالساً على فراشه في رداء المستشفى الأبيض المهلهل، مع أنابيب أخرى غرزوها فيه، بعضها في ظهره. كأنّ لا يمر عليهم يوم إلا وغرزوا فيه أنبوباً جديداً. لكن هناك آخرون لا ترى منهم إلا الأنابيب، أنابيب وأسلاك وقناني ومعدات، عدة كيمياء كاملة. لذا عليك أن تدنو نحوهم أقرب وأقرب لتتأكد إن ما زال هناك بقيّةٌ من حياة، عنصرٌ إنسانيّ ما يزال ناجياً في مكانٍ ما.

لكنه جالسٌ أمامي باستقامة وثبات. خيّل إليّ أنه يتموضع لرسم لوحته الشخصية، البورتريه الأخير، لا رتوش، لا تجميل، ولا أحد يعرف كم من الوقت سيستغرق رسمها، أسبوعين، ثلاثة. لا خيار أمامك سوى الجلوس ثابتاً وإظهار حقيقة من تكون.

لا أدري ما الذي يجب قوله لشخص يقول لك أنه بات يعرف. أظن الخيال يبعد عن الواقع بملايين الأميال. لذا أشحت بنظري عنه نحو ملاءة السرير ثم عدت ورفعت عينيّ وكان ما يزال ينظر إليّ باستقامةٍ وثبات، مباشرةً نحو عينيّ، كأنما يقول لي إن كان هو قادراً على مواجهة الواقع فأنا كذلك أستطيع، فحقيقته كرجل لم تتغير، ولن تتغير الآن وهو على وشك الموت، بل على العكس تماماً.

يقول لي: "من كان ليخمّن؟ " ثم يردف قائلاً، "مثل الحملان نحو المسلخ، إيه محظوظ؟"

ماندي

يمضي بنا الطريق، أسودَ ومنحنيًا، مشعًّا مثل عين الهر، كأنّه الأمر الوحيد المضمون في هذه الليلة الماطرة والمظلمة، الأمر الوحيد المضمون في هذا العالم. لا المكان الذي قدمت منه ولا المكان الذي تتجه إليه، بل الطريق.

سألته: "وما الذي تحمله معك في الخلف؟" فقط من باب الحديث لا غير. فنظر إليّ وأجاب: "جِيَف."، فقلت لنفسي سأثق بحظّي، فلم يمض بعدُ سوى ست ساعات.

سألني: "بعيدة عن بيتك؟"

أومأت له، أشعر برأسي يتثاقل وعنقي يتدلى من وطأة التعب.

"وأين بيتك إذاً؟"

انحنى اتجاهي، ذراعاه تحضنان عجلة القيادة.

أجبته: "(بلاكبورن)."

27، طريق (أوليرتون)، (بلاكبورن).

"ليس بعد الآن، إيه؟" قالها بينما يتناول علبة سجائر من جيب قميصه، "إذاً أنتِ (بلاكبورن روفر)[33] أصلية، إيه؟" وأخذ يضحك على مزحته. "إلى لندن؟"

أومأت له.

هزّ علبة السجائر، دفع بواحدة منها خارجاً بإبهامه ثم تناولها بفمه. مرّر إليّ العلبة لكني هززت رأسي.

سألني: "رحلة ليومٍ واحد أم إلى الأبد؟" بينما يتلمس جيوبه بحثاً عن ولاعة. لم أجبه. نقر الولاعة ورأيت وجهه على ضوء الشعلة، كان أحمراً ومجعداً. عاد يسألني: "ما عمرك، حُبّي؟" يزفر الدخان مع نفسه.

لم أجبه.

---

(33) (بلاكبورن روفر- Blackburn Rover) هو اسم نادي كرة قدم في مدينة بلاكبورن، وكلمة Rover تعني: الرحّال. م.

"في السابعة عشر؟" سحب نفساً آخر من سيجارته، وأخذ يتأمل الطريق كأنما الطريق ملكٌ له، المسّاحات تتراقص على الزجاج الأمامي، وبدأ يدندن Just seventeen، you know what I mean [34] ثم قال: "إن أردت سأقلّك إلى لندن حبّي، سأقلّك إلى حيث سآخذ اللحم."

التفت إليّ وحدقّتُ مباشرة في عينيه. سألني: "لم تحدقين بي؟"

وأجبته: "تذكّرني بوالدي."

هي عبارة جيدة، عبارة مفيدة تشكمهم في مكانهم. فقد استخدمتها من قبل. وفي الواقع هو ذكّرني به، بعض الشيء.

وقد كان شماعتي، أبي، أبي بيل. هو من أُلقي اللوم عليه، وهو العُذر الذي أستخدمه إن حاسبني أحدهم، إن وجدت نفسي أنسل خلسةً إلى بيتي أو بصُحبة سيّارة شرطة تقلّني إلى طريق (أوليرتون). لكني لستُ أوّل من هجر البيت، أليس كذلك؟ أبي من هجره قبلاً، وهو قدوتي.

ربما هو يفكر بي الآن، بصحبة عاهرته في (جزيرة مان)، إن كان فعلاً هناك وتلك هي حياته. يستيقظ في ساعة الصباح الأولى، يشعل سيجارته. المطر على النافذة. أتساءل ما الذي تخطط له ماندي، يا ترى ما الذي تفعله تلك الفتاة الآن.

اعتاد أن يقول لي: "أنت فتاةٌ شريرة ماندي، أنت فتاة خبيثة." لكن دائماً مع ابتسامة متكلفة أو غمزة أو طقطقة لسان، سواء أخطأت في تصرفٍ ما أو لم أخطئ، كأن عشرة بالمئة يقصد بها استفزازي، أما التسعون الباقية فيقصد بها تشجيعي. "أنت فتاةٌ خبيثة، لا أدري إلام سيغدو عليه حالك." ينظر إليّ وكأنما سيضطر يوماً ما لإنقاذي من المشاكل. وأنا اعتدت أن أقول عن أبي، لأن فيه لمحة من خبث، وكذلك هو مختلف عمّا تصف به الفتيات آباءهن، "أبي بحّار." البحّار بيل، البرنقيل بيل.[35] ليس كأن العمل على سطح عبّارة يجعل منك بحّاراً حقيقياً. (فليتوود) إلى

---

(34) من أغنية: I Saw Her Standing There لفرقة البيتلز (1963). وترجمتها إلى اللغة العربية هي التالي: في السابعة عشر، إن فهمت ما أعنيه. م.

(35) البرنقيل: حيوانٌ بحري قشريّ يلتصق عادةً بجوانب السفن والصخور والأسماك الكبيرة. م.

(دوغلاس) ذهاباً وجيئةً في ظرف يوم. وفي الشتاء من (هيشام) إلى (دوغلاس)، ساعةً أطول. لكن حين اعتدت سماعه في الصباح الباكر يغادر البيت، يحاول بعث الحياة في سيارة (هلمان) المتهالكة، كنت أقول لنفسي ها هو أبي يتجه للبحر، أبي بيل، يبحر على الرحلة المغادرة، ويعود مبحراً في الرحلة القادمة.

عدا أن يوماً ما لم يعد.

لم أُشِر إليه قط بلقب (سيمان)، لم يكن لقباً لائقاً، وإن كان خبيثاً، لقباً يثير الضحك إن نطقته بالطريقة الخطأ. ما وجه الشبه بين السفينة والواقي؟ في كليهما (سيمين)[36]. حسب ادعائه فقد كان بحاراً حقيقياً فيما مضى. وتسنى له رؤية العالم. شانغهاي، يوكوهاما. لكنه التقى بوالدتي وانتهت أيام الترحال ورؤية العالم، أو هكذا تدّعي أمي. ليلة جامحة في (ليفربول). ذراعان سمراوتان، وشومٌ وأحداثٌ لم أبلغها. stop your roaming، Sailor[37]. يصعب عليّ تخيل أي شيء مما قالته عن التقائها بأبي، يصعب عليّ التصديق أن أمي كانت يوماً ما تلك المرأة، ليس حين ترى من اختارت لنفسها بديلاً عن أبي، نيفيل البغيض من دار البلديّة. «ماندي، أودّ أن أعرّفك بالسيّد لونزدايل.» نيفيل لونزدايل، قسم التخطيط في البلدية. ومن تلك اللحظة قُدّر علينا أن نعيش حياةً مختلفة.

اعتاد أن يجلس قبالتي، وجهه الشاحب في وجهي، يتغمّز مثل قسّ ويقول لي: "إذاً ماندي، من تودين أن تكوني؟ ما الذي تودين فعله حين تكبرين؟" كأنّه بمجرد توجيه السؤال سيرتفع شأنه في عيني أمي. أخيراً رجلٌ محترم، أبٌ يكترث. نيفيل الشيطان. سأكون خبيثة، هذا ما أردت قوله له، سأكون خبيثة مثلما قال أبي أني سأكون. أردت أن أكون ماندي بلاك، وأردت أن أكون خبيثة.

وهكذا أصبحت. تسكعت في الحانات وملاهي الرقص، تلوّيت وصرخت، وسمحت

---

(36) (سيمان): seaman تعني البحّار، وجمعها (سيمين): seamen بحارة، لكنها تُلفظ بالطريقة ذتها التي تلفظ بها كلمة semen والتي تعني الحيوان المنوي. التلاعب اللفظي هو أساس المزحة. لذلك فإن ماندي تشير إلى والدها بلقب sailor لا seaman. م.

(37) من أغنية: Sailor للمغنية البريطانية Petula Clark (1965). ترجمتها إلى العربية التالي: بحّاري، دع عنك الترحال. م.

للأيادي أن تعدو تحت تنورتي، وأسوأ. أقحمت نفسي في المشاكل المرّة تلو الأخرى. حوّلت حياة أمي ونيفيل إلى جحيم، مثلما حوّلا حياتي. حتى أني أخذت مخاطرة أكبر، أخبرت صديقتي المقربة وشريكتي في الخطيئة جودي باترزبي، «ما رأيك؟ لندن. الأضواء البراقة. أنت وأنا.» لكنها لم تأتِ، البقرة! لقد جَبُنَت.

وأظنني، حتى اللحظة الأخيرة، عشت على أمل عودة أبي مع عذرٍ قوي يشفع له غيابه خمسَ سنين. أنّه ما إن يرمي حقيبة ظهره سيرمي بنيفيل خارج باب البيت. وحينها ما كنت لأضطر للهرب.

لكنهم عثروا على سيارته (هيلمان) في (ليفربول)، وليس في (فليتوود). قد يكون رحل إلى أي مكان. وربما هو لا يستمتع الآن برفقة مومس في (جزيرة مان) بل برفقة عاهرات في كل مكان، في شانغهاي ويوكوهاما. حتى اليوم أتخيله في هذه الصورة، ربما هي صورة سخيفة لكني ما أزال متمسكة بها. أنه أبحر إلى المحيط الهادئ. تنانير العشب وأشجار جوز الهند. وما يزال هناك، أصغر بثلاثين عامًا، مع زهرةٍ خلف أذنه. ليس في (جزيرة (مان) بل سمّها (جزيرة وومن[38])).

سألني: "ما اسمك، حبّي؟"

أجبته: "جودي."

"مِكْ. أتريدين أن أقلك إلى عنوانٍ محدّد في لندن أو إلى أي مكان في لندن؟"

"أي مكانٍ في لندن."

"حسنٌ إذاً، سآخذك إلى (سميثفيلد). هل سمعت بها من قبل؟ سنصل هناك في ساعتين. لا بأس حبّي، الأمور على ما يرام، خذي غفوة إلى أن نصل."

وهكذا وصلت (ماندي بلاك)، أو تحت اسمها المستعار الذي تسافر به (جودي باترزبي)، إلى لندن على شاحنة نقل اللحوم، فقط لتلتقطها عربة نقل يقودها

---

(38) جزيرة مان – Isle of Man: هي جزيرة تقع في البحر الإيرلندي، لا تعتبر جزءاً من المملكة المتحدة لكنها تتبع التاج البريطاني. عاصمتها (دوغلاس) وهي وجهة العبّارة التي اعتاد والد ماندي العمل عليها. أما (جزيرة وومن) فإسم تخيلي تسخر به ماندي من والدها، (مان – الرجل، وومن – المرأة). م.

جزار، وبين العربتين لم أختلس حتى نظرة خاطفة على ميدان ليستر. هي القصة الرائجة التي شاعت في كل أرجاء البلد، وربما وصل صداها طريق (أوليرتون). من (بلاكبورن) إلى (بيرموندزي)، مغامرة الهروب والارتقاء في العالم. لكن كلما تذكرت، حين أراهم اليوم محتشدين أمام المتاجر وتحت القناطر متدثرين بأغطيتهم كريهة الرائحة، أقول لنفسي، كم أنا محظوظة. وحين أذكر تلك الفتاة مع حقيبة الظهر التي تحملها متجهة نحو طريق (A5)، أقول لنفسي، تلك كانت مغامرتي، مغامرتي الكبيرة في الحياة، مغامرتي حتى وإن لم تصمد لأكثر من اثنتي عشر ساعة.

هربت من بيتي ووجدت نفسي في بيت آخر في أقل من يوم، رغم أن البيت الجديد لم يكن ببيت حقيقي، ليس حقيقياً أكثر من البيت الذي هربت منه. البيت الجديد كان على عكس ما يبدو عليه: بيت ابنٍ يعيش فيه ولا ينتمي إليه، وبيت إبنة تنتمي إلى البيت ولا تعيش فيه لأنهم أودعوها في دار، أم وأب لم يكونا بأم وأب حقيقيين لأحد، لكن حقيقيين بالنسبة لي.

لِمَ تأقلمت سريعاً مع الوضع؟ لِمَ لَمْ أفر بجلدي بلمح البصر؟ وقتما العالم بأسره كان يقول لنا إننا نعيش التغيير، الأبواب كلها مفتوحة أمامنا. لا أظنني بقيت فقط من أجله، ڤينس. ففي الحقيقة، دائماً رأيت نفسي وڤينس أخاً وأخته، بل أسوأ، أباً وابنته. كان قد وصل توًّا من الشرق الأوسط، «من حديقة عدن اللعينة، حلوتي»، حقيبة ظهره معلقة في زاوية غرفة نومه التي ما إن انتقل إليها حتى انتقل منها لأجلي. «V.I.Dodds ». تفوح منها رائحته، مزيجٌ من العرق وزيوت المحرّكات والخدمة العسكرية. وشومٌ تصل إلى أعلى ذراعه. «العقيها كما تشائين، لكن لن تمسحيها». لذا شعرت معه وكأننا نرتكب خطيئة زنا محارم، كأننا نخاطر بكل شيء. أنت تعيش وهم إثارة الخطر حيثما أنت أكثر من آمن. آمنٌ مثل أمان البيت. وأين؟ في عربة التخييم، عربة العم راي، مثل غجريّين.

من (بلاكبورن) إلى (بيرموندزي)، أحلامٌ كبيرة نُصب عينيّ. لكني في النهاية بقيت وهذا ما أصبحت عليه. عاهرة ڤينس، زوجة ڤينس، أخت ڤينس، ابنته، أمه وكل عائلته. كذلك الإبنة الصغيرة البالغة لجاك وآمي. لذا كأني ما عدت أعرف من

كانت تلك الفتاة الواقفة على طريق (A5). تلك الساعات الإثني عشرة التي قضيتها على الطريق لكانت حولتني إلى أي شخص آخر. من تودين أن تكوني ماندي؟ نوفمبر 67. عام (سيرجنت بيبر)[39]. أربعة آلاف حفرة على طرق (بلاكبورن)[40]، (لانكشاير). لكني لم أهرب الساعة الخامسة صباح يومٍ أربعاء، بل الساعة الثامنة مساء الخميس. ومع ذلك ظلّت الأغنية تتردّد على بالي، كأنها كُتبت عنّي: She's bye، bye،leaving home[41].

قال لي: " حشرة."

"ماذا؟"

" قذيفة موجهة. (V-1)[42]. ساوت البيت بالتراب وقتلت الجميع ما عداي. أنا لست من تظنين، أنا لست ڤينس دودز."

لم أستغرب. عاجلاً أم آجلاً كنت سأخمّن، ليس بسبب ملامحك وحسب، بل من الطريقة التي تنزوي بها في عالمك الخاص، من الطريقة التي تنازلت بها سريعاً عن غرفتك واستعدادك للانتقال منها والنوم في عربة التخييم. هي خدعة خبيثة منك، إيه ڤينس، خبيثة وماكرة.

«دعها تنم في غرفتي.

وماذا عنك ڤينس؟

---

(39) Sergent Pepper: عنوان الألبوم الغنائي الذي أصدرته فرقة البيتلز عام 1967. م.

(40) الجملة مقتبسة من كلمات أغنية "A Day in the Life" لفرقة البيتلز (ألبوم سيرجينت بيبر)، إذ يقال أنَّ جون لينون استوحى هذا السطر من قراءة جريدة (دايلي ميل) التي أوردت في تقرير لها العثور على أربعة آلاف حفرة على طرق مدينة بلاكبورن. م.

(41) من أغنية: She's Leaving Home لفرقة البيتلز (ألبوم سيرجينت بيبر) وفي الأغنية، الفتاة تهرب من بيتها الأربعاء صباحاً الساعة الخامسة. م.

(42) V1 flying bomb: فئة القذائف الموجهة التي استخدمها الجيش النازي في قصف لندن أثناء الحرب العالمية الثانية. تم إطلاقها أول مرة في الثلاثين من أغسطس 1942، من ثم تم إطلاق ما يقارب عشرة آلاف منها بهدف ترويع لندن على مدار ثمانين يوماً، بمعدل بلغ في بعض الأيام مئة قذيفة في اليوم. وقد اشتهرت بصوتها الذي يشبه أزيز الحشرات، ما دعا سكان لندن إلى إطلاق تسمية (الحشرة - doodlebug) عليها. م.

سأدبر نفسي.»

كنت على وشك أن أقول له، «وأنا لست من تظنني أيضاً.» فحينها لم أعرف بعد من تكون ماندي بلاك، كنت ما أزال أكتشفها.

كنت قد أخبرت جاك بالحقيقة، حين كنت جالسة على المقعد جانبه في عربة نقل اللحوم بينما يأخذني في جولة سريعة على معالم لندن: "أنا لا أُدعى جودي، اسمي ماندي، ماندي بلاك من (بلاكبورن)." فسألني: "ومن هي جودي إذاً؟" أجبته: "لا أحد."

محكمة (أولد بايلي)، كاتدرائية (سانت بول)، جسر (لندن)، الضوء ينكسر على صفحة النهر الرمادي.

ڤينس قال لي: "اسمي الحقيقي ليس دودز، بل بريتشيت."

شعرت به يتقلص، ينزلق داخلي، مِلت للأسفل واضطجعت عليه، رأسي على صدره.

"لم يعد حتى سراً، بل حقيقة الكل يعرفها، عدا أنه ما يزال يدّعي عدم وجودها."

"من؟"

" أبي، أعني جاك. لِمَ باعتقادك هربت منه والتحقت بالجيش؟ لأني ما كنت لأقبل على نفسي أن أكون ڤينس دودز، ما كنت لأقبل أن أكون ابن جزار."

"لكنك عدت."

"عُدتُ لأريهم جميعاً."

"يسهُل على الرجال الهرب، اهرب والتحق بالجيش، فر بجلدك إلى البحر."

"هل خدمت عسكرياً في عدن من قبل؟"

بدأتُ ألعق وشومه، إحداها على صورة قبضة وصاعقة وفي وسطها الأحرف (V.I.P). فقلت له: "حقيبة ظهرك مكتوبٌ عليها «Dodds»، فمن تنوي أن تكون ڤينس، من تريد أن تكون؟" وأجابني: "سيّارة!".

"سيارة؟"

"هل رأيت سيارة الجاغوار القديمة في الساحة، موديل 59 ، فئة 9. هي البداية، ألا

ترين؟ هي ليست بعربة قديمة تافهة، هي جاغ، وعلى يدي ستعود جاغوار جديدة."

ثم أخبرني عن السيارات، كل كلامه عن السيارات.

قلت لنفسي ليس هذا ما تخيلته، ليس ما تخيلته على الإطلاق. أنا وجودي باترزبي نطوف أرجاء (ويست إند) ويلتقطنا شابان من شباب فرق الروك.

عربة نقل اللحوم، جندي سابق أظافره ملوثة بزيوت المحركات، الالتقاء برجل ينتمي لتجارة السيارات.

أخبرني أن يوماً ما سيأتيه جاك زاحفاً، وأني سأشهد ذلك اليوم.

لعقت الشعر على صدره.

قلت له: "وكيف تعرف أنني حقاً من تظن؟ كيف ستتأكد أنّ اسمي فعلاً هو ماندي بلاك؟ فقد أكون في الحقيقة أي شخص آخر."

وضعت يدي على قضيبه الدبق.

"أنا لم أخبرك عنّي لأغيظك، ولا لأخدعك. أنا أخبرك كي أريك حقيقة الوضع، حتى لا تراودك أي أفكار خاطئة. ما فعلته هو الصواب، ألا تظنين؟"

"بلى."

"كنت صادقاً معك."

"نعم، ڤينس."

"كنت ما أزال في عمر الثلاثة أشهر، لم أعلم شيئاً، وكيف لي أن أعلم؟"

شعرت بقضيبه يتصلب في يدي.

"أخبرك كي تكوني مستعدة."

"مستعدة؟"

"سيحاول فعل نفس الشيء معك، سيخدعانك بالطريقة ذاتها."

"ماذا؟"

"وأراهنك أن ما نفعله الآن هنا يخدم مصلحتهما."

"ما الذي تتكلم عنه؟"

"حتى لا تراودني الرغبة بالهرب مرة أخرى ولا تروادك أنت كذلك. لذا علينا أن

نربهما أنا وأنت ما سنفعل بهما، سنستقر ونهرب في الوقت ذاته. "

"وكيف تنوي تحقيق ذلك؟"

" السيارات."

شعرت بالأمان في عربة التخييم، كأني في ملاذي السري.

"ما الذي تتكلم عنه؟"

قلبني على ظهري وأقحمه داخلي، رفعت ركبتيّ وتشبثت به.

"لا أظنهما أخبراك بعد؟ بالتأكيد لم يفعلا، أنت لم تعرفي بعد نصف الحقيقة، انتظري حتى تعرفي."

الحياة لا تسير أبداً كما تتصورها. السيدة فنسنت دودز، السيدة دودز للسيارات. زوجٌ في تجارة السيارات، وابنةٌ عاهرة.

أضواء لندن البراقة. وهي براقة بالفعل. أمامنا صفٌّ من المباني العالية كلها مضاءة كأنها أرض معارض، كل واحدةٍ منها مليئة باللحوم والرجال والضجيج، كأن الرجال يصرخون في وجه اللحوم واللحوم تصرخ بهم. ما يزال مظلماً في الخارج، عدا أنه بدا لي أكثر ظلمة مع كل الأضواء في الداخل، الضباب رطبٌ وخانق. شاحنات النقل ترتج محركاتها بينما تتراجع إلى الخلف، وعلى أضوائها بدا رذاذ المطر مثل شرارات براقة، أبواب الشاحنات تُفتح والبِرَك الموحلة تلمع باللونين الأبيض والأحمر، ومزيدًا من اللحم، على عربات اليد، على الأكتاف، تُجَرّ وتسحب نحو الأضواء على يد رجال ملطخين وملوثين بالدم، وجوههم حمراء لامعة مثل الحمولة التي ينقلونها. وقلت لنفسي، يا إلهي، ما الذي أتى بك إلى هنا ماندي بلاك؟ والضجيج من حولي بربرة لا أفهم منها شيئاً، وكأنما اللحوم هي التي تصرخ معترضةً، ما تزال فيها بقية حياة تدافع عنها، لكن في موج الضجيج سمعت صوتاً مألوفاً ولم أصدق أذنيّ، لأني سمعته من قبل، سمعته في التلفاز، على الإذاعة، صوتٌ لم أظنه يصدر عن أحد في واقع الحياة، لكن ها أنا سمعته، سمعته يصدر عن الجميع، يتحدثونه بشكل طبيعي كأنه النفس الصادر عنهم. كأن هذا هو المكان الذي ولد فيه الصوت،

هذا السوق بالذات. (كوكني)[43]. (كوكنيز). (كوك). (نييز). لِمَ الرجال في لندن تتصلب ركبهم؟[44]

قال لي: "سآخذك إلى سوق (سميثفيلد) حبّي، لن تجدي هناك سوى لحومٍ وأفواه، عضلاتٍ ومشاحنات. لديّ عمل سأنهيه أولاً ثم أعود وألتقي بك هناك."

مال عبر الكابينة، مال فوقي، أشار عبر النافذة، وذراعه الأخرى وضعها خلف ظهري، "مقهى كيني. قهوته جيدة ويقدم شطيرة لحم مقدد لذيذة. انتظريني هناك وسأراك." وغمز لي.

وبينما كنت أتسلق نزولاً خارج باب الشاحنة شعرت بالأصوات العالية تنحسر عني لحظة ثم تعود وتغمرني من جديد. سلوب، سلاب، سليرب، انظر ما أحضره مِك معه! شعرت كأني أخوض في الماء في (موركمب)[45]، تحاول الإبقاء على سروالك الداخلي جافاً حتى النفس الأخير. مشيت اتجاه المقهى، أدفع نفسي عبر زحمة اللحوم والرجال والأصوات. ولأكون صادقة، ما كنت أفكر به في أوج مغامرتي الكبيرة هو أني سأنتظره، سائقي مِك. سأسلبه وجبة إفطار على حسابه، سأسايره وأدعه يغمزني ويكزني ويتخيل ما يشاء عني. ثم بكل هدوء مع رمشة عين أو رمشتين سأسأله: "هل لك أن تعود بي من حيث أخذتني، هل لك أن تأخذني إلى أقصى نقطة في الشمال يمكن أن تصل إليها؟"

وما كنت لأتخيّل أبداً أنّ في ظرف ساعة سأركب عربة نقل اللحوم وستأخذني إلى مستقبلي، إلى بقية حياتي. ومن سيقلّني جزّارٌ ضخم، مفتول الذراعين، عريض المنكبين وجهير الصّوت، رجلٌ يبدو مثل عمٍّ لم أعرف بوجوده من قبل، كأنه وقف هنا في هذه البقعة خصيصاً في انتظار قدومي. "لقد جئت إلى المكان المناسب حلوتي،

---

(43) (كوكني – Cockney): يُقصد بها سكّان شرق لندن حيث الغالبية من الطبقة العاملة والفقيرة، كما تعود أيضاً للهجة هؤلاء السكان والتي تعتبر مميزة لهم. م.

(44) النكتة تعتمد على التلاعب اللفظي لكلمة (كوكني). ففي حال فصل الكلمة إلى مقطعين لفظيين، فالمقطع اللفظي الأول هو مرادف لفظ كلمة (cock) وتعني قضيب، بينما المقطع اللفظي الثاني فهو مرادف لفظ كلمة (knees) وتعني الرّكب. م.

(45) Morecambe: بلدة انجليزية ساحلية. م.

إلى قلب لندن، (سميثفيلد)، حيث الحياة والموت، (سميثفيلد)، هل رأيت المبنى هناك؟ تلك محكمة (أولد بايلي). سآخذك في جولة على معالم المدينة، طالما لم تريها من قبل. هيا اقفزي للداخل."

كاتدرائية (سانت بول)، جسر (لندن)، البرج، معالم لم تبد لي حقيقية قبل اليوم. الضوء الرمادي الرطب، كأنه خلق هكذا من أجلها. خفف من سرعته بينما يعبر الجسر. قال لي: "تقضي حياتك كلها هنا، ثم يوماً ما تراها." ثم سألني: "ما رأيك بوظيفة لدى جزار؟ سأعطيك جنيهاً في اليوم إضافة إلى تأمين المسكن والطعام."

فأجبته: "اسمي ليس جودي."

نظر نحوي طويلاً وبتمعن ثم قال: "واسمي ليس ملطخاً بالطين[46]."

وعلى كل حال موعدي على وجبة الفطور لم يصل، أو إن وصل فأنا لم أره، لم يحاول أبداً الوقوف بيني وبين جاك دودز.

الرائحة التي تغريك للدخول هي رائحة قلي اللحم المقدّد. البخار والدخان والثرثرة والضحك. الرؤوس تستدير صوبي، تبتسم بتكلف اتجاهي. لا شيء هنا سوى اللحم والثرثرة. فقلت لنفسي المكان هنا أسوأ حالاً من الخارج. كلهم تعلو وجوههم النظرة ذاتها، فأنا متعةٌ للبصر لكني كذلك اقتحمت عالمهم الخاص. الكل يمضغ ويتجرع، كلهم ضخام وملطخون بالدم وجزارون. كلهم ما عدا واحد، رجلٌ ضئيل غريب يرتدي معطف مطر رمادي، ومن تحت المعطف أرى الياقة وربطة العنق، رجلٌ يبدو كأنما لا ينتمي إلى هذا المكان تماماً مثلي، يجلس هناك يمزج بملعقته الشاي ويمزج ويمزج ثم يرفع نظره إليّ ويحدق بي، كأنه كان يسرح في عالمٍ آخر بعيدٍ عن هنا وأنا خرجت توًّا من ذاك العالم. قلت لنفسي سأطلب من الرجل الضئيل شراء وجبة إفطار لي، اشتر لي وجبة إفطار أيها الرجل الضئيل. تبدو لي رجلاً يمكنني التعامل معه. تبدو حزيناً وآمنا بما يكفي لأطلب منك وجبة إفطار، وليتك تشتري وجبة لك أيضاً إذ تبدو في أمس الحاجة إلى الطعام.

---

(46) مستوحاة من العبارة الدارجة: one's name is mud والتي تقال عن أي شخص تتعرض سمعته للتشويه والتشهير. العبارة في النص الأصلي هي: And my name ain't mud. م.

لذا جلست مقابله، على الطاولة التي يبدو أنه حجزها لشخصٍ آخر، وكان على وشك أن يكلمني، يده ما تزال تحرك الملعقة كأنما يخشى على الشاي أن يتجمد إن توقف عن المزج، لولا أن أن ثلاثة رجال قدموا إلينا وبدا عليه أنه يعرفهم. أحدهم هو الأضخم بينهم، الأضخم بكثير، تقدمهم مثلما يتقدم الضابط العسكري فرقته، ولا أعرف لماذا، لكن هناك أمور في الحياة تعرفها بمجرد رؤيتها، وعرفت في هذه اللحظة أني أستطيع وضع ثقتي في هذا الرجل. نظر نحوي ثم نظر نحو الرجل الضئيل، ثم نظر نحوي مرة أخرى، تعلوه تلك النظرة التي كانت تعلو وجوه الرجال فيما مضى، رجال من عمر معين، كلما وقعت أعينهم عليّ، لكن ليس الآن، ماندي دودز، كأنما يتمنون لو كانوا أصغر بعشر أعوام لكنهم معترفون بحقيقة أنهم من جيل والدي. ثم نظر مرة أخرى مع ابتسامةٍ خبيثة نحو الرجل الضئيل الذي أخذ يحاول شرح الوضع لكنه ارتبك وأخذ يبلع ريقه: "تلك هي..." فأجبت، "أنا جودي، من (بلاكبورن)."

لمحت التأنّي على وجه الرجل الضخم. ثم سرعان ما تكلم بصوته الجهوري، صوته الصادح، الصوت الذي لم يدرك ولن يدرك ولن يهتم إن أدرك أنه صوتٌ صادحٌ وجهوريّ، صوتٌ لا يخشى أن يسمعه الجميع: "هذا تيد، هذا جو، وأنا جاك دودز. وقد التقيتِ بصديقي راي. طالما أنت مع راي فستكونين على ما يرام، راي يعمل في التأمين، وراي محظوظ، ضئيل لكن محظوظ. لكن كما ترين يحتاج إلى تناول كثير من الطعام."

ڤينس

إن لم يفِ بكلمته، سألكم حسين وأطيح به أرضاً هو الآخر كما فعلت بليني. سألكمه على خصيتيه السمراوتين، لكمة عن المرسيدس، ولكمة عن جفائه مع كاث.

ثمن السيارة وألف جنيه فوقها، وسيسلم من شرّي.

عليّ أن أدفع ثمن هذه البذلة، هذه البذلة الملعونة.

وإن لم يفعل، فسأضطر إلى ضربه على وجهه، أرجو أن يتفهم. ولن أتساهل معه ولن أسايره مثلما فعلت مع ليني صاحب الخطافية اليسرى الهرمة، رأس المربى العجوز تايت. فنحن لا نتكلم هنا على فاكهة وخضرة.

حتى أني لست مضطراً لضربه بنفسي، هناك من يفعلها نيابةً عني.

وعلى أي حال أظنه يعلم بكراهيتي له. نصف متعته في التعامل معي نابع من إدراكه كراهيتي العميقة له. ليست السيارات والجنس فحسب ما تثير متعته. بل تثيره رؤية الابتسامة على وجهي وأنا أكيل له المديح كأني خادمه المطيع بينما في عقلي أكيل له السباب والشتائم، يا رأس المنشفة الحقير، في عدن كنا نطلق النار على جماعتك. وجماعتك تصرخ في جنودنا ترجو مساعدتنا.

الرقيب قال لنا «نحن مسؤولون عن تصليح المحركات، لا الأجساد»

يقينه أنه عرف كيف يحجّمني. كأنما عرف بمجرد النظر إليّ – فأنا لم أخبره أبداً لكني أظن كاث فعلت، أظنها ذهبت وأخبرته بكل شيء – أنني كنت هناك منذ زمن، رافعاً العلم، أمسح الزيت بالخرق البالية في تلك المصيدة الحارة العفنة الموبوءة بالذباب والقذارة التي من المفترض أن يعيش هو فيها الآن بدلاً عن سكنه في نهاية شارع (بيرموندزي)، ينسل من بيته الزجاجي الفاخر هناك، يدفع بي للبحث عن سيارات فاخرة، يدفع بي لأقول له: «أنت محق سيد حسين، نعم سيدي، سيد حسين،» كلما لوّح لي بمحفظته.

زيت مقابل زيت، هذا ما أسميه، زيت مقابل زيت لعين. وفي النهاية ما هي إلا لعبة

يتسلى بها.

انظروا، ها هو ڤينس دودز الذي باع ابنته لعربيّ.

أول مرة دخل فيها معرضي، يدخل ومعطفه ينسدل على كتفيه ونظارته الشمسية في جيبه العلوي ومن الواضح لي أن لا حاجة له للتسكع في منطقة متواضعة كهذه. نعم أهالي المدينة بدأوا يرزحون تحت الضغط الاقتصادي وأضحوا يأتون إلى منطقتنا للشراء، ميزانيتهم تنخفض وتجارتي ترتقي، لكن قواعد اللعبة لا تنطبق عليه. لا حاجة به ليتعامل مع معرض دودز للسيارات، بإمكانه شراء ما يريد من ساحة (بيركلي). لكن إن سألتني، أراه موبوءاً مثل جماعته، مهما ارتقوا لن يتخلوا عن حماسة المساومة، حمى سوق البازار.

السيارة الوحيدة التي أثارت اهتمامه في معرضي هي سيارة (غرانادا سكوربيو) موديل 85، أخذ يحوم حولها بُرهة من الوقت بما يكفي لأعرف أن فكرة الشراء تراوده، لكني أراه أيضاً ينظر نحو كاث، أراه يتفحصها بتمعن مثلما يتفحص السيارة. هي جالسة على المكتب خلف الفاصل والباب مشرع، وليس خطئي أنها ترتدي تنورة بعرض رباط وقميصًا أبيض ضيّقًا، بينما النساء من حيث أتى يرتدين ملابسهن كأنهن راهبات. ليس خطئي أنها لم تعد طفلتي كاث، أنها بلغت الثامنة عشر ولم تكمل دراستها وعاطلة عن العمل. قلت لها بإمكانك العمل في المعرض لديّ إن أردت، إن كان هذا ما يتطلبه الأمر لتنهضي بمؤخرتك عن الأريكة.

لذا أتركه يحوم ثلاثين ثانية أخرى حتى يتسنى لي معرفة ما الذي سيغريه للشراء. النساء، السيارات، والمفاصلة. فأنا لا اعتراض لديّ على أيّ منها، كلها هوايات نافعة. ثم أسير نحوه، على مهل ودون إلحاح، وأقول: "كيف لي أن أساعدك، سيدي؟" ينظر نحوي، عينٌ تُعلمني أن لا اهتمام لديه للتعامل مع أمثالي، ولا اهتمام لديه لشراء سيارة فورد مستعملة عمرها ثلاث سنوات، والعين الأخرى تحاول اختلاس النظر خلف كتفي اتجاه كاث.

يقول: "كنت أتأمّل الغرانادا."

"سيارة جميلة ومحركها ممتاز، موزونة وأداؤها مرنٍ. قيمتها فيها ولن تجد عرضاً

أفضل مما لدينا، لم لا تأخذها بجولة في الجوار؟"

أراه يتراجع للخلف، لذا أقول بينما أراقب عينيه: "المفاتيح في المكتب، هل أحضرها لك؟" ثم أقول متأملاً ساعتي: "كان بودّي اصطحابك في الجولة بنفسي، لكني في انتظار زبون آخر، موعده الساعة الثالثة، لكني سأرى إن كانت كاثي ستتولى شرف مرافقتك، هل أنت على عجلة؟"

ثم يقول لي متأملاً ساعته، ساعة رولكس لعينة، "ربما لا."

لذا أقحم رأسي عبر باب المكتب وأقول: "كاثي، هل بإمكانك مرافقة هذا السيد أثناء جولته في سيارة الغرانادا، كنت سأصطحبه بنفسي لو لم أكن مرتبطاً، سيّد...؟" أستدير للوراء وإذ به يقف خلف كتفي مباشرة. "سيد حسين." فأكرر لها "سيّد حسين." من ثم ألتقط المفاتيح عن الرف وأقذف بها اتجاهها وتسقط على حجرها. لم أسألها من قبل مرافقة أحدهم في جولة على السيارة، لذا أخذت تنظر نحوي منشدهة. لكن لك أن تعرف أمراً واحداً مؤكداً عن ابنتي كاث، هي ليست بغبية حين يتعلق الأمر بالسيارات، علمت تلك الفتاة كل شيء عن السيارات منذ لحظة حصولها على رخصة القيادة، واستوعبت كل ما علمتها إيّاه بشكل فطري، هي بحق ابنة أبيها.

حتى أنها قادت السيارة خارج المعرض بكل دقة وإتقان.

ليس خطئي أنها خُلقت هكذا، ليس خطئي أنها ابنة أمها.

قلت له: "أعرّفك بكاث، ابنتي كاث. أنت في أمان بين يديْ كاث."

زبونٌ آخر في الطريق، مجرّد كذبة حقيرة بيضاء.

لذا أقول له لدى عودته، "حسنٌ؟ استمتعت بقيادتها أليس كذلك، أرأيت، ڤينس دودز ليس بمحتال، وسياراته ليست بالية." ينظر إليّ وكأنما يقول لي، زد الفتاة على الصفقة وسأشتري، وأنا أنظر إليه كأنما أقول، زد نصف ألف على البيعة والفتاة من نصيبك. أخيراً يقول: "اتفقنا."

ثم يتابع حديثه معي بودية وحميمية، "هي نقطة ضعفي سيد دودز ومتعتي الصغيرة. أشتري سيارة، وما إن أسأم منها حتى أشتري سيارة أخرى عوضاً عنها وهكذا، مثل

الألعاب." معطفه من وبر الجمل. "أريد منك أن تبقي عينيك مفتوحتين على أي سيارة قد تثير اهتمامي، وسأكافئك على الوقت الذي ستبذله من أجلي."

وكنت أدري أنه لم ينو أبداً شراء الغرانادا. وكنت أدري أنه لن يمضي وقت طويل قبل أن يعود لشراء سيارة أخرى ويزيد على الصفقة إذا ما ألمحت إلى افتقادي وجود كاث في المعرض، إذا ما ألمحت أنّ فتاةً في عمرها عليها أن تكسب أجراً محترماً.

انظروا، ها هو ڤينس دودز قوّاد ابنته.

لكنها ليست بالبريئة التي تجهل حقيقة ما تفعل، ليست بالساذجة التي تجهل كيف تعتني بنفسها. هي ابنة أمها. وهي ليست بامرأة محطمة تقتات على الفتات، حالها ليس من حال سالي.

لكن إن قرر التخلي عنها، إن فكر مجرد تفكير برميها في الشارع، سيارة جديدة وعاهرة جديدة، فسيرى ما لن يرضيه. سأقتحم عليه بيته المتأنق وأحطم بابه ثم أحطم رأسه. ولن يعود يهمني بعدها، ولن أكترث إن لم يشتر المرسيدس ويُبقِ الألف الزائدة. ربما لأن الألف ما عادت تساوي شيئاً، ما عادت شيئاً على الإطلاق، مثلما جاك الآن ما عاد شيئاً هو الآخر. لكن كاث هي ابنتي، الوحيدة من لحمي ودمي، وما تزال حيّة تُرزق. هي ابنتي، هي ابنة عائلة دودز. وها هي تحضر جنازة جاك مرتديةً أجمل فستان أسود قصير لك أن تراه على الإطلاق، سعر الفستان ولابدّ لا يقل عن خمسمئة جنيه، خمسمئة جنيه بقيمة بنس. وربما لم أكن أباً جيداً لها، ربما.

راي

كانت تذهب إلى زيارة جوون مرتين أسبوعيّاً، أيام الإثنين والخميس، مواعيد زيارتها منتظمة مثل الساعة، وما تزال هكذا حتى اليوم. وكنت قد تمكنت من تبديل نمط عملي بحيث اقتصر جدول دوامي على ثلاث أيام في الأسبوع، من الإثنين إلى الأربعاء، أقل بيومين مع خصم ربع الراتب فقط، واضعاً في الحسبان هامش الربح. هينيسي قال لي: "أنت مؤهلٌ لتنال ترقية، اسمع مني،" واضعاً أصبعه على شفتيه، "فقط كُن ولداً مطيعاً حتى موعد التقييم السنويّ، هذا كل ما عليك فعله." أظنه أخذ يشفق عليّ بعد هجر كارول لي، فمدحني لدى الإدارة، أو بالأحرى ذكرهم بوجودي موظفاً لديهم. "وأخيراً راي، إن سألتني أنت استحققتها منذ زمن، فكم عمرك الآن؟" أجبته: "خمس وأربعون." لكن لم تكن الترقية ما أسعى إليها، لم أكن مهتماً بمواصلة الارتقاء في التأمين. بل العكس. فقلت له: "إن أرادوا مكافأتي حقاً، فما أريده هو ساعات عمل أقل براتب أقل، هذا الشيء الوحيد الذي أريده، ولا رغبة لي في نيل أي ترقية."

كان طلباً منطقياً. فلا أحد سواي، أنا وعربة التخييم.

كذلك فالحظ بدأ يحالفني، أصبحت فطناً. كنت بدأت أستحق بجدارة لقبي. فإن كان الكل قد تخلّى عني، فها هي الخيول واقفة إلى جانبي.

فلِمَ لا؟ رجلٌ لا أحد لديه يعيله سوى نفسه، لم لا يرتب حياته بما يمكّنه من ملاحقة ولعه؟ من الإثنين حتى الأربعاء في المكتب، ومن الخميس حتى السبت أرتحل على الطريق المفتوح بين مضامير السباق.

«هو الرجل الغجري داخلي.»

وأي نقصٍ في الراتب عوّضته الخيول معظم الوقت لي، وأحياناً تزيد. ففي النهاية التأمين والرهان تجارةٌ واحدة، كلاهما يعتمد على الاحتمالات.

وسألني هينيسي: "بالمناسبة، من تظن سيفوز في سباق (غوودوود)؟"

وبينما آمي تقضي يوم الخميس في زيارة جوون، أقضيه أنا في ملاحقة الخيول عبر أرجاء البلد. ولوقتٍ طويل ظل السؤال يحوم في بالي، لوقت طويل قلّبت السؤال على لساني، ثم يوماً ما تجرأت ونطقت به. قلت، آمي، لا مكان لدي أذهب إليه هذا الخميس. أظن الخيول ستظل تعدو من غيري. رحلة الحافلة التي تأخذينها طويلة ومرهقة. دعيني أقلك إلى جوون، دعيني أصطحبك معي في عربة التخييم. وهي أجابتني: "حسنٌ راي." وأخذتها.

ربما كانت المرة الثانية أو الثالثة التي أقلّها بها، إما في الخميس الثاني أو الثالث، حين قلت لها: "هل تدرين أني التقيت بك في اللحظة ذاتها التي التقيت فيها جاك؟" نظرت نحوي مستغربةً وقالت: "ماذا؟ أتعني في الصحراء؟" فأجبتها: "نعم. في الصحراء. في مصر." لأول وهلة عبست ثم سرعان ما ضحكت، لذا تشجعت وقلت:"رأيت صورتك." حين قلتها لم أقلها كأني ألهو معها، كأني أحل لغزاً سخيفاً، بل قلتها كأني أقول لها الحقيقة من قلبي. فأنا لم أكن يوماً معسول اللسان مع النساء.

نظرت نحوي مطوّلاً وبحزم، نظرة ثاقبة وناعمة في الوقت نفسه، ولحظتها أدركتُ أنها لطالما عرفت، أو على الأقل تساءلت إن كنت أملك شعوراً اتجاهها منذ التقائنا. رغم كارول، رغم سو، رغم كونها زوجة جاك، رغم فقدانها جمالها. لكن يظلّ هناك جمالٌ في الجمال المفقود، أظن الجمال الذابل محبوبٌ بحد ذاته، يعتمد على وجهة نظرك. وهي لم تفقد جمالها كله، رغم برودة حياتها مع جاك، كلاهما عالقٌ في مكانه كأنهما وضعا نفسيهما في قالب لأعوام عديدة وخرجا منه تمثالين جامدين. كلنا عشنا تلك المرحلة. وكل ما نحتاجه حدثٌ مثير يبعث فينا الحياة من جديد. لطالما كنت مولعاً بها.

وقد كان من صالحي هروب سو ومن بعدها كارول، الواحدة تلو الأخرى، لأني أظنها أشفقت عليّ. ليست الشفقة ذاتها التي أظهرها لي هينيسي. بل أظنها دائماً ما أشفقت علي، وإن كان كل ما تحمله من شعورٍ اتجاهي هو الشفقة، فأنا راضٍ ولن أتذمر. كان طريقاً طويلا إلى ذاك المكان. اعتادت أولاً أن تأخذ الحافلة على موقف 188 إلى (إيليفانت) ثم الحافلة على موقف 44، وأحياناً تضطر إلى تبديل الحافلة في

(توتينج). لم يكن المكان بعيداً عن (إبسوم). لذا حتى على الطريق الذي آخذها عليه، الطريق الذي أعرفه جيداً، حظينا بوقت طويل لتبادل الحديث. لاحقاً، وبعد انتهاء زيارتها، اعتدنا على قضاء الوقت سوياً إما في العربة أو على مقاعد الرصيف إن كان الطقس مناسباً. وقتها أخبرتني أن جاك لم يزر جوون قط، لم يرها أبداً في حياته، سوى تلك المرة الأولى. لم يذهب قط لزيارتها في الدار. حتى ذاك الوقت لم أكن متيقناً من عدم زيارته لها، رغم تخميني دائماً أنه لم يفعل. كنت أعتقد أنه ربما زارها من قبل، أو ربما هو له ترتيبه الخاص في زيارته لها لكنه لم يشأ الحديث عنه. لكني أعرف الآن أنه لم يزرها قط. وهذا كان عيبه بوضوح وبساطة، كما أخبرتني، رفضه القاطع التعرف على ابنته. أما عيبها هي، الذي أدركته، الذي شاركته معي، أنها على العكس منه تماماً، هي واصلت الذهاب لرؤيتها مرتين أسبوعياً كل تلك الأعوام دون أن تصنع زياراتها أي فرق كان. لكنها لا تملك أن تقطع زيارتها الآن، فالأم تظل أمّاً. ولو أنه فقط كلّف نفسه عناء زيارتها بين فترة وأخرى، لكان وازن الأمر بالنسبة لها، وربما كانت ستتخلى عن بضعة مواعيد زيارة وتتركها له، وربما لما كانا تحولا إلى الشخصين الذين تحولا إليه، كل منهما يشدّ الحبل بكل قوّة جهته. لكن ما الفائدة، فالوقت قد فات.

قالت لي أنها اختارت بينهما، إما هو أو ابنتهما. تلك هي الحقيقة. وهي أخذت الخيار الواضح. لم يكن بوسعها أن تختاره هو. وكلاهما أدرك ذلك.

قلت لها من الصعب أن تأخذي هكذا خيار، أو بالأحرى هذا ما حاولت قوله لها، فأنا لست جيداً في اختيار الكلمات: أن تختار الابنة التي تجهل وجود أمّها وربما لن تُدرك وجودها أبداً، ولا تختار الرجل العاقل والكامل والتي ظلت زوجة له لأكثر من ثلاثين عام. ثم نظرت إليّ على مهل وبحذر، كأنما تقول لي هو ليس بمحلّي لأتكلم، وكم خشيت أن أكون قد أسأت إلى علاقتنا.

سألتني: "أتظن جاك يعرف حقيقةً من هو؟"

أجبتها: "لم ألتق في حياتي شخصاً واثقاً من نفسه مثل جاك."

ثم ابتسمت وضحكت في سرّها: "أتدري، هو ليس بالرجل الكبير، في أمور معينة.

هو ليس برجلٍ كبير على الإطلاق."

قلت لها: "بفضله تمكّنت من النجاة في الصحراء." لكني لم أقل لها، كم وددت أن أقول لها وكنت على وشك أن أفعل، «وبفضلك أنت.»

اعتدت على الانتظار في موقف السيارات أثناء دخولها لزيارة جوون، أو قضاء الوقت متسكعاً في الجوار حول المبنى حيث توجد حدائق وممشى، وقد تصادف هناك بعض نزلاء الدار يتنقلون. لم يبد لي أحدهم مختلفاً، حتى أنهم قد يظنّوك نزيلاً معهم.

كلما رأيتها تقطع موقف السيارات وتدخل بوابة الدار، أقول لنفسي كم تبدو وحيدة، حالها من حالي، وسرعان ما أتألم. لكن لم يخطر على بالي، ليس في بادئ الأمر، أن ذهابي لرؤية جوون، القيام بما لم يقم به جاك أبداً، هو ما سيحسم المسألة. وربما هذا أصلاً ما أرادته مني منذ البداية. ربما منعت نفسي لأنه لم يكن صواباً، وما كان يعنيني، فأنا هناك فقط لأقلّها. أو ربما في الحقيقة كنت خائفاً. لكن في الخميس الثالث أو الرابع قلت لها: "هل تسمحين لي بالدخول معك؟" فأجابتني: "نعم راي، بالطبع."

هناك أمور، هناك مشاهد في هذه الحياة، لا أدري ما عليك قوله لدى رؤيتك إيّاها. فأنا لا أدري ما الذي ستقوله عن امرأةٍ ما تزال في العشرينيات من عمرها تتمتع بجسد أنثوي رقيق بكامل منحنياته، جسد لا يختلف عن جسد أي امرأة في عمرها، ولو كانت ترتدي ملابس أفضل، ولو شطبت العيب الوحيد فيها، لسهل عليك وصفها بالجميلة. لكن عيبها الوحيد رأسها المنتفخ الذي يسيل منه اللعاب دون توقف، رأسٌ يستحيل على أحد أن يحبه سوى أمها. لا أدري ما الذي ستقوله عن امرأةٍ في السابعة والعشرين من عمرها، امرأةٍ اسمها جوون لكنها تجهل اسمها لأن لا عقل لها، لا تملك حتى ذكاء طفلٍ في الثانية من عمره. أظن كل ما عليك أن تقول هو أن الحياة ليست بظالمة، ليس حين تراها توقِع ظلماً أكبرعلى إنسانٍ غيرك، والحياة لا تعيقك عن المضي قدماً حين تراها تعيق إنساناً آخر لا حول له ولا قوة، ليس حين تعيقه منذ نَفَسِه الأوّل إلى نَفَسِه الأخير.

لكني أدركت أمراً واحدًا من جلوسي هناك بعد ظهر الخميس، صامتاً وجامداً أنا الآخر مثل جوون، مع تلك الممرضة التي ترمقنا بنظراتها، تتساءل من أين ظهرتُ فجأة. أن الدافع وراء زيارة آمي لجوون مرتين أسبوعياً على مدار اثنتين وعشرين عاماً لم يكن التزامها بأداء الواجب، ولا من باب الاعتياد كما أخبرتني. بل الدافع الحقيقي وراء مواظبتها على الزيارة هو أملها أن يوماً ما قد تتعرف جوون عليها، وربما يوماً ما ستتكلم. كنت ستدرك الدافع الحقيقي بمجرد رؤيتك آمي. وكنت ستدرك استحالة ما تأمل به بمجرد رؤيتك جوون، ولأدركت فداحة الظلم الواقع عليهما. من الظلم أن تضطر آمي لزيارة هذا المكان لأعوام طويلة، ومن الظلم أن تولد جوون هكذا، من الظلم أن ترى أماً في السادسة والأربعين يذوي جمالها بينما ابنتها لم تحظ بالجمال أبداً، ومن الظلم أن تعالج الخطأ بخطأ آخر.

لذا قلت لنفسي، ها هي الخطوة الأولى وأخذتها، كل ما عليّ فعله الآن هو أخذ الخطوة التالية.

جلسنا على المقعد، نتأمل الحمَام. لم يكن هناك من أمر يجبرنا على أن نعود أدراجنا مباشرة، فالوقت الذي تقضيه على الطريق في عربتي هو نصف الوقت الذي تقضيه في الباص. لم يكن لدي ما أقوله عن جوون، لا أدري ما كان عليّ قوله، لكني شعرت بضرورة الحديث عن أمورٍ مجنونة لا علاقة لها بجوون. شعرت بآمي هشة وضعيفة، فهي المرة الأولى التي تزور فيها جوون بصحبة شخص غريب. صديق. وعلى كل حال أظنها كانت في أمس الحاجة إلى عناق. شعرت بها تميل بجسدها اتجاه الهامش الضيق من الهواء الذي تركته بيننا، كأنها أردات أن تميل مباشرةً عليّ، وسرعان ما شعرت بقضيبي يكبر ولأول مرة بهذا الشكل منذ هجرتني كارول. أتساءل إن كن يدركن ذلك متى ما يحدث.

لكن ما قلته لها: "هل وصلك خبر من ڤينسي؟ لقد سمعت أن الجيش سيعيدهم كلهم إلى هنا قريباً."

لكن حين اصطحبتها المرة التالية كنت قد أعددت جيداً كل ما سأقول، فالفرصة كانت تصرخ راجيةً إيّاي أن أنتهزها. كان يوماً مشرقاً من أيام إبريل، ذا نسيمٍ عليل،

يوماً مثل يومنا هذا مع رماد جاك. آمنت يومها أن الحياة لها أن تتغير، بوسعها أن تتغير، حين تيأس منها تماماً. وعلى كل حال انتظرت حتى وصولنا (كالفام) لأجرؤ على الكلام. الشمس كانت تلمع على أغصان الشجر في حديقة (كالفام) حين قلت لها: "لن نذهب اليوم إلى الدار آمي، لن نذهب اليوم لرؤية جوون.". وراودني الإحساس أنها لن تجادلني. "لقد حضّرت كل ما يلزم من شطائر وترمس شاي لنقضي نزهة ممتعة." كان يوم التجمع الربيعي في (إبسوم). "ما رأيك بقضاء يوم في مضمار السباق؟"

لكن لم نحضر إلا جزءاً يسيراً من السباق. وربما كانت المرة الأولى التي أحضر فيها سباقاً ولا أراهن بجدية. ركنت العربة على طريق (دونز) وسرنا بقية المسافة إلى المضمار ووصلنا مع موعد سباق الساعة الثانية ظهراً. راهنا بعضنا، مثل شخصين هاويين، حصانها مقابل حصاني، قيمة الرهان جنيه، وحرصت على اختيارها الحصان الرابح. «القائد الفاتح». سبعة إلى اثنين. لكنت راهنت في السباق، خمسون جنيها، والعودة رابحاً إلى بيتي. لكن الطقس بدأ يتبدل وقبيل انطلاق السباق التالي هطل المطر. يمكنك القول أنّ الطقس وقف يومها إلى جانبي، الحظ كله انصب في مصلحتي. لذا قلت لها: "آن وقت النزهة." وأخذنا نعدو بسرعة اتجاه العربة. أظن في لحظاتٍ مثل تلك يدرك الإثنان ما الذي سيجري، حتى وإن لم يكونا متأكدين من وجوب وقوعه أو كيف سيمهدان لوقوعه، كلاهما خائفٌ منه ويتوق إليه. لكن الأمر الوحيد الذي هما على يقينٍ منه أنّ هذه هي فرصتهما الوحيدة لفعله. هناك على النوافذ داخل العربة ستائر مزخرفة بمربعاتٍ بيضاء وزرقاء، وهكذا لن يرانا أحد. ربما سينتبه أحدهم إن لاحظ ارتجاج العربة. لكني لا أظن الارتجاج طال بما يكفي. قلت لها بينما أسدل الستائر: "كأنه بيت، إيه؟ بيتنا بعيداً عن البيت." المطر أخذ يقرع السّقف. فقلت لنفسي، حتى وإن لم يكن صواباً، فلا يسعني سوى القيام به. آمي اختارت جوون، هي لم تختر جاك، والآن أنا أختار آمي. لم يذو جمالهما، ليس حدّ الذبول. حين توقف المطر سمعنا الحشود تصيح بحماس في سباق الثالثة وعشر دقائق، السباق الكبير، الصوت الغريب لاشتعال

حماس الناس على مجموعة خيول. من بعدها تحوّل المكان إلى موقع التقائنا المعتاد، (إبسوم دونز)، كل خميس، على مدار أربعة عشر أسبوعاً، مع سباقٍ أو بلا سباق. إلى إن حضر ڤينس، ومن بعده ماندي.

ليني

نعم، أنا أعقل من إثارة عراكٍ أنا خاسرٌ فيه لا محالة. لكن هذا ما أفعله، إقحام نفسي في معارك خاسرة. يقولون أنّ أعوامي في الملاكمة هي التي أضرّت بدماغي وأطاحت به، لكن إن سألتني فهم مخطئون، فلا أظنني كنت أملك دماغاً أصلاً لأخسره. فلو كنت أملك ذرة عقل لما عدت إلى حلبة الملاكمة مباشرةً بعد خروجي من الجيش. وقد تعتقد أن خمس سنواتٍ من إطلاق النار والتعرض لإطلاق النار والتقاط بقايا رفاقك عن الأرض ستدفع بك إلى سبيلٍ أفضل لكسب رزقك، سبيل لا تطيح فيه رجلاً آخر على الأرض، لكن لم يكن لدي خيار، فإما الملاكمة أو جر عربة الخضرة والفاكهة، وسبيل الخضرة والفاكهة لا مجد فيه، ولا أرباح سريعة كذلك.

أظنني لقنت ذاك الوغد درساً لن ينساه، بلكمة أو لكمتين، سواءٌ لدي. أشعر بصدري كأنه كيسٌ مليءٌ بالمسامير.

كلٌ يعيش على طبيعته التي ولد بها، فكيف لك أن تقاتل طبيعتك إن كانت طبيعتك القتال. فنحن لسنا مجتمعين هنا لنكرم جاك ونظهر احترامنا له لأنه قضى حياته يحاول تغيير طبيعته إلى أن تحول في النهاية شخصاً آخر. بل نحن هنا لنكرم جاك الذي عرفناه على طبيعته دائماً.

يذكرني بيوم عودتي من القتال دفاعاً عن وطني لأجد (بيرموندزي) مشوهة بحُفَر القذائف الساقطة، حالها أسوأ بكثير من حال (بنغازي)، ولم تجد الحكومة سبيلًا لتعويضنا أفضل من بيت تركيب، ودفتر كوبونات حصص غذائية. فقلت لجوان أفضّل العودة إلى حلبة الملاكمة وضرب رجلٍ آخر اختار مثلي الارتطام على أرض الحلبة، على قضاء يومي أصب جام غضبي على الجميع. لن تفيدك الملاكمة الآن عزيزي، فكر في شيءٍ آخر. لكني قلت لها لا أستطيع منع نفسي عن الركل والضرب، ليس حين تثير الحياة فيك الغضب طوال الوقت. فقالت لي: "هووي، دائماً هناك

سبيلٌ آخر للمضي في الحياة، فقط ارفع رأسك عالياً واعقد عزمك على تحقيق الأفضل بما بين يديك، حالك من حال كل الناس." هي تلك النوعية من النساء. فقلت لها: "لا، ليس إذا ما بين يدي شلنان في اليوم ومساعدات. لكن افرضي أني فزت ببطولة (وورثينغتون)، تلك خمسون ألف جنيه، هذا ما سأعقد عزمي عليه. وما بالك حلوتي؟ فقد كنت تحبين رؤيتي أفوز في الجولات." فقالت: "لكنك اليوم أكبر بسبع أعوام وستخسر لا محالة."

أظنني لم أقتنع بكلامها إلى أن جاءت سالي، حينها هجرت الملاكمة، علقت قفازيّ وآمالي وأغلقت الزمام على شفتيّ ووضعت لساني في بطني. لذا يمكنك القول أنّ ليني تايت ليس هو مَن شكم طبيعته، بل شخصٌ آخر تولى تلك المهمة، شخص طبيعته من طبيعتي، لحمه من لحمي، لكن يبقى شخصاً آخر. الصغيرة سالي تايت. هذا ما جعلني أدرك أيضاً كم الحياة كانت قاسية على جاك، حين عرفته والتقيت به وعرفت بالقصة – ما كنت لألتقي به لولا الإعجاب المتبادل بين الطفلين ڤينس وسالي في ساحة المدرسة – كم كان صعباً على جاك أن يعيش دون معينٍ صغير، لا أحد لديه في هذه الحياة سوى جوون. وكم كانت الحقيقة اللعينة أصعب أكثر على آمي. حتى ڤينس، لا يمكنك لومه على تحوله إلى الولد المشوش البغيض. لذا لا أظنك ستلومني إن اعتقدت بحماقتي وقلة عقلي أن بإمكاني ضم سالي فرداً آخر إلى عائلتهم.

وأظنني كنت سأسامح ڤينسي، لولا أنّ سالي تعلقت بتومي تايسون، لولا ذهاب تومي بسيارة (بي أم دبليو) شبه جديدة إلى ڤينس لم يقدها سوى مالكٍ واحد، معتقداً أن ڤينسي سيعرف حتماً أنها مسروقة لكنه سيسايره كرمى لصداقته القديمة مع سالي. لكن ڤينسي رفض أخذ السيارة منه، والأنكى والأَمَرّ أنه بلّغ عنه، ومع سجل تايسون المليء بالجنح، حكم عليه بقضايا عدة ورُمي في السجن لقضاء المحكومية الأولى من عدة محكوميات. فأصرخ في ڤينسي، «أيها الحقير، إن لم تُرِد السيّارة فهذا شأنك، لكن ما بالك أبلغت عن تومي، ربما تومي قابع في السجن حيث ينتمي، لكن ليتك فكرت في سالي.»

قال لي أنه أدّى واجبه، فهذا واجبه كمواطن أليس كذلك؟ وأنا من يجب عليه التفكير في سالي، فأنا من تبرّأ منها، فهكذا بدا له وللجميع.

يقول لي: "السيارة المشبوهة تظل مشبوهة، وشرائي إياها ما كان ليزيل لطخة السرقة عنها."

ربما كنت سأسامح فينسي، وربما سالي كانت ستسامحني، وربما ما كنت سأقحم نفسي في معركةٍ خاسرة أخرى.

أظنني لقنته درساً ذاك الحقير. سواءٌ لدي، لقنته درساً لن ينساه.

المدفعي تايت. هذا اللقب الذي اعتادوا مناداتي به على حلبة الملاكمة، فأنا خدمت في سلاح المدفعية، ومعروفٌ كذلك بحدة انفعالي. بدا اللقب لي رائعاً، كأن قبضتاي هما مسدساي ولكماتي هي طلقات الرصاص. في النصف النهائي من بطولة (وورثنغتون) وضعوني مقابل طفلٍ هزيل لم يتلق بعد استدعاء الخدمة العسكرية، في عمري نفسه حين دخلت الملاكمة قبل اندلاع الحرب. قلت: "لا منافسة، لا مجال للمنافسة، فما الذي يملكه ذاك القزم ولا أملك أنا ضعفه؟" فقال لي دوغي بينما يشدّ على قفازيّ: "السّيطرة على أعصابه وخطافيّة يُمنى قوية." لكني لم آبه، فبالي كان مشغولاً بالنهائي وأنا لم أطأ بعد حلبة النصف نهائي. هذه عشرون جنيهاً في يدي ستُصمت جوان، وإن وصلنا أنا ودان فيرغسون القتال الكبير في النهائي، فلن يستحيل عليّ الفوز. الجرس رن فدخلت الحلبة سريعاً ومتحمساً، قلت لنفسي هي لقمة سائغة، جولتان على الأكثر. من يومها تحوّل اللقب إلى مصدر سخرية: الملاكم وسط المدفعي تايت المجنون، دائماً غاضب ومتأخر وعقله غير موزون. انقضضت للأمام وتراجع هو، أخذ يثب حولي فقلت لنفسي، أنت لم ترَ شيئاً بعد طفلي المدلل، ولن ترى النهائي. فلم يجرّك أحدهم عبر صحراء ليبيا، صقليّة، ولا عبر إيطاليا الحارقة بشمسها ورصاصها. أنت لا تستحق شيئاً، أنا من يستحق. الرجل ليس برجل إن لم ينل في حياته ولو نثاراً من مجد، شذرة من كرامة، قبل أن يسجل خروجه على العدّاد. لن تستحق النَّفَس الذي بذلته في هذه الحياة إن تركتَ خلفك في السجل تاريخاً مشرفاً في قضية الخضرة والفاكهة. انقضضت عليه

مرةً أخرى لأسدد الضربة القاضية ورأيت وجهه، هادئاً وصارماً وثابتاً مثل الآلة. هي ستّة أعوامٍ تفصل بيننا، فارقٌ إما في مصلحتي أو مصلحتك طفلي المدلل. ثم رأيت قفازه حيث كان وجهه. ثم لم أر شيئاً على الإطلاق، لا شيء مطلقاً. أو بالأحرى رأيت شيئاً. فأنت تعرف ما يقوله الناس عن رؤية النجوم. نعم، رأيتها.

مزرعة (وِكْ)

مثل سريّة جنود، نعود أدراجنا عبر الحقل، لا ننطق بكلمة. تسمع لهاث ڤينسي ولِيني كأنهما يؤديان دويتو موسيقي. ڤينس من يحمل الجرة. يحضنها إلى صدره بحذر وقوة أكبر. كأنما السبب وراء وجودنا في هذا الحقل هو أنّ الجرة فقدت عقلها وفرّت بجلدها وانطلقنا نحن نعدو خلفها محاولين اللحاق بها واصطيادها. الخطأ كله هو خطأ الجرة. عدا أننا نعرف الخطأ خطأ من، وهو بالتأكيد ليس خطؤها، بل خطؤنا نحن. نتقاتل على رماد رجل. والجرة بين يدي ڤينس تبدو وكأنها تهز رأسها خجلاً مما رأته منّا، كأن جاك في الداخل يختلس النظر علينا ويتنهد. فها نحن خلّفنا وراءنا بضعةً منه على الحقل لتدوسه الأغنام. لا أظنه توقّع هذا، لا أظنه توقع هذا منّا على الإطلاق.

الريح تلسع ظهورنا، وما إن اقتربنا من البوابة حتى بدأ المطر ينهمر. بالكاد دخلنا السيّارة قبل أن نبتلّ بالكامل. نعود ونجلس على الترتيب ذاته الذي وصلنا به هنا. ڤينسي يسلمني الجرة، يجفل بينما يأخذ مكانه خلف عجلة القيادة. ثم يتلفت نحوه محاولاً البحث عن أي شيء يمسح به اللطخات على كُمّي قميصه وبنطاله لكنه لا يجد فيستسلم، ولوهلة نجلس جميعاً بصمت في السيارة، المحرك ما يزال مطفأً والمطر يطرق النوافذ من حولنا كأننا في قارب. أتأمل وجه ڤينسي لكنه شاردٌ في عالمٍ آخر، ويصلني من المقعد الخلفي صفير رئتي ليني. نحن لسنا في سيارة، بل في سيارة إسعاف، أو بعد كل ما جرى، نحن في عربة نقل لحوم. كأن كل واحدٍ فينا يتساءل إن كان علينا متابعة الرحلة أو الانسحاب منها لأننا ببساطة لسنا أهلًا لها. انحرفنا عن مسارنا مرتين، تقاتلنا مرة، سكرنا، والآن تبلّلنا.

لكن سرعان ما يعود ڤينسي إلى رشده، يدير المحرك والمسّاحات. عبر النوافذ نرى الطريق يغدو موحلاً تحت المطر والسماء تغدو رمادية ومثقلة بالغيوم، لكن على قمة التل بجانب طاحونة الهواء المهجورة، هناك بصيص من ضياء نراه عبر شتل

الأشجار، كأنما يقول لنا، عن قريب ستنقشع السحب.

"حسنٌ، نحن نبحث عن طريق (كانتربري). ابحثوا عن أي لوحة إرشادية تدل على الطريق (A28) (كانتربري)." ويُدير المحرك.

" كانتبري؟" فجأةً يتوقف ليني عن الصفير، "طالما هي على الطريق فلنذهب بزيارة خاطفة لها، إيه، وبالمرة فلندخل الكاتدرائية اللعينة."

يقولها ليني متهكماً كعادته، لكن ڤينس يجلس وهلة يحدّق بالمطر ينساب على الزجاج الأمامي، السيارة ما تزال على وضعية الوقوف. ثم يجيبه بنبرة عدوانية، "إن كنت ترى ذلك ليني، وإن كان هذا رأيك فلا أرى ما المانع، لم لا نأخذ ليني في جولة حول كاتدرائية (كانتربيري)؟"

أشعر بڤيك وليني ينظران نحو بعضهما على المقعد الخلفي.

مهمةٌ حمقاء أخرى، انحرافٌ آخر عن المسار، هذه المرة برعاية ليني.

ينقل ڤينس عصا التحكم نحو وضعية الحركة وننطلق. لا يقول شيئاً لكن من وجهه أرى أنه جديّ، هو يعني ما قال، بل ويتمنى لو أن فكرة الزيارة خطرت على باله هو.

فهي بالتأكيد أفضل من سيارة مرسيدس باللون الأزرق الملكي.

ڤيك يلتزم الصمت، كأنما دفع مقابل نصيبه من المخالفات ولن يشارك في المهمة أكثر.

لذا أتولى أنا دوره، أدلي برأيي متخيّلا أني ڤيك بينما أتشبث بالجرة الرطبة: "هي فكرة جيدة ليني، بادرة طيبة، سيتشرف حتماً بالزيارة."

راي

ينظر إليّ باستقامةٍ وثبات، باستقامةٍ وثبات إلى درجة شعرت معها بوجهي مرتجفاً مقارنةً به. لا أعتقد أن هناك طريقة أخرى تجلس فيها ليرسموا البورتريه الأخير لك سوى هذه، باستقامةٍ وثبات، دون تململ، دون ادعاء، ودون مواراة. ثم يقول لي كأنما قرأ أفكاري، كأنما قرأ السؤال الذي يحوم في عقلي وعلى طرف لساني، "الناس تفزع رايزي، لكن الفزع لن ينفعك بشيء."

هذا ما اعتادوا قوله لنا أثناء الحرب. القاعدة الأولى لكل جندي: لا تفزع. لكني أبداً لم أفهم كيف لك أن تطبق قاعدةً كهذه، إذ كيف لك أن تأمر رجلاً بالاعتقاد أن النار لن تحرقه. عدا أنّ جاك تقبل القاعدة وطبقها على نفسه وعاش وفقاً لها. مثل تلك المرة التي تعرضنا فيها للمصاعب خارج (السلوم) ووجدنا الملازم كروفورد مرمياً على الأرض مثل الخرقة الدامية، ونائبه يصرخ مذعوراً، "ما عليّ فعله الآن؟ ما عليّ فعله الآن؟" فيقول له جاك: "ما عليك فعله سيدي هو تولي القيادة، فإن لم تفعل أنا سأفعل." وأخذت أقول لنفسي كم أنا سعيد لعدم اضطراري تولي القيادة، فأنا راضٍ جداً بتلقي الأوامر.

وهذا ما يفعله جاك الآن، تولي القيادة، تولي ترتيب الأمور بنفسه.

أقول له: "صعب جاك، صعب." الكلمات خرجت مني كأني لا أعني ذاك الشيء، بل كأني خرجت توًّا من اختبارٍ صعب تضمّن سؤالاً خادعاً.

"وسيكون أصعب على آمي." يقولها بينما ما يزال على نظرته الثابتة والمستقيمة. "إن وجدت نفسك يوماً أمام الخيار، رايزي، إن كان الخيار متاحاً لك، فاختر أن تموت أولاً. فالحياة بعد الفقد هي الأصعب. الفناء ليس بشيء."

"على أي حال، لا خيار أصلاً أمامي، أليس كذلك؟ أعني إن كان الخيار متاحاً من الأساس، فأنت تعرف أنّ لا أحد من عائلتي معي."

ينظر إليّ: "مَن يدري، على أيّ حال أنا محظوظ لأني أول من سيرحل."

" لا، أنا محظوظ."

لا يبتسم، لم تعد المزحة القديمة التي اعتدنا الضحك عليها. أنا لست بمحظوظ أنت محظوظ. يحدق بي، عيناه لا تتركان تفصيلاً يسهو عنه، وجهه لا تستطيع منع نفسك عن التحديق به. لقد رأيت هذا الرجل معظم حياتي، لكني الآن فقط «أراه». أنا لا أرى جاك دودز معلم الجزارة في (سميثفيلد)، (بيرموندزي)، أو جاك دودز الزبون المفضل لدى «العربة والخيول». أنا حتى لا أرى أمامي جاك الكبير، فأر الصحراء، الجندي جاك من سَرِيّة جَمَل القاهرة. مَن أراه أمامي هو الرجل بحد ذاته، الرجل المسؤول عن مصيره، الجندي جاك الذي تولى القيادة.

"سيكون أصعب على آمي، ستحتاج من يعتني بها."

قلت له: "ستأتي هنا في أيّ لحظة، بصحبة فينسي."

"لا أملك شيئاً أصلاً أتركه لها، لا أملك ما يكفي لتعتمد عليه"

أتأمل ما يملك، سريرًا ومنضدة. لا يملك الآن أكثر مما حظيَت به ابنته جوون طوال حياتها.

"إن كان بيدي فعل أي شيء لك جاك، أخبرني."

يداه الهزيلتان مبسوطتان على اللحاف وألمح أصابعه تلتف حول نفسها قليلاً. ثم عيناه تنغلقان. فجأة جفناه انسدلا على عينيه مثل الستائر، مثل عيني الدمية التي اشتريتها منذ أعوام عدّة وأهديتها لابنتي في الكريسماس. ولوهلة أخذت أردد لنفسي لا تفزع، لا تفزع. لكن صدره أخذ يجيش والتورم حول ندبة العملية يعلو وينخفض.

أتأمل وجهه ويديه المبسوطتين على اللحاف. ثم أفكر، لكل واحد منا في هذا العالم مساحته التي يستحيل على أحد أن يطأ عليها، لكن يوماً ما تلك المساحة تعود مشاعاً لا يحتلها أحد. أظنها في النهاية هي مسألة احتلال.

يفتح عينيه. كأنما هي خدعة مارسها معي وأخذ يراقبني عبر شقّ عينيه ليرى إن كنت سأتحول شخصاً مختلفاً لأنه ما عاد يراني. لكن جفنيه يرتفعان ببطء. ترى بياض عينيه أولاً قبل أن تراهما بأكملهما.

يقول لي: "ما زلت هنا، محظوظ؟ نعم، هناك ما تستطيع فعله من أجلي، قل لي، ما أخبار الحظ معك؟"

ڤينس

ما يزال مستلقيًا هناك، مع قناعٍ على وجهه وأنابيب إضافية، في تلك الوحدة الصغيرة التي يودعونهم فيها بعد جرّهم على العجلات خارج العمليات، وحدة العناية المركزة، وما يزال يجهل حقيقة وضعه لأنه لم يصحُ تماماً، لا فكرة لديه على الإطلاق. لا يعرف أنه «متعذّر إجراء عملية جراحية عليه.» وذاك المتشدّق ستريكلاند يخبرني أن العملية لم تأخذ من وقته سوى عشرة دقائق، شقٌّ سريع وخياطة سريعة، يستخدم عبارة منمّقة لوصفها، عبارة طويلة، كأنها تعني عارِضًا من أعراض الشذوذ الجنسي. كأنه فخورٌ بالسرعة التي أجرى بها العملية. لا ينطق لي بالحقيقة مباشرة وبوضوح، بل يدعني أستنتج بنفسي ما يرمي إليه. أنّ العملية كانت ستأخذ ساعتين كما أخبرنا لو وجدوا أنّ بيدهم فعل شيء. «متعذر إجراء عملية جراحية عليه»، نعم هذه هي العبارة، «متعذّر».

أنظُر عبر الرواق وأرى جاك مستلقيًا خلف الفاصل الزجاجي، الأول على اليمين، فأقول لنفسي متعذّر، غير قابل للتصليح. هو ما يزال معنا، لكنه تعطّل إلى لأبد، والآن سيقطرونه لينتظر على قارعة الطريق. وفجأةً تملّكني الشعور أننا نقف جامدين في مكانٍ ما بينما العالم يتجاوزنا بسرعة، بالضبط مثل حركة المرور على الطريق السريع.

يسألني: "هل السيّدة دودز هنا؟" فأجيبه: "نعم، هي فقط ذهبت لتناول كوب شاي بصحبة زوجتي." يلمح ساعته بسرعة ويقول: "هلاّ أحضرتها، طالما أنا هنا سأتكلم معها الآن، سأحادثها في مكانٍ منعزل، ربما في مكتب الممرضة." الحقير. لا يكترث البتة بتأثير ما سيقول عليّ، أو ربما يظن أنّ الأمر لا يعنيني أصلاً، فأنا لست محسوباً من العائلة، أنا موجودٌ هنا فقط لألعب دور المرسال لديه، وتنتابني رغبة جامحة لضربه، لتحطيم وجهه الملعون ذي الأربعة أعين. لكن كل ما أفعله هو الاستجابة لأمره: "حسنٌ سأذهب وأحضرها." لا ينتظرني حتى لأنهي جملتي قبل أن

يشيح وجهه عني ويتفحص كومة الملاحظات التي رمى بها طبيبٌ متدرب تحت أنفه. يدفع نظارته للأعلى ويبتسم نصف ابتسامة مزمومة لي ويقول: "سأكون هنا."

لذا أذهب لإحضار آمي وماندي، لكني لا أشعر بنفسي أتحرك، فقط الرواق والأبواب المتأرجحة هي التي تتجاوزني، مثل المكائن في صالات الألعاب، تقف خلف عجلة القيادة والماكينة تدير عجلة الصور أمامك فتشعر وكأنك فعلاً تقود على طريقٍ حقيقي لكنك في الواقع ثابتٌ في مكانك.

رأيتهما جالستين سويًا يتناولان الشاي، وما تزالان تجهلان الوضع، كل ما تعرفانه أنّ جاك على قيد الحياة، لم ينطفئ محركه على طاولة العمليات، الاحتمال رقم ثلاثة. لكن لحظة تراني آمي باتت تعرف، من ملامح وجهي تدرك حقيقة الوضع دون سماع أيّ كلمةٍ منّي. فأقول لها: "جاك لم يصحُ بعد، وستريكلاند موجود في الجناح ويود محادثتك." أهزّ رأسي لكنه لا يتحرك سوى شعرة، كأنه عالق في مكانه، وتنظر آمي إليّ كأنما ترجوني ألا أضطرها لتسمع تلك الكلمات، لا مني ولا من أحد. كأنما الذنب ذنبها وهي مدركة لذلك وهي آسفة ولا داع لأحد أن يجرّها إلى مكتب الناظر ليعاقبها بينما هي قد تلقّت العقاب مسبقاً، تلقّته بمجرّد معرفتها حقيقة الوضع. لكن من يدري، ربما الناظر ينوي منحها فرصةً أخرى. لا تكرري فعلتك مرّةً ثانية. لذا تنهض عن كرسيها وتشد ماندي على ذراعها. ماندي تنهض هي الأخرى وتومئ لي كأنما تسأل. تبدو جميلة، ماندي تبدو جميلة. فأومئ لها.

نسير عبر أروقة المستشفى التي تنزلق من جانبينا وتحتنا بينما ندّعي أننا نحن من نتحرّك، وآمي تلزم الصّمت ولا تنطق بكلمة إلى أن نقترب من الجناح وإذ بها تقول: "علينا إبلاغ عمّك راي." فأردّ عليها مستغرباً، "ماذا؟" هي لم تناديه بالعمّ راي منذ أعوام: عمّك راي، عمّك ليني. وإذ بي أشعر وكأني عُدتُ ولداً من جديد.

يرانا ستريكلاند قادمين نحوه فيتبادل كلمة سريعة مع إحدى الممرضات ثم يصطحبنا داخل مكتب، لكنه ليس بمكتب ممرضة، هو أقرب إلى غرفة تخزين، ثم يغلق الباب خلفنا. يوجد فقط كرسيان في الداخل، يسحب أحدهما لتجلس عليه آمي والكرسي الآخر عند الباب تجلس عليه ماندي. أقف جانب الكرسي حيث

تجلس آمي، وستريكلاند يتكئ بنصف مؤخرته على الطاولة أمامنا، وما إن يبدأ بالكلام أمد ذراعي خلف رأس آمي وأشد على كتفها وأشعر أنا بيدها تمتد وتقبض على يدي الأخرى.

يخبرنا أنه لا يؤمن بتخفيف وقع الحقيقة، فذلك لن ينفع أحداً. حين بدأ حديثه كان ينظر نحو آمي لكنه سرعان ما أخذ ينظر نحوي، يرفع عينيه عنها متحاذقاً كأنما عليه الحديث معي حتى يصل كلامه إلى آمي، إما هذا أو أنه رأى شيئاً على وجه آمي لم يرد النظر إليه. ليس بوسعي رؤية وجهها، إذ عليّ النظر مباشرةً إلى الأمام، تماماً مثل المتهم الذي ينظر مباشرةً نحو القاضي في انتظار إعلان الحكم عليه قبل زجّه في الزنزانة. عليّ ألا أزيح نظري ثانيةً واحدة عن عينَي الحقير.

وحين انتهى، أرى آمي وكأنها تدّعي أنها لم تسمع شيئاً مما قاله، أنها ليست موجودة حتى في الغرفة معنا. لذا الأمر مناطٌ بي الآن لمواصلة سير الحديث، طرح الأسئلة، رغم أن السؤال الوحيد المطروح هو، إلى متى؟

ستريكلاند يبدو راضياً بسؤالي لأني نقلت الحديث من تخصصه إلى تخصص آخر، هو عامل تصليح وليس تاجر خردة، وما إن يغادر هذه الغرفة فلن يكون له أي علاقة بنا. لذا أخذ يتحدث عن مصطلح آخر، «السّيطرة على الأعراض،» والتي تبدو لي منمّقةً مثل سابقتها، «متعذّر إجراء عمليّة جراحيّة عليه»، وفي خضمّ حديثه أشعر بيدَي آمي تقبض عليّ وتمسك بي وأسمعها تلتقط أنفاسها. ستريكلاند يواصل حديثه عن السّيطرة على الأعراض، عيناه تحدّقان بي، إلا أن آمي تواصل تعلّقها بي، كأنّما هي من تحتاج أعراضها إلى السيطرة. يداها تزحفان عليّ، تتسلّقاني، كأني سلّمٌ سيقود بها إلى كوّة في السقف تفر منّها خارج هذه الغرفة. ويتراءى لي أنّ آمي لن تخرج أبداً من هذه الغرفة، ستبقى محبوسةً فيها إلى الأبد، هذه هي زنزانتها. حالها الآن من حال جوون. فأقف ثابتاً صلباً، مثل السارية، مثل البرج، من أجلها، كي تتشبّث وتمسك بي، بينما صوتٌ يتردد في بالي، هي ليست والدتي، هي ليست بوالدتي. ثم فجأةً نجد أنفسنا خارج الغرفة، كأن شيئاً لم يكن، مرةً أخرى الحياة هي التي دارت بنا، هي التي تبدلت، وستريكلاند اختفى، فرّ على سُلّمه خارج الغرفة. ماندي

هي من تتولّى أمرَ آمي الآن، تمسك بها من ذراعها وتقودها نحو المخرج بينما تلتفت للوراء وترمقني بنظرة حادّة كأنما تقول لي المسألة الآن تخصّ النساء ولا مكان لي بينهما. لكن آمي ليست والدة ماندي أيضاً.

إذاً يفترض بي أن أعالج المسألة مع الرجل. لذا أعود أدراجي إلى الوحدة، قبل اللحاق بهما، وأقف عند سريره أتأمله. لم يستيقظ بعد وعيناه لم تطرفا حتى، يستلقي فحسب وعلى وجهه القناع. ستريكلاند أخبرَني أنه سيُبلغه بوضعه، سيبلغه هو بنفسه، لكن سيمنحه أربعًا وعشرين ساعة كي يصحو تماماً من التخدير حتى يعي تماماً ما سيخبره به. لكني لا أظنها مهمة ستريكلاند، ليس من شأنه هو إبلاغه بالحقيقة.

أقف جانب السرير كأني ما أزال بُرجاً أو سارية. لكن جاك لا يحاول التعلق بي ولا التسلق عليّ، هو مستلقٍ وحسب أسفل مني، فأقول لنفسي ربما من الأفضل له لو يموت الآن، دون أن يستيقظ، حتى لا يعرف ولا يُضطرّ أحد لإبلاغه. فليمت جاهلاً بما جرى والعالم سيتابع المضي على الطريق دونه. فما تجهله لن يؤذيك. مثل حالي، فأنا لا أذكر سقوط القذيفة على بيتنا، لا يمكنني أبداً تذكر سقوطها علينا. قالوا لي طالما كنت تسمع أصواتها فأنت في أمان، الخطر يُحدق حين يعمّ الصمت. لكني لا أذكر حتى سماع الصّمت، لذا لو أنّ تلك القذيفة قتلتني ما كنت لأعرف أصلاً أنني ولدت، وما كنت لأعرف أبداً أنني متّ. ولكنت حينها أي شخص آخر. أنظر إليه كأنما أتأمل منظراً طبيعياً. Golden days before they end[47].

وأقول لنفسي، لابدّ لأحدٍ أن يقول له، لا مناص.

---

(47) من أغنية: It's Over للمغني الأمريكي Roy Orbison (1964). ترجمتها إلى اللغة العربية التالي: الأيام الذهبية قبل أن تنقضي. م.

راي

من أعلى إطار نظارتي، أخذت أحدّق بساعة (سلاتيري).

قال لي: "لن ينفعك الآن التحديق بها."

فقلت: "ما الذي تعنيه؟"

"أعني، أنت وحدك الآن، فلا أظنها ستعود إليك."

"على العكس، ألا ترى؟ بوسعي الذهاب أينما أشاء وقتما أشاء، أنا سيد نفسي الآن، طيرٌ حرٌّ طليق، وإن خطر على بالي التجوال يومين أو ثلاثة فسأنطلق في طريقي ولن أسأل نفسي إلى أين."

تجرعت البيرة وتلمّظت مثل رجلٍ يعرف ما الذي يتكلم عنه.

"ليست بحياة تناسب الرجل، تتجول وحدك، تنام في مواقف السيارات وعلى قارعة الطريق."

"ربما هي الحياة الوحيدة لي، الحياة الوحيدة المتاحة لي الآن." صمتُّ وهلة ثم قلت: "وعلى أي حال، لِمَ تسألني جاك؟"

"كنت فقط أتساءل، إن لم تكن بحاجة إليها، إن لم ترغب بها، سأخلّصك منها."

"أنت؟ وما عساك تريد من عربة التخييم؟"

"حسنٌ، حين هجرتك كارول وانقلعت – اعذرني رايزي – دفعني ما حصل للتفكير بي وآمي، لم أستطع منع نفسي."

أخذت أنظر إليه والتقطتُ سيجارة.

"لا أعني أنّ آمي –ما أعنيه أننا عالقان في حفرة، لا شيء لدينا نفعله، ففكرت لِمَ لا آخذها في رحلات يوم الأحد، وربما سآتي بمن يساعدني في الدكّان وسيتوفر لي وقت أكثر أقضيه معها."

دفع بقدحه على منضدة المشرَب.

"أعني مع مغادرة ڤينسي البيت، مغادرته البلد بأكمله وانطلاقه في رحلته عبر البحار،

وسو أشعر وكأن الجميع ينطلق في رحلته ما عداي أنا وآمي."

نظرت إليه، متمعناً، وأشعلت سيجارتي: "أنت تدري ما الذي دفع بي أصلاً لشراء العربة أليس كذلك؟ فمثلك ظننت أني وكارول عالقان في البيت ولم نر كثيرًا من العالم، فلم لا؟ لم لا أحضر لنا وسيلة سفر، هذا ما فكرت به. وانظر ما النتيجة."

"هربَت،" تجرّع البيرة، "لكن آمي ليست..."

توقفنا عن الحديث بُرهة، لا صوت سوى صوت «العربة» تصلصل في مكانها دون حراك ليلة الجمعة.

"هل آمي على علم بهذا؟"

"لا، سأفاجئها."

"تفاجئها؟ هذا ما ظننته مع كارول أيضًا."

"أدري أنها كلّفتك كثيرًا، سأدفع لك ألفاً مقابلها، نقداً، ولن أساومك عليها. فأنت لا عازة بك لعربة تخييم رايزي، سيارة صغيرة على مقاسك هي كل ما تحتاج."

نظرت إليه، سعرٌ معقول.

"إلّا إن كنت تأمل أنها – أنها ستعود إليك."

أشحت نظري عنه: "سأفكر في الموضوع."

وفعلاً فكرت في الموضوع، طوال الشتاء الذي قضيته وحدي. حتى أني قلت له، "ألا تزال مهتماً؟" كأني مستعدٌ لبيعها اللحظة، وأجابني، "أكيد، بألف مثلما اتفقنا، آمي ستقفز من الفرح." لكني كنت أفكر في أمرٍ آخر، في استخدامٍ آخر للعربة. وبعد المرّة الأولى التي تخطّينا فيها زيارة جوون وتوجهنا إلى (إبسوم)، ذهبت إليه وقلت، "لقد أخذتُ قراري جاك، العربة ليست للبيع."

(كانتربري)

الطريق يتلوى بنا بين التلال، على أحد جانبيه أشجار البساتين تتسلق المنحدر، بُنيّة ومكشوفة ومشذبة ومصطفة كأنها أوراق شوكية على أغصان أجمة. اللوحة مكتوب عليها، (كانتربري)، ثلاث أميال. هناك نهرٌ صغير على الجانب الآخر، ثم سكة حديد، ويتراءى لي وكأن الطريق والنهر والسكة الحديد تتسارع على منحنيات الوادي في سباقٍ بين الثلاثة. وما إن نخرج من الوادي نجد بضعة بيوت وملاعب، وفجأة يقول لنا ڤينس: "ها هي الكاتدرائية هناك." لكني لا أرى أي كاتدرائية. أرى فقط خزان الغاز المنصوب أمامها، والسيارات المندفعة بسرعة على الطريق (A2) أمامنا إما في طريقها إلى (دوڤر) أو (لندن). لو أننا أتينا من طريقٍ آخر، من ذاك الطريق أسفل التل الذي يتفرع منه (A2)، لكنا رأيناها كما المفترض بنا أن نراها، منظرٌ ممتدٌ على مد البصر مع الكاتدرائية تقف منتصبة في الوسط. نقطع الطريق (A2) وتظهر لوحة إرشادية أخرى، «مدينة كانتربري – توأم ريمس[48].» نقترب أكثر لكني ما أزال لا أرى أيّ كاتدرائية، فقط أسوار حجرية، أسوار المدينة، وإذ بها تبدو مثل بلدة مقدّرٌ لك الوصول إليها في نهاية رحلتك. عدا أنها ليست بالمحطة الأخيرة لرحلتنا، فنحن ماضون نحو (مارغايت) على جانب البحر. جاك لم يحدد أبداً في طلبه كاتدرائية كانتربري.

يتبع ڤينس اللوحات المؤدية إلى «مركز المدينة». ما زلنا ملتزمين الصمت منذ صعودنا السيارة آخر مرة، منذ اقترح ليني فكرته علينا، ربما كنا نقول لأنفسنا هذه فكرة غبية أخرى من الأساس وربما من الأفضل ألا نواصل المضي فيها. لكن ها نحن وصلنا هنا، والكاتدرائية متخفيةٍ عن الأنظار على بعد شوارع صغيرة منا، وحتى إن لم نرها فهي رأتنا، فات الوقت على انسحابنا.

---

(48) ريمس – Rheims : تقع مدينة ريمس شمال شرق باريس، وتضم المدينة كاتدرائية ريمس التي شهدت تنصيب ملوك فرنسا. م.

عدا أنّ ڤيك يكسر صمته فجأة ليقول لنا أنه لم ير في حياته قط كاتدرائية كانتربري ولم تطأ قدماه عتبتها، قالها متحمساً ومبتهجاً كأنما يود تذكيرنا أنه هو صاحب الفضل الأول في هذه الزيارة لأنه هو من جرنا إلى تسلق التل نحو النصب التذكاري. ويرد عليه ڤينس: "ولا أنا ڤيك." نبرة صوته عذبة ولطيفة، يصعب معها تخيله قبل نصف ساعة حين كاد يلكم ليني على وجهه. وليني يزايد على الاثنين فيقول إنّه في حياته لم تطأ قدماه المدينة بأسرها ولا أي مدن مجاورة لها. أما أنا فأكتفي بالقول، "ولا أنا." فيرد عليّ ڤينس: "أكيد، فلا مضمار سباق في (كانتربري)." لكن لا أحد يضحك، فما يُشغل بالنا الحقيقة التي فوجئنا بها، كيف كنا سنمضي عمرنا بأكمله دون زيارة كاتدرائية (كانتربري) ورؤيتها. هذا خطأٌ صوّبه جاك لنا.

فجأةً نلمحها، ونرى برج الكاتدرائية يبرز خلف أسقف المباني، ويوجّه ڤينس سيارته نحوها كأنما ينوي القيادة مباشرةً إلى عتبة باب الكاتدرائية، في سيارةٍ كهذه. لكنها تتوارى بين المباني مرةً أخرى وكأنها تتحايل علينا، والشوارع تعرج بك هنا وهناك، لذا في النهاية يستسلم ڤينس: "أظن من الأفضل أن نسير إليها." ويركن السيارة في أحد المواقف.

نغادر السيارة. ما زلت أحمل الجرّة وألتفت نحو ڤينسي كي يحملها بدوره، فهي من حقّه الآن، كأسه التي فاز بها في القتال، لكنه يقول، "دعها معك رايزي." لذا أنحني وألتقط الكيس البلاستيكي الذي ما يزال مرمياً على قدمي تحت صندوق القفازات، وأضع الجرة داخل الكيس. أحمله وأقول لنفسي، أنا من سيحمل جاك إلى داخل كاتدرائية كانتربري.

لابدّ وأننا بدونا زمرةً غريبة. أنا وڤيك لم نبدّ في حالٍ سيء وملابسنا كانت شبه مهندمة، لكن ڤينس هو من تلطخت بذلته بالوحل واتسخت بالكامل. يرتدي معطفه، وبهذا غطّى معظم الضّرر الذي أصاب بذلته ما عدا قدمَي بنطاله حيث اللطخات هي الأسوأ. أما ليني فيبدو وكأنّ أحداً جرّه مسافة طويلة عبر الوشيع. يعرج قليلاً بينما يمشي لكنه يحاول إخفاء إصابته. أتأمّلنا ولا أظننا الأشخاص أنفسهم الذين غادروا (بيرموندزي) هذا الصباح، أربع شباب في مهمة توصيل

خاصة. كأننا في مكانٍ ما على الطريق تحوّلنا إلى رحالة.

يسوّي ڤينس ربطة عنقه ويتناول المشط.

نتّبع اللوحات الإرشادية، «إلى الكاتدرائية.» الشوارع ضيّقة والمباني مائلة، مثلها مثل ذاك الشارع في (روتشستر)، كأنما الشوارع هنا والشارع هناك صورتان من الكتاب السياحي المصوَّر نفسه. هناك كثير من الأماكن التي لا تصلها السيارات، لذا نرى الناس تسير مثلما كانت تسير في (روتشستر)، مثل السياح. الأرصفة رطبة رغم توقف المطر. لكن بين وقت وآخر تعصف الريح، وبالنظر نحو السماء يبدو لي أنها ستعود وتمطر، حتماً سينهمر.

ننعطف مرة أخرى وهناك قنطرة قديمة نمر عبرها وفجأةً لا نرى شيئاً أمامنا سوى الكاتدرائية نفسها، من حولها حقل مفتوح وشوارع مرصوفة بحصىً كبيرة وأناسٌ تمشي. المبنى هائل، طويلٌ وعالٍ، يمتد نحو السماء كأن هناك من متسعٍ بعد كي يعلو، كأنما لم يصل بعد إلى غايته المرجوة.

مقارنةً بها، كاتدرائية (روتشستر) تبدو كأيّ كنيسة قديمة، وما إن تقف أمامها تشعر بصغرك ووضاعتك. تنظر إليك من عليائها فتقول لك، «أنا كاتدرائية كانتربري، فمن بحق الجحيم تكون أنت؟»

لا أظنني كنت سأشعر هكذا لو أني زرتها وحدي، لو أني وجدتها على طريق رحلاتي على متن عربة التخييم، أنزل لألقي نظرة سريعة وأتأمل المعالم. لكني في هذه اللحظة ينتابني التوتر ويشتعل فيّ الحماس لأني بصحبتهم، لأني أحمل جاك. هناك مدخل عبر قنطرة كبيرة يتحرك الناس عندها في صف دائري في انتظار دورهم للدخول إليها عبر بوابة أصغر. نتّجه نحو الصف وكأنما، لأني أنا من يحمل جاك، يفسحون الطريق لي لأتقدمهم، أرفع عينيّ للأعلى وأتأمل القنطرة والأسوار والنقوش والأقفال الغريبة والقبب، وينتابني الشعور ذاته الذي أحسست به عند مدخل الدار حين سمحت لي آمي بالدخول معها.

ليني

كاتدرائية كانتربري. أسألك. كان عليّ أن أُبقي فمي الكبير مغلقاً.
ومع ذلك، فإن جُرعة قداسة ستنفعنا جميعاً على ما أظن، بعد كل ما جرى.
نحو المجد إذن. ارفعوا قلوبكم من أجل ليني.[49]

(49) ارفعوا قلوبكم: Lift up your hearts مقتبس عن السطر الأول من مقدمة صلاة الصّلح وهي ترنيمة كنسيّة. والمقطع كاملاً هو التالي: يقول الكاهن ارفعوا قلوبكم. يقول الشعب هي عند الرب. م.

ڤيك

حقًّا هي تبعث فيك التواضع. أيُّ رجلٍ يعمل في مهنتي سيغمره التواضع بمجرد التفكير بما هو موجودٌ هنا. أضرحة، تماثيل، صور، مدافن ومصلياتٌ كاملة. بينما كل ما أفعله في يوم عملٍ اعتيادي هو تعليبهم وحجز موعد إيداعهم المحرقة لعشرين دقيقة.

أحضرَ لنفسه دليلاً مصوراً، من بين كل ما هو معروض اختار أكبرها وأكثرها بريقاً: «عجائب كاتدرائية كانتربري.» أظنه اتبع المبدأ نفسه الذي أخذه في اختيار ربطة عنقه. يقف أمامنا ويتصفح الدليل بسرعة كأنما لا يود تأمل الكاتدرائية، يودّ فقط رؤية الصور. يقرأ لنا مقتطفات من هنا وهناك كأنه لن يسمح لنا بالتجول في المكان قبل تلقّي المحاضرة.

"أربعة عشر قرناً، أربعة عشر قرناً، تخيّلوا. يوجد ملوكٌ وملكات هنا، وحتى قديسون."

معطفه يستر معظم الضرر الذي أصاب بذلته، لكنه لا يغطّي تلك اللطخة الكبيرة من الوحل أعلى ساق بنطاله الأيسر.

"وحتى كرادلة."

أرمق ليني بنظرة سريعة مع نصف غمرة، وأهز له برأسي قليلاً كأنما أقول له، «فلنغادر ونترك رايزي يعاني وحده.»

وفي النهاية هي ليست بالفكرة السيئة، فضّلُ ليني عن ڤينس، بعد ما جرى بينهما.

"لديهم تسعة عشرة من رؤساء الأساقفة. أتدرون، لو فكرنا في الأمر مسبقاً لكنّا أخذناه أيضاً إلى (ويستمنستر آبي) وكل تلك المعالم الدينية."

أنا وليني نراوغ ڤينس ونتملص شيئاً فشيئاً على حائط الممر الجانبي، نسير على الحجارة البالية، نسير على أطراف أصابعنا.

تبعث فيك التواضع. لكنها أيضاً تريح رجلاً مثلي يعمل في هذه المهنة، فالخيار ليس

متاحاً للجميع، أو حتى إن كان متاحاً فنحن لا نطلب كثيرًا. ادفنّي في كاتدرائية كانتربري، أرجوك! كان من العدل إحضار جاك إلى هنا، والفضل يعود إلى ليني، فدورنا يتوجب أن نوازن الأمور معه بعد ما جرى، كما هو مفترض بالموت أن يفعل. لكن، كما أذكر، جاك لم يكن طلبه متواضعاً. اعتاد أن يمازحني، «أيّ نزلاء جدد؟» فأجبته تلك المرة مع غمزة سريعة ومزحتي المعتادة: «وهل فكّرت جاك بمَ تريد؟». يحدق بي، وجهه يتجعد، ويقول: «أووه لا أدري إن كنتَ أهلاً لها ڤيك، فأنا أصبو إلى الأفخم، ولن أرضى بأيّ قبرٍ أقلّ من هرم!»

ڤينس

آمي قالت لي: "هلّا دخلت وألقيت عليه نظرة؟" وأنا أجبتها: "حسنٌ، سأدخل وألقي عليه نظرة." لم تكن تبكي، صوتها كان هادئاً وواضحاً. لم تكن مصرة ولا لجوجة. بل بدا سؤالها مهذباً لبقاً من باب الكياسة، مثل مضيفٍ يسأل ضيفه إلقاء نظرة على غرضٍ ما. حتى كأني أراها وقد رفعت رأسها قليلاً وظهرها أضحى أكثر استقامة، كأن اليوم هو يومٌ مهم، يومٌ مهمٌ جداً، وواجبها الحرص على إبقاء الأمور مرتبة ومنظمة، كأنّ حدثاً مهماً قد وقع لها وتودّ مشاركته مع الجميع.

كانت قد خرجت توًّا بعد أن رأته بنفسها. قلت لها: "نعم، أود رؤيته." ليس أنّ خيار الرفض كان متاحاً لي. فليس من الأصول رفض دعوة أحدهم لإلقاء نظرة على الجائزة التي اقتناها.

قالت لي: "اذهب عبر ذاك الباب واسأل الرجل الواقف هناك." فأقول لنفسي لا أظنها استوعبت فعلاً ما حصل.

لذا ذهبت عبر الباب وسألت الرجل. كان يرتدي سترة بيضاء متجعدة ووجهه شاحب ومكتنز يليق بالسترة التي يرتديها. نظر نحوي كأنما يطلب مني ألا أتوقع منه الادّعاء أن ما جرى لي يعنيه بشيء، مثلما هو لا يتوقع مني كذلك أن أفهم لم لا يعنيه أمري بشيء.

مكتوبٌ على المدخل «مصلّى الراحة». سألني: "سيد دودز؟" وتساءلت أيهما يعني، فأجبته: "أنا هو" بينما كان من المفترض أن أجيبه، «هذا هو.» على أيّ حال أشار لي: "اذهب هناك."

هي حجرة صغيرة مع فاصلٍ زجاجي على امتداد جانبها، وفي نهايتها مدخلٌ دون باب إن أردت الدخول، وإن لم ترد، لك أن تكتفي فقط بالنظر عبر الزجاج. على الجانب الآخر من الفاصل أرى جاك مرفوعاً على شيءٍ ما، ومستلقيًا على ظهره، لكني أخذت أقول لنفسي هذا ليس بجاك، ما أراه ليس حقيقةً هو، وأظنني كنت

محقاً.

رأسه هو الجزء الوحيد الذي تراه من جسده، فقد لفّوه بالكامل بغطاءٍ وردي شاحب يشبه الستارة أو مفرش الطاولة، لفّوه بالكامل حتى ذقنه. كذلك غطوا ما كان يستلقي عليه، فبدا لي وكأنّ جاك هو رأسٌ فحسب، لم يكن هناك من جسد، لم يكن هناك من جسدٍ ميّت.

سرت عبر المدخل المفتوح ووقفت جانبه. رائحته باردة. قلت لنفسي هو لا يعرف بوجودي هنا، ولن يعرف أبداً بوجودي هنا، إلاّ. ثم خطر على بالي أنّ من يستلقي أمامي ليس بجاك دودز، مثلما أنا لست بفينس دودز. لأنّ لا أحد منّا هو أحد، لا أحد منا أكثر من مجرد جسد، جسده هو، وحتى الجسد سيضحو في النهاية لا أحد.

عدا أنك لن ترى جسده تحت غطاء الطاولة.

بقيت واقفاً أتأمله وشعرت بجسدي يستقيم ويطول، كأنني لست واقفاً هناك وحسب، بل أقف فخوراً منتصباً مثل ما حدث مع آمي. كنت أقف بوضعية الاستعداد. كأنّ بادرة التعاطف الوحيدة التي لنا أن نصنعها هي ثباتنا مستقيمين منتصبين ومتحجرين مثل جاك تماماً، لكن وقوفاً.

ثم راودتني الرغبة في رؤيته عارياً. عليّ أن أراه عارياً، ففي النهاية كلنا عراة، ألست محقاً؟ هو عارٍ، تحت غطاء الطاولة هو عارٍ تماماً. عليّ أن أرى جسده، عليّ رؤية يديه وقدميه وركبتيه وحتى خصيتيه اللعينتين وكل شيء. عليّ أن أرى جسد جاك دودز. لأن هذا هو جاك، جاك دودز، لكنه لا يبدو لي جاك، بل يبدو لي وكأنه قداسة البابا اللعين. عراةً نأتي وعراةً نرحل. لكنهم أعدوه وجهزوه لنا كي يبدو مثل قداسة البابا.

راي

أقول له: "لا بأس ڤينس، بإمكانك الذهاب."

ذلك أنّي جلست فجأةً على أحد المقاعد الخشبية في الكنيسة، متشبثاً بالكيس، ألهث مثل رجلٍ مسن انقطع نفسه بعد جولة تسوّق.

ينظر للأسفل نحوي ممسكاً بالدليل، وأرى ليني وڤيك يقفان نهاية الممر، لقد انسلاّ من هنا ببراعة، كأنهما عرفا أنّي وڤينس قد نحتاج لمناقشة بعض الأمور العالقة بيننا.

" أنت بخير، محظوظ؟"

"نعم، فقط امنحني دقيقة."

يصفق الدليل: "كنت أثرثر أليس كذلك؟"

" لا، ليس هذا."

يحدق بي.

لا مكان للاختباء، إن كان حقّاً ما يقولون، حتماً ليس في كنيسة. «هو» يرانا ويرى كل شيء ويعلم بكل أفكارنا وسرائرنا، هذا هو المفترض. فإن لم يكن ڤينس على علم، إن كان عاجزاً عن معرفة سرائري، وإن كانت الألف هي له من الأساس، وهو من منحها لجاك في أيامه الأخيرة على فراش الموت، فلن يجرؤ على طلب استعادتها، ليس الآن. فلا يمكنك طلب المال الذي تبرعت به لصندوق خيري. هو لن يخبر أحداً.

وجاك لن يخبر أحداً.

ينظر إليّ: "هل أنت متأكد؟"

" نعم، فقط امنحنا دقيقة، اذهب وتجول في المكان."

ينظر إليّ. ثم يجول ببصره بسرعة نحو الأعمدة والأقواس والنوافذ، ثم ينظر إليّ مرة أخرى كأنما استوعب حقيقة الأمر. عدا أنه لم يستوعب شيئاً على الإطلاق.

وأقول لنفسي، يا لي من آثمٍ بائس. هذا ما يجب عليك أن تقوله لنفسك، آثمٌ بائس. عليك أن تخرّ راكعاً على ركبتيك. لكن كل ما شغل بالي فجأة هو شتّان ما بين هؤلاء

الأموات حولي والجرة التي أحملها على حجري، شتان بين أصحاب المجد الإلهي وجاك مع محاقن أوردته. فما قيمة جرة بلاستيكية أمام هؤلاء؟ ما قيمة حياة تافهة وضيعة أمام أربعة عشر قرناً؟ هو الشعور ذاته الذي انتابني لدى حضورنا المراسم في المرمدة[50]، شعورٌ احتفظت به لنفسي ولم أشاركه مع أحد، أنّ لا شيء من هذا له علاقة بجاك، ولا شيء. لا الستائر المخملية، ولا الزهور، ولا الصلوات ولا الموسيقى. جلست هناك أتأمل الستائر، أحاول جاهداً ربط ما يجري من حولي بجاك، وإذ بفيك يقترب مني ويربت على كتفي، "بإمكانك الذهاب الآن راي." لأن لا شيء هنا له علاقة بجاك، ولا حتى رماده، فجاك أضحى لا شيء.

لذلك كان عليّ أن أجلس، أهمد في مكاني، كأنما تعرضت لضرب مبرح، كأن ڤينسي وجه لكمةً على وجهي.

" حسنٌ رايزي، على راحتك، هوّن عليك."

" هاك"، أَنْظُر إليه وأناوله الكيس،"سألحق بك." يأخذ مني الكيس بينما ينظر إليّ، كان على وشك دسّ الدليل في الكيس لكنه تراجع بسرعة. ثم ذهب يمضي على مهل على امتداد الممر الجانبي، على امتداد صف الأعمدة، مرتدياً معطفه من وبر الجمل، بقع الوحل على بنطاله. ڤيك وراي يقفان أمام بضعة درجات حجريّة تتّجه للأعلى وكأنما يتساءلان إلى أين يتجهان. ڤينس يلحق بهما. يربت على كتف ليني وليني يستدير نحوه، يناوله ڤينس كيس البلاستيك وليني يأخذه.

(50) فرن لإحراق جثث الموتى. م.

قواعد راي

1. ما يهم ليس الربح، بل كم ربحت.
2. ما يهم ليس الرهان، بل معرفة متى لا تضع الرهان.
3. ما يهم ليس معرفة الحصان، بل معرفة شركائك في الرهان.
4. الخيول العجوزة لا تتعلم حيلاً جديدة.
5. دائماً راقب الأذنين، وأبْقِ على أذنيك مفتوحتين.
6. لا تراهن أبداً بأقلّ من ثلاثة إلى واحد.
7. لا تراهن أبداً بأكثر من خمسة بالمئة من مالك، عدا خمس مرّاتٍ في حياتك.
8. انسف كل تلك القواعد إن كنتَ محظوظاً.

ليني

يناولني الكيس. لا ينظر إليّ، بل عيناه على الدليل. كأن السبب الوحيد وراء إعطائي الكيس هو ليتسنى له تصفح الدليل بسرعة. لكني أرى أن هذا ليس السبب. يتمعن في قراءة الدليل كأنما سيجد فيه كل الأجوبة على أسئلته.

يعلن لنا: "لديهم الأمير الأسود، موجودٌ هنا في مكانٍ ما."

سألته: "ومن يكون أصلاً؟"، لربما سنجد الأميرة بياض الثلج مدفونةً هنا هي الأخرى!

" أظننا سنجد الأمير الأسود.[51]"

"افعل ما تريد أيها الصبي الكبير."

لذا نمشي متثاقلين خلفه، نزولاً بضعة درجات وصعوداً بضعة درجات، متجاوزين كل هؤلاء الشباب المنحوتين من حجر، وجوههم للأعلى، ينبطحون على ظهورهم، في انتظار الحَكَم يعدّ حتى الرّقم عشرة.

أظنه نادمًا، هذا ما يشعر به. أظنه يحاول التكفير عن ذنبه. إن التفتنا للوراء فكلنا لدينا ما يجب التكفير عنه. كلنا ما عدا ڤيك إن صحّ ظني، فيداه دائماً نظيفتان.

وبما أنَّ ثلاثتنا المشاركين في الجرم، إن حسبنا رايزي، موجودون هنا فلنكفّر. فسالي سبق ودفعت الثمن غالياً، لو اعتبرتها من الأساس شريكةً في الجُرم وتستحقّ العقاب، فهي الطّرف البريء، وإن لم تكن بريئة، فهي حتماً الأقل ذنباً بيننا. فلا أظن ما حصل معها حصل دون معرفتها. الجرم في الأساس هو صنيعة ڤينس، لكن أنا من قلت لها حين كشفت لي الحقيقة وأنها تود الاحتفاظ بالجنين، " لا، لن تحتفظي به فتاتي." ردة فعلي الأولى والموزونة بصفتي أباها، بصقتُها كلمة كلمة في وجهها. حاولت إقناعي أنه سيعود ويرتبط بها. قلت لها، «دعك من تلك الحماقات،

(51) ادورد "الأمير الأسود" (1330 – 1376): ابن الملك ادورد الثالث وأحد أبرز القادة الانجليز الذين شاركوا في حرب الأعوام المئة ضد فرنسا. في عام 1355 قاد القوات البريطانية في نصرها على الفرنسيين في معركة (بواتييه) وأسر ملكهم يوحنا الثاني. م.

ما الكتاب الذي كنت تقرئين؟» ومنذ تلك اللحظة لم تغفر لي.

أظنها اللحظة التي انفصلنا فيها فعلاً، اللحظة التي لم نعد بعدها أباً وابنة، لكن لم أدرك حقيقة انفصالنا إلا لاحقاً حين ارتبطت بالحقير تايسون، ومن بعده استقبالها كل هؤلاء النزلاء في بيتها. حينها غسلت يديّ منها. مثلما يفعل فيك. البنات، إيه رايزي؟

أنا مَن عثر على الطبيب ليقوم بالمهمة. أوبريان. وأنا من دبّر المال لأدفع له. أحتاج فائزاً رايزي، أحتاج المال نقداً على وجه السرعة. وهنا لعب رايزي دوره في الجرم.

اتركي الأمر لي ابنتي، فقط استعدي. كان عليك التفكير في العواقب قبل فعلتك. فقط جهزي نفسك واستعدي.

وفي الحقيقة لم أكلف نفسي للحظة عناء التفكير بتلك الروح الصغيرة البائسة. الفكرة الوحيدة التي تقبلتها عنه، العذر الوحيد والنذير السخيف، هي أن الجنين قد يولد وحاله من حال جوون، فخيرٌ له ألا يولد أصلاً. هكذا تحاول تصفية آثامك. لكن في كلا الحالتين تبقى آثمًا.

في واقع الأمر، حين تعود بذاكرتك للوراء، قبل عدّة أعوام مما جرى، تُلقم السلاح وتطلق، تلقم السلاح وتطلق، تصيبهم في معقلهم، عالِماً أنك فجّرت عدداً منهم إلى أشلاء، تفجرهم دون ندم أو حتى تفكير، بل إنك تسعد بمقتلهم، فهم من ماتوا وليس أنت، وبموتهم قلّ عدد من يحاولون قتلك، وعلى أي حال، فأنت لا تفعل شيئاً سوى تنفيذ الأوامر، ما دربوك عليه، حينئذٍ ما قيمة جنينٍ بائس لم يولد بعد، ولن يرى يوماً في حياته؟

المدفعي تايت.

وما يعتبرونه إثمًا وجريمةً ضد القانون في وقتٍ ما لا يعود هكذا في وقتٍ آخر، أليس هذا ما حصل؟ لو حدث ما حدث بعد خمس سنوات لاحقة لكنّا عالجنا تلك المشكلة الصغيرة قانونياً وبلا جلبة. زمنٌ آخر، قوانين أخرى. مثل حالنا مع الحروب، يومٌ نقاتل فيه بشراسة على كومة صحراء كبيرة، ويومٌ ننسحب فيه فجأةً من عدن.

الآن فقط أتأمل ما كان سيكون عليه الحال لو ولد الجنين. هو أو هي. حياةٌ كاملة. كل هؤلاء الشباب المتحجرين. لربما كان سيصبح رئيس أساقفة (كانتربري) التالي. ولربما كانت ستصبح كاث، كاثي دودز. أمٌ مختلفة لكن النتيجة ذاتها. طفلة ڤينس المزعجة. تمارسان اللعبة القديمة ذاتها، كاثي وسالي، وإن كانت كاثي هي الأوْفَر حظاً. حضرت الجنازة بفستانٍ بدت فيه وكأنها فتاة جيمس بوند.

أحمل الكيس، لكني أشعر أنّ لا علاقة له بي على الإطلاق. «متجر روتشستر للأطعمة». ڤيك يسير أمامي. أربت على كتفه وأقول، "هاك ڤيك." كأننا في سباقٍ تتابعيّ حول كاتدرائية (كانتربري)، والدور قد حان عليه.

ڤيك

يقرأ لنا: "ادورد بلانت ادورد بلانت ادورد بلانتاجينت[52]. الأمير الأسود. ابن الملك ادورد الثالث. قائد الجيش الإنجليزي في معركة المئة عام، قاتل في (كريسي) و(بواتييه)..."

مما أسمعه يبدو لي جندياً صالحاً. ومما أراه فهو يبدو كذلك أيضاً، مرتدياً خوذته ودرعه وسترته. الكل يتساوى في الموت.

"... تزوّج من جوان، «عذراء (كِنْت) الجميلة»" أسمعتَ ليني؟ هو أيضاً اقترن بجوان.

ليني يلكز ذراعي بينما ڤينس يتابع القراءة. يمد لي يده التي تحمل الكيس في انتظاري أتناوله. ڤينس يرفع عينيه نحونا، كأنما هو الأستاذ وعلينا الاستماع إليه وعدم الالتهاء في الخلف.

أتناول الكيس.

"... توفي عام 1376 ..."

حسنٌ جاك، إن كان في هذا عزاءٌ لك، إن كان يعني لك شيئاً، فقد وفّرنا لك فرصة اللقاء شخصياً بالأمير الأسود.

(52) عائلة بلانتاجينت: هي الأسرة الحاكمة في انجلترا خلال الأعوام (1154- 1485). م.

راي

تفوح منها رائحة الحجر والمدى والقِدَم. أعمدتها ترتفع وترتفع، وما إن تصل السقف تنبسط وتمتد، كأنها لم تعد بأعمدة، كأنها تحررت من ثقلها وما عادت حجارة، ما عادت مادة. تبدو مثل الأجنحة في الأعلى، متقوسة وممتدة، وأدري، يفترض بك أن تمعن النظر فيها وتتأمل عظمتها وتشعر بها تطير بك إلى الأعلى معها، وقد نظرتُ إليها، أخذت أحدق وأنظر بإمعان إليها، لكني لا أرى ما يتحدثون عنه، لا أشعر به على الإطلاق. العالم الآخر.

لكني سأطير إلى النصف الآخر من هذا العالم، إلى أستراليا. فأنا أملك المال. وهكذا أريح سو من عناء قطع كل الطريق من النصف الآخر من العالم إلى هنا حينما. في حال.

ورغم أني أظنها ستأتي، سأراهن على مجيئها. حتى وإن كنت تظن أنّ قدومها لن يحقق شيئاً، لا معنى له، وهناك مئة شيء يمكن لك صرف المال عليه. سيارة جديدة، حمام سباحة.

وستكون جولة طويلة في ارتياد المعالم، من سيدني إلى لندن، أطول بكثير من لندن إلى (مارغايت). ومتى ما وصلت ستتساءل لم جاءت أصلاً، فلم يعد المكان هو نفسه الذي هجرته منذ أعوام، جذورها، لن تجد كنيسة البلدة والعصافير المغردة في ساحتها، والرب وحده يعلم أين سينثرون رمادي. لكن لا بدّ لأحدٍ أن يتولى المهمة، لا بدّ لك أن تحظى بشخصٍ يقوم بها، وأراهن أنها ستفعل.

لكن بيدي أن أريحها من عناء السفر.

ليني

عثرت على الطبيب المستعد لأداء المهمة، أوبريان. وكم بودي معرفة على أي سجلٍ يوجد اسمه، أو بالأحرى من أي سجلٍ تم شطبه، أريد أن أعرف كيف غسل يديه. طبيب. بل قل جزّار. من عائلة جزارين.

وهو ما يثير ضحكي الآن. أدري، لا يجوز لك المزاح في الكنيسة. لكن حين كان جاك الموجود الآن في الكيس حياً يرزق، لم يكن يرزق بل على الأقل حيًّا، مستلقياً على ظهره مثل الشباب المقدسين هنا لكن لم يتحول بعد إلى حجارة، أسرّ إليّ أنه لطالما تمنى أن يكون طبيباً.

جلست أحدق به، انربط لساني ولم أدر ما أقول. "تدري ما أعنيه، طبيب، دجّال، جرّاح. أشفي المرضى وألاحق الممرضات، شيء من ذاك القبيل. برأيي العمل مع اللحم الحيّ أفضل بكثير من اللحم الميت، ألا توافقني؟»

نظرت من حولي نحو الأسرّة المجاورة ثم عدت ونظرت إليه، لأني ظننته يمارس مقلباً عليّ. "علامَ تقهقه أيها المدفعيّ تايت؟"

"لا شيء، لكنك فاجأتني جاك."

لا أظن صاحبنا الأمير الأسود ابتسم يوماً.

يقول لنا ڤينس بينما ما يزال يدرس الدليل: "فلنلقِ نظرةً خاطفة على الأديرة، ثم نعود أدراجنا."

فأقول: "كما تشاء أيها الصبي الكبير، قدنا هناك."

تبادلنا أنا وڤيك ضحكة مكبوتة وسرنا متثاقلين خلف ڤينس الذي أخذ يتصرف وكأنّ الجولة إجبارية ولن يسمح لنا بالمغادرة إلا بعد إكمالها.

لا يجوز لك المزاح في الكنيسة، ولا في المستشفى على ما يبدو. لكن أن نختم حياتنا مع تمنينا لو كنا شخصاً آخر فهو إما خزيٌ وعار أو مزحةٌ كبيرة، وأنا أختار الضحك على البكاء. وحين أفكر الآن بكل ما جرى وأوازن الأمور، أكتشف أن الصبي الكبير

هو من ضحك آخراً، لأنه مدركٌ من الأساس أنه ليس بفينس دودز، ولم يكن دودز قط، وإن بدأتُ أراه يغيّر من نبرته. لكن بقيّتنا، فلا أحد منّا يدرك حقيقةً من هو. ملاكم، طبيب، جوكي.

كلنا ما عدا فيك.

ننسل عبر المدخل المؤدي إلى الأديرة. لم أعد أرى راي.

اللحم الحي أفضل من اللحم الميت، هذا ما قاله، عدا أننا لن نعرف أبداً رأي جوون دودز الصادق والمجرّب في هذه المقولة. وسالي ستتمنى دائماً لو أنها أنجبت الطفل، طفلها الميت من هذا الأحمق، وإن كنت أتمنى لو أنها تخفف قليلاً من اعتمادها هذه الأيام على اللحم الحي الذي تقتات عليه. خيطٌ رفيع يفصل أحدهما عن الآخر، لكن يظل اللحم لحماً. لا يسعك التبرؤ منه.

ربما أول ما عليّ فعله بعد أدائنا الواجب تجاه جاك هو زيارة سالي. هذا أنا بنيّتي، والدك العجوز، أتذكريني؟ أنا لست بحقيرٍ آخر يطلب خدماتك.

لا يسعك التبرؤ منه. نعم، عليك أحياناً ألا تشجعه، لكن لا تتبرأ منه. مثلما لا يجوز لي الآن، وبينما ننعطف داخل الأديرة، أن أشغل بالي بآمي التي أذكرها قبل أربعين عامًا، حين كانت سالي ما تزال طفلة قادمة توًّا من رحلتها إلى شاطئ البحر. لكن فجأةً ما عدت أستطيع منع نفسي من التفكير بها، لا أستطيع. لا يجوز لك وأنت برفقة رماد زوجها الميت إلى محطته الأخيرة التفكّر في الصورة التي انتصبت بها حلمتاها، وكيف اعتاد فستانها أن يبدو منسدلاً عليها. لكني أفعل.

لا يجوز لك الانجراف وراء خيالاتٍ آثمة وأنت في الكنيسة، لكنك تنجرف وراءها وتسعى لاهثاً للإمساك بها، كأنّ وجودك في الكنيسة حافزٌ لك. لا يجوز لك التفكير في خيالاتٍ كهذه وأنت رجلٌ عجوز في التاسعة والستين يكاد النّفَس فيك ينقطع وما بين ساقيك قضيبٌ مخروم لا فائدة منه. لكني أفعل، نعم أفعل، لأني أصبحت حراً لأفعل، لأني أرى جاك أمامي في الكيس. أتذكر رؤية القُبَل التي تغمر بها سالي فأغار من ابنتي، وكيف كنت أظنّ جاك الوغد الأوفر حظاً بين الرجال. وتلك كانت فكرتي، المجيء إلى هنا. جُرعة قداسة. لم أطلبها له. فلمن سيحكي، لمن سيتبجح

بينما يرتشف قدح البيرة نهاية اليوم؟ رفاقي رفعوا رأسي، حملوني وجالوا بي أنحاء كاتدرائية (كانتربري).

الجرعة هي لنا، كي نعود على مسارنا ونحسّن من سلوكنا وأفعالنا. فأمي ليست معنا لتراقب تصرفاتنا.

أنا أعرّيها الآن في قلبي.

وربما تظن أن ملامح وجهك لن تفضح أفكارك، رغم أن وجهي المهروس لا ملامح عليه تفضح. أحمرٌ مثل جرس الإنذار. ومع ذلك، ليس بيدك منع ملامحك من فضحك، مثلما لا تستطيع منع نفسك من الاستغراق في خيالاتك. فلا يمكنك منع اللحم من أن يكون لحماً.

مثلما اعتاد جاك أن يقول، أتخيله الآن ممسكاً بقدحه في «العربة»، أنّ فيما مضى كان هناك أكثر من سوق لحوم واحد في (سميثفيلد)، في تلك الأيام القديمة التعسة الجيدة. في تلك الليلة كان منتشياً أكثر من عادته على عكس رايزي، أظنه لم يوفق يومها في الرهان. كان عيد ميلاد ڤينسي، عيد ميلاده المفترض. وتلك الساقية الجديدة. لا يجوز لك التفكر في مؤخرة ساقية. رايزي يحاول إلقاء مزحة عن «العربة» وكيف أنها ثابتة لا تذهب إلى أي مكان. الكل كان ثملاً. وجاك يقول: "زقاق (كوك لاين)، (سميثفيلد)، اشتُهرتْ به فيما مضى. تتساءل من أين يأتون بأسماء كهذه. زقاق (كوك لاين[53]) من شارع (غيلتسبر). كلنا قضينا وقتاً هناك، أليس كذلك رايزي، (كوك لاين)، زقاق القضيب، ممر القضيب، كلنا قدنا بالعربة إلى هناك. هذا أكيد."

---

(53) (كوك لاين: Cock Lane) التلاعب اللفظي هنا هو في كون كلمة Cock تعني القضيب بينما Lane تعني الزقاق. وتاريخياً، اشتهر عن الزقاق كونه مقرًّا في العصور الوسطى لبيوت الدعارة. وهو ما قصده جاك لدى إشارته لوجود سوق لحوم أخرى في (سميثفيلد). م.

لذا قلت: "سأذهب بنفسي إذاً."

تريف رفع عينيه.

"كنت أحادث توني، لن يأتي هنا. أياً كان الفيروس الذي أصاب ديك فقد أصابه هو الآخر. بدأوا يتساقطون كالذباب."

"لديك روي. لديك أنا."

"المكان أبعد من (ستن). وأنتما الاثنان عليكما أن تتواجدا في المحرقة الساعة الثالثة والنصف. لا مجال أبداً للتأخير. أنا من عليه أن يذهب. هل بإمكانك التعامل مع عائلة (هاريس)؟"

أومأ تريف لي: "وإن لم تعد قبل ذهابي إلى المحرقة؟"

فأجبته: "حينها علّق لافتة «مغلق»على الباب، استراحة غداء متأخرة، فلا يسعنا الطلب من ماغي حراسة القلعة وحدها." كنت أقف جانب النافذة وابتسمت، "إلا إن أردت الطلب من جاك دودز تبديل مهنته نصفَ ساعة، فطالما عرض علينا هذه الخدمة."

ولحظتها فقط أدركت: حديقة ومستشفى ودار (فيرفاكس) في (تشيم)، حيث تعيش جوون، إلى حيث تذهب آمي، إلى حيث لم يذهب جاك أبداً.

" لا بأس، أنا سأذهب، التغيير سينفعني."

لذا بعد الساعة الواحدة والنصف بقليل تناولت الاستمارات والمفاتيح واستدرت خارجاً نحو المرآب وقدت عربة النقل السوداء ذات النوافذ الخلفية المظلّلة، كنا قد أطلقنا على العربة اسم "ماريا السوداء[54]". أما عربتيّ نقل الموتى فأطلقنا عليهما اسمين ودودين: دوريس ومافيس. فالسفينة دوماً ما كانت أنثى.

(54) ماريا السوداء – Black Maria: هو لقب العربة السوداء التي اعتادت الشرطة نقل السّجناء بها. م.

ليس أنّي توقعت رؤيتها، أو توقعت أنّ هذه المرة ستختلف عن كل المرات السابقة التي زرت فيها دور الرعاية والمستشفيات فقط لأن جوون هناك. فالمستشفى والدار وملجأ العجزة وغيرها من المخازن حيث تنتهي صلاحية الناس هي الأماكن المعتادة التي يُستدعى إليها الحانوتي. وأسوؤها جميعاً هي الدار، لأنك تعرف أنها ليست بدار أحدٍ على الإطلاق، هو فقط اسم لطيفٌ منمق أطلقناه على محطة الانتظار حيث نلقي بالمعاقين والعجزة، أو اسمٌ بديل للاسم الآخر الذي ما عاد مسموحاً لنا بنطقه: مستشفى المجانين. وأنت أدرى بحقيقة الوضع، فغالبية الموتى هناك لم تكن الدار لهم بمحطة انتظار مؤقتة وحسب، بل هي المكان الذي قضوا فيه معظم حياتهم أو حتى حياتهم بأسرها، حياةٌ هي أقرب إلى الموت، حياةٌ لا دار فيها يعودون إليها.

مثلما اعتاد بيرني سنيكرز على الصياح به – مثله مثل أي صاحب فندق – بعد إعلانه للمرة الثالثة إغلاقه أبواب الحانة، «أليس لأحدٍ منكم بيتٌ يعود إليه؟» يصيحها بتلك النبرة العنيفة المفاجئة، كأنما يتعمّد إهانة زبائنه، كأنما يكره كل السكارى والمتسكعين فيرميهم بأسوأ إهانة لك أن تلحق بها الخزي لشخصٍ آخر، معايرته بأن لا بيت له يعود إليه.

ودائماً ما كانت تلك الرحلات حزينة، رحلات الاستلام من مؤسسات الرعاية طويلة الأمد. تستلمهم من صندوق فقط لتعيد وضعهم في صندوقٍ آخر. كأن خيار المغادرة هو بأيديهم من الأساس، فإن فتحت أذنيك جيداً ستسمع صوت المسامير تدق على نعوشهم قبل مجيئي بأمدٍ طويل. مرةً استلمت سجيناً، سجن (وورمود سكربز). أزمة قلبية، واحد وخمسون عاماً. سألت السجّان، "علام هو هنا؟" فأجابني: "قتل زوجته قبل ثلاثة أعوام وحكموا عليه بالسجن مدى الحياة." موته إذاً عفوٌ رحيم. المنبوذون والمجرمون يموتون أيضًا، وكذلك المنفيّون والمنسيون، ودائماً تجد معهم القريب المجبر على تولي شؤونهم. وليس من شأنك أبداً أن تسألهم ما الذي يعني موته لهم. رغم أنك ترى في أعينهم أن الموت لم يأتِ بسيطاً ومرتباً كما أملوا، لم يأتهم بصورة عفوٍ رحيم. وواجبك هنا أن تؤمّن لهم جنازةً محترمة، أن تؤمن لهم ما استطعت من احترام وكرامة في طقوس وداعهم الأخير. فكلّ إنسانٍ يستحق وداعاً

كهذا، وليس من شأنك التطفل عليهم.
ما تتعلمه من مهنةٍ كهذه هي كيف تُبقي فمك مغلقاً.
تستقبلكُ أسوارٌ من قرميد وبوابة ومدخل وحدائق وأشجار، ورغم وجود المكان على طرف لندن إلا أنه يخيل إليك وكأنك دخلت قصر أحدهم في الريف. عدا أنّ صاحب القصر اختلط عليه الأمر وبدا المكان مثل ثكنةٍ عسكرية قديمة نوافذها مغلقة بحواجز من قضبان متصالبة، وما إن تعبر المدخل الرئيسي تغمرك رائحة الحليب الفاسد التي دائماً ما تفوح من تلك المؤسسات، وصوت صرير الأبواب على مدى الأروقة، والصليل المعتاد لعربات الترولّي تنقلهم من مكانٍ لآخر.
تفحصت موظفة الاستقبال بطاقة هويتي والاستمارات، وخطر على بالي أنّ أحدهم يوماً ما سيأتي هنا من أجل جوون، سيقوم بما أقوم به ويحضر معه الاستمارات. إطلاق سراح الروح من الجسد. سيكون الحدث المهم القادم في حياتها. رفعت الموظفة سماعة الهاتف ونقرت الرقم المطلوب على الأزرار ثم نظرت نحوي، نظرت إليّ بالطريقة ذاتها التي ينظر بها من يتحدثون على الهاتف كأنهم لا يعيرونك اهتماماً لكن في الوقت نفسه يحدقون بك ملياً. شعرها المموج كان متيبساً مثل الأسلاك، ونظارتها الموصولة بالسلسلة تتدلى عن عنقها، وقلت لنفسي تلك المرأة قد قضت وقتاً طويلاً هنا بما يكفي لترى غيرها أدنى منها مرتبة، ترانا جميعاً مثيرين للشك. قضت ما يكفي من الوقت لتظن أن بإمكانها إدارة هذا المكان بصورةٍ أفضل بكثير لو أتحتَ لها الفرصة. أنفٌ معقوف وفمٌ متعرّج. حملت السماعة وألصقتها بأذنها، وسرعان ما بدأت تغتاظ لإبقائها منتظرة وتغتاظ مني أنا لرؤيتي إيّاها في وضع الانتظار، فقلت لنفسي كما أفعل دائماً لأهدّئ انفعالي، وأنتِ أيضاً عزيزتي، يوماً ما، أنتِ أيضاً. إطلاق سراح الروح من الجسد.
ثم قالت بنبرة جافة عبر الهاتف، "حسنٌ، سأبلغه." ثم قالت لي متشفية: "عليك أن تنتظر، فالمشرف أخذ استراحة غداء متأخر، ولن يعود هنا قبل الثالثة."
فقلت لها: "لا بأس سأنتظر." وكم كنت سعيداً أني لم أرسل تريف إلى هنا.
تفحصت الاستمارات مرةً أخرى وكأن شيئاً فيها لربما تغير من آخر مرة قرأتها، ثم

أعادت تسليمها لي وانتقلت إلى المهمة التالية على مكتبها كأنها تأمرني بالانصراف. وما إن أدركَت أنّي لا محالة سأوجه لها السؤال قالت لي بازدراء كأن من المفترض بي أن أعرف: "استدر خلف المبنى الرئيسي وسر عبر ساحة المرافق والخدمات."

لكني كنت سأعرف لا محالة، فدائماً هناك مدخنة مرمدة، ودائماً هناك الباب المزدوج الأبيض مثل تلك الأبواب الموجودة لدى المخرج الخلفي للسينما. إن لم تجد أحداً يحوم هناك ولم تجد لوحة تدل عليه فاطرق الباب المزدوج بقبضتك. وشخصٌ ما سيفتح نافذته ويرى ماريا تُقاد إلى الوراء عبر الباب المزدوج.

قالت لي: "الساعة الثالثة."

هو نوعٌ ما من النفور، أو وصمة عار إن اعتمدنا الوصف الأدق. كأنك لا تريد الاحتكاك بالشخص الذي سيتولى مهمة التخلص من نفايتك. أنا اعتدت على التعامل مع تلك الوصمة، حتى أنها أضحت أمراً طبيعياً بالنسبة لي. أبي اعتاد أن يقول لي أنّ الحانوتي هو نصف إله ونصف مجذوب، فإياك وتفسير شعور الناس اتجاهك بشكلٍ شخصي.

فكرت بسؤالها: «هل هناك من مكانٍ هنا لأتناول الطعام؟» ثم عدت إلى صوابي وتراجعت عن السؤال، لكن للحظةٍ مجنونة قلت لنفسي، عشرون دقيقة – وقتٌ يكفي لزيارة جوون، فقط لرؤيتها.

من باب الفضول، أو لا أدري، من أي بابٍ آخر، فقط لأرى ما لم يره جاك ولن يراه أبداً. كان بيدي السؤال عنها وزيارتها بكل بساطة، فالسترة السوداء تملك إدخالك معظم الأماكن. لكني فكرت، وقلت لنفسي لا، ليس لأن زيارتها بالأمر الصعب، ولا بالأمر السيء، بل لأن عليّ أولاً تجاوز هذه الفاتنة.

" الساعة الثالثة." وطويت الاستمارات وأدخلتها جيبي.

لكني تأملت المكان إلى حيث يقود الرواق وقلت لنفسي، هو هنا إذاً. هنا المكان الذي تأتي إليه آمي للزيارة مرتين في الأسبوع، عاماً وراء عام. أتساءل إن كانت تلقي التحية على هذه البقرة، وفي المقابل تتلقى ابتسامةً منها.

وحينها فقط أدركت أن اليوم هو الخميس. بعد ظهر الخميس: بعد ظهر يومٍ

من أيام آمي. فوجدت نفسي متحمساً، أرفع كتفيّ، أشد طية سترتي، مثلما تفعل متى ما عرفت أنك قد تلتقي بشخصٍ آخر دون ميعاد، مثلما هو الحال معظم الوقت مع الحانوتي. فأنت لا تدري بمن ستجمعك به الصدفة، ولا من سينزعج من وجودك. هي ليست بمهنة وحسب، هو مكانك في المجتمع. هذا ما قاله أبي لي. هناك من قد يرى فيني الشخص الأكثر قداسة من بعد القس، ولهؤلاء أقول، «لا بأس بنيّ، نادني ڤيك.»

لذا خلعت عن نفسي جلد رجل الاستلام المتواضع. أصبحت مدير الجنائز ودافن الموتى بعظمته وهيبته، ولا بد أنها لاحظت التغيير عليّ، إذ سرعان ما أشاحت بعينيها عني.

قلت لها: "الجو لطيف في الخارج، سأتنزه بعض الوقت."

الجو كان عليلاً وذا نسيم بارد، الشمس تسطع حامية بين وقتٍ وآخر. مشيت عبر الساحة الأمامية واطمأننْت على (ماريا) وتأكدت من ركنها جيداً، ثم اخترت السير على أحد الممرات المتشعبة عبر الحدائق وراودني شعور الطالب المتغيب عن مدرسته، بهجة الهروب من أداء واجباتك، صاحب العمل يتولى مهمة الأجير، كأني في العشرين دقيقة التي أقضيها هنا سيتسنى لي الولوج والخروج من دورٍ إلى دور مثل الشمس التي تتفادى الاصطدام بالسحب، وسيتسنى لي رؤية العالم من منظورٍ آخر.

من حولي الأشجار ومساكب الزهور. المرضى يتنزهون ويمارسون التمارين في الهواء الطلق. ما المفترض أن نناديهم به هذه الأيام؟ مرضى؟ نزلاء؟ مقيمين؟ بعضهم يتحرك بغرابة والبعض الآخر يقف ثابتًا بغرابة. رجلٌ هزيل اقترب منّي، شفتاه وأصابعه تقبض على عقب السيجارة كأنما يحاول جذب خيطٍ طويلٍ من فمه لكن أحداً في الطرف الآخر من فمه يشد الخيط نحوه. وهناك آخرون بدوا طبيعيين، غير أن ملابسهم القديمة فضحت أمرهم. حتى وإن، إن لم تكن حذراً. فكيف لك أن تشرح لهم أنك لا تنتمي هنا؟ إذاً تظن نفسك حانوتي، من الأفضل لك أن تأتي معنا.

جلست على أحد المقاعد في الحديقة بينما الشمس أخذت تبزغ وتتوارى، تبزغ وتتوارى كرّةً أخرى. الرجل صاحب السيجارة استدار وعاد إليّ كأني استوليتُ على كرسيه، وبينما مرّ من جانبي زمجر مكشراً عن أسنانه، اللعاب يسيل منه وكأنه كلبٌ هائم. لم أخف منه. لا تخف. وتساءلت إن كانت آمي خائفة، إن خافت حين أتت هنا في زيارتها الأولى. لكن النساء لا يخفن، أو على الأقل لا يخفن من الأشياء التي نخاف نحن منها. وأخذت أتأمل، كم من أمواتٍ وجثث رأيت، أجسادهم ميتة إما مكسورة وملوية أو ممتدة ومنبسطة، تراها فتقول لنفسك لقد أضحوا الآن غرباء، غرباء بالكامل. لكن الأحياء هم الغرباء، الأحياء هم من تعجزعن تخمين أشكالهم الحقيقية.

وحينذاك رأيتهما. لا بد أن هناك شيئاً ما يدعوك للنظر. كانا جالسين على مقعد، على أحد المقاعد في الممشى الآخر أمامي على اليسار. لمحت رأس آمي ورأيت شعرها البنيّ يداعبه النسيم، الشمس تلون خصله بأشعتها، وتلك الوضعية التي اعتادت الجلوس عليها، بسيطة ومستقيمة وواضحة كأنما تنتظر الدور يأتي عليها. لكن سرعان ما لمحت راي والذي بدا صغيراً مقارنةً بها، كأنما هو طفلها. عرفته من رأسه المشابه لكرة الخشب التي نلقيها على جوز الهند[55]، ومن طريقته في حكّ عنقه، إيماءته تلك لا أتوه عنها، أصابعه تغوص داخل ياقته من الخلف كأنّ فأراً اندسّ في قميصه. وما إن لمحت البقعة الوردية المكشوفة تساءلت إن كان مدركاً للصّلع الذي بدأ يزحف على رأسه.

لو أني اخترت مساراً آخر لكنت مررت بجانبهما. لكني الآن أنسلّ خلسةً من خلفهم إلى عربة النقل، أكاد أسير على أطراف أصابعي، ولحظتها رأيتها، لا بد أنها كانت موجودة طوال الوقت لكنك لا تبصر ما لا تتوقع رؤيته: عربة راي للتخييم، مركونةً هناك على الجانب البعيد من مواقف السيارات، بلونيها القشدي والأخضر الموحل وذاك الشيء الغريب أعلاها الذي يمتد مثل الأكورديون متى ما احتجت سقفاً أعلى.

---

(55) (لعبة جوز الهند: coconut-shy) هي إحدى الألعاب المعروفة في الكرنفالات والمعارض وتعتمد على رمي اللاعب ثلاث كرات خشبية يلقيها على حبات جوز الهند، فيحصل على هدية مقابل إسقاطها. م.

ركبت (ماريا). ومن أمام العربة كان بإمكاني رؤيتهما بوضوح، خمسون ياردة، اتجاه العاشرة، راي يجلس على طرف المقعد الأقرب إليّ. ورغم أنهما يبدوان كشخصين منفصلين جمعتهما الصدفة للجلوس على المقعد ذاته، إلاّ أنّ المنظر بدا لي وكأنهما كيانٌ واحدٌ من جسدين.

مال راي للأمام وأشعل سيجارة، يداه مكوّبتان حولها كي لا يطفئها النسيم. نفث الدخان ثم تناول السيجارة من فمه، وبنفس اليد التي تمسك السيجارة، كوعه متكئة على ركبته، أخذ يفرك شفته السفلى بإبهامه. كيسٌ ورقي يفصل بينهما ويحوي على ما يبدو بقايا من طعام، ذلك لأن آمي ظلت تغمس يدها فيه وترمي بالفتات نحوالحمام وعصافير الدوري التي تنقر حول أقدامهما. كانت تقذف سريعاً بالفتات وبحدة، كأنها تلوح بيدها لتطردهم بعيداً عنها لا لتطعمهم، لكنّ الفتات يعيدهم إليها من جديد. راي لم يطعم الطيور. ظلَّ يدخن ويفرك شفته ويحكّ عنقه. ثم استقام في جلسته في ذات اللحظة التي مالت فيها آمي للأمام وكأنهما آلة متى ما استقام أحدهما فعلى الآخر أن يميل. مسدت ساقها أسفل ركبتها وكأنها تعاني من ألمٍ هناك.

نظرت إلى ساعتي: تجاوزت الثالثة بثوانٍ. على أيّ حال فلينتظرني المشرف مثلما انتظرته أنا. رغم أنها معاملة بالغة الجديّة، معاملة إطلاق سراح الجسد. فأنت في حاجة للتواقيع والاثباتات وتدوين التاريخ والوقت، ولا يجوز لك التأخر على الموتى فقط لأنهم موتى. تلك من أهم القواعد لدي. لا تتباطأ مع الميت. ولو أنّ توني هو من فعلها لكنت أنّبته بشدة.

الثالثة وخمس دقائق وما يزالان جالسين على المقعد، وعدا دليل طرق بريطانيا فلا شيء لدي في العربة أفعله لأضيّع الوقت. هناك الاستمارات في جيبي لكني أحفظها عن ظاهر قلب: جاين إستير باترسون. تاريخ ميلادها، تاريخ وفاتها. سبب الوفاة: تمدد في الأوعية الدموية. قريبها المباشر: جون ريجنالد باترسون. الإبن. لا بد لي من سؤال المشرف، في حال لم يكن نزقاً، عن المدة التي قضتها هنا.

«سألته، ثمان وعشرون عاماً.»

شاهدت آمي تتكئ على ظهر المقعد، أما راي فلم يمل للأمام، ورأيتها تغمس يدها مرة أخرى بخفّة في الكيس وترمي الفتات. بمجرد النظر نحوهما تدرك ندمهما على وضع الكيس بينهما. بعدها تناولت آمي الكيس وكوّرته ثم أخذت تنفض الفتات عن تنورتها بينما تتأهب للوقوف، وقبل أن تفعل مد راي يده وحضن كتفها الأبعد، ثم انتقل بيده خلف عنقها، أصابعه تندس أسفل شعرها كما دسها قبل قليل في ياقته. وكأنه كان ينوي القيام بهذه الحركة أو أخرى من القَبيل ذاته طوال تلك المدة، لكن نيتها الوقوف وخوفه من ضياع الفرصة الوحيدة أمامه هي التي دفعت به ليقوم بها. آمي ترددت بعض الوقت، أخذت تحاول التملص برأسها من يد راي. لكنها في النهاية وقفت كما كانت تنوي، وراي قفز واقفاً خلفها وكأنه قضى الوقت كله جالساً على زنبرك وأخذا يسيران سوياً نحو مواقف السيارات.

انحنيت بظهري أسفل المقعد لكني لا أظن أن بوسعهما رؤيتي عبر الزجاج العاكس للنافذة الأمامية، إن كانا أصلاً مهتمين برؤية ما يجري من حولهما. كأنهما للحظة بدَيا شابين أصغر عمراً والآن عادا رجلاً وامرأة كهلين يحاولان التصرف وفق عمريهما. كانا يبدوان غريبيْ الأطوار، لكن إن كنت تنوي التصرف بغرابة فهذا هو المكان المناسب. رمت آمي بالكيس المكور في سلة المهملات وألقى راي بعقب سيجارته على الأرض على مسافة بضعة أقدام أمامه وداس عليها. سارا منفصلين، مثل شخصين يتعمدان السير منفصلين، كأنما صودف وجودهما على مسارين متوازيين.

أظنه ليس من المستبعد حدوث أمر كهذا في مكانٍ كهذا. زوّارٌ تتقاطع بهم الطرق. وقتٌ لإضاعته، همومٌ لمشاركتها. المكان المعتاد لاجتماع أعضاء نادي القلوب الوحيدة.

تجاوزاني على اليسار، بيني وبينهما أربع أو خمس سيارات، وما إن رأيتهما هذه المرة حتى غُصت في المقعد إلى أن لامست بأنفي حافة المقعد الجانبي، أتصرف بغرابة أنا الآخر. وما إن تجاوزا العربة اختفيا عن ناظري. لكني رأيتهما مرةً أخرى على انعكاس نافذة المرآة الجانبية، وتسنى لي رؤية بوابة المدخل الرئيسي بوضوح. هذه ميزة عربة النقل، تتيح لك النظر فوق سقف السيارة المجاورة. سمعت المحرك يدور وصوت

عربة التخييم تعود إلى الوراء، من ثم رأيتها تنسل باتجاه البوابة متجاوزةً اللوحة المعلقة ذات السهمين (مدخل– مخرج). طريق العودة إلى اليسار. الطريق الآخر يخرج بك من لندن ويأخذك إلى (إويل)، (إبسوم)، (ليثرهيد). شاهدت راي يكبح العربة، يضيء الإشارة وينعطف يميناً.

ليس من شأنك الحكم على غيرك. ما تتعلّمه من هذه المهنة هو الحفاظ على السر لنفسك.

راي

أجبته أنّني والحظ صُحبة، وما أزال محظوظاً كما كنت دوماً.

فأخبرني وهو يبتسم أنه ما يزال جاك الذي أعهده، أو قريبًا من ذلك، جاك الصّاحب حلو المعشر.

ثم نظر إليّ ولوهلة خِفت، أيعقل لهذا السبب طلب رؤيتي؟ أيظن حظّي سينقذه؟ الشعور نفسه راودني حين أحضروني إليه هنا أول مرة، قبل العملية، قبل أن يعرف، وشعرت بالجميع ينظرون إليّ باهتمام كأنّي رجل الساعة. راي سيرجح كفة الاحتمالات لصالحه، راي سيصلح الأمر. كل ما يحتاجه جاك هو جرعة من حظ صديقه القديم رايزي، وبينما نحن هنا فلنراهن على احتمال نجاح الجراح نجاحاً باهراً في إجراء العملية.

كم هو ثقيلٌ عبء الحظ على كاهلي.

لكنه ينظر إليّ كأنما أدرك أنه وضعني في موقفٍ صعب، بينما المفترض أنّه هو من في موقف صعب، لا أنا. لذا يهزّ رأسه ويقول لي كأنما قرأ ما خطر على بالي، "لقد تقبّلتُ الوضع رايزي." قالها ببطء وحزم. ثم كررها مرةً أخرى كأني لم أسمعه المرّة الأولى، "لقد تقبّلتُ الوضع، آمي هي من تُشغل بالي."

ما إن سمعته أبقيت عينيّ مفتوحتين عليه، كأني خشيت على نفسي من الضياع إن طرفت بهما ولو للحظة.

"لقد تقبلت الوضع، لكني لم أسوّ الأمور مع آمي." أنظُر إليه ولا أحرّك جفناً. "لا أريد تركها في مهب الريح."

"ليس خطؤك أنّك... "

"لا أقصد هذا. لم أكن واضحاً معها."

أنظر إليه. وينظر إليّ.

"أنا أتحدث عن المال، كنا ننوي شراء ذاك الكوخ في (مارغاينت)، أتدري؟ في (ويست

غايت). والعالم بأسره من حولي ظنّ أنّ جاك دودز قد أزال الغشاوة أخيراً عن عينيه وأبصر النور وقرر بدء حياةٍ جديدة. والجميع صُدم بخيبة أمل كبيرة لدى معرفتهم أني أبصرت النور بعد فوات الأوان، حين لم يتبقّ لي من الحياة ما يكفي من الوقت."

"وأنا منهم، جاك."

"أنت، وكذلك آمي. عدا أنّ ما يجهله الجميع هو أني كنت أمام خيارين: إما البيع أو الإفلاس. هذا هو السبب. ما يجهله العالم بأسره أني اقترضت مالاً لإنقاذ الدكان قبل خمسة أعوام، وموعد السداد بعد شهر. لم تكن بمشكلة. أبيع المتجر وأبيع البيت وأشتري كوخاً في (مارغايت)، هو كوخٌ رخيص، وأدبّر معيشتنا بالباقي. عدا أنّ الخطة فشلت أليس كذلك؟ أغلقوا الباب على الرهان، إيه؟

ينظر إليّ كأني الأدرى بحقيقة الوضع.

أسأله: "ولماذا لم تبع المتجر قبل خمسة أعوام ودفعت لنفسك المبلغ الذي استدنته؟"

فيجيبني: "لأني وقتها كنت ما أزال مسؤولاً عن تأمين رزقنا."

أَنظُر إليه.

"أنا جزّار رايزي، هذا من أكون."

أبقي عينيّ عليه. هو جاك وليس بجاك. كأنما كان مختبئاً طوال الوقت. ثم يردف قائلاً: "لكن ليس بعد الآن، ليس عليّ تأمين الرزق لأحد."

"إذن أنت لم تبصر النور أبداً؟"

"لا رايزي." لكني لا أصدقه، "ولا حياة جديدة، إيه، ليس لي."

ينظر إليّ.

"كم من المال تحتاج؟"

" استدنت سبعة آلاف، والآن أدين لهم بعشرين ألفًا."

يراني أصفِّر بصمت. فيشرح لي:

"ليس بقرضٍ من بنك، بل قرضٍ من نوعٍ آخر. قرض خاص."

" أتعني ڤينس؟"

يضحك بشدة على سؤالي. يميل برأسه إلى الخلف وبدا صوته يتحشرج على وقع الضحك مما آلمه وسرعان ما وجدت نفسي أتناول وعاءً ورقياً، عيناي على زر استدعاء الممرضة. لكنه عاد يتابع حديثه معي بصوتٍ شبه مخنوق، "ڤينس؟ ڤينسي ما كان ليدينني المال حتى إن طلبته على فراش الموت، ألست محقاً؟"

"إذاً ممّن استدنت؟"

"ڤينسي ما كان ليدفع مالاً لإنقاذ المتجر، ما كان ليفعل. هو أراد مني الموافقة على العمل لدى السوبرماركت."

"إذاً ممّن؟"

"أحد أصدقائه من أيام شبابه، معارفه في التجارة. من النوعية الصعبة إن فهمت عليّ."

ينظر إليّ كأنما يتوقع تأنيباً مني.

"لو أنك راهنت بمخاطرة كبيرة على فرسٍ عمرها عامين لكنت أفضل حالاً. ليتك قصدت العم راي."

حتى وأنا أقولها أدركت إلى أيّ اتجاه سيأخذنا الحديث.

"لكان شبه مستحيل رايزي، من أين كنت سأؤمن لك الأنتي[56]؟ لكن من المضحك ما قلته توًّا."

ينظر إلي مع ابتسامةٍ بدأت ترتسم على وجهه، لذا أغيّر الموضوع بسرعة، "هل أخبرت آمي عن كل هذا؟"

يهز رأسه.

"هل تنوي إخبارها؟"

"هنا المشكلة، ما آمله هو ألا تعرف أبداً بالموضوع، ألا تضطر لمعرفته. من الغريب أنك ذكرتها."

---

(56) الأنتيّ: رهانٌ يتعيّن على لاعب البوكر أن يضعه بعد الاطلاع على أوراقه ولكن قبل أن يسحب أوراقاً جديدة (وأحياناً قبل أن يطّلع على أوراقه). م.

ينقر بأصبعه الوعاء الورقي الذي ما زلت أحمله بين يديّ. "تبدو مثل مشرّد يتسول الطعام."

أعيد الوعاء مكانه.

"لا أدري ما الذي ستفعله. أعني ما الذي تنوي فعله حين – ربما ستود البقاء في بيتنا، أو ربما ستود الانتقال إلى الكوخ ، فلا عائق أمامها يحول بينها وبين الانتقال ، ما يزال خيار الانتقال ممكناً. في أيٍّ من الحالتين، لا أريد لمحّصل ديونٍ أن يطرق بابها. لا أريدها أن تكتشف أن ميراثها مني سينقصه عشرون ألف جنيه."

كأنما يودّ مني إخباره بالحل.

"مدّخرات العمر، إيه؟ عشرون ألف جنيه، تلك ما يسمّونها مدخرات العمر."

"إذاً ما أفهمه منك أنها الأخرى ظنّت أنك أبصرت النور ، أنك قررت بدء حياةٍ جديدة. المجد للرب وكل ذلك؟"

ينظر إليّ كأنما يفترض بي أن أعرف الإجابة بنفسي على سؤالي له.

يقول لي: "هناك أمور من الأفضل أن تبقى في السر."

فأسأله: "لِمَ (مارغايت)؟"

"لا أودّ تركها في مهب الريح من بعدي، أريد الاطمئنان على وضعها." فجأةً أغلق عينيه، جفناه انسدلا بثقلٍ كأنما لم يعد بوسعه رفعهما، كأنه توقّى اللحظة وتركني أخمّن الإجابة.

ثم فتح عينيه كأنما لا يذكر إغلاقه لهما.

فأسأله: "ما تظنّها ستفعل؟"

فيجيبني: "يعتمد. ربما أنت أدرى بذلك."

أنظر إليه.

"أحتاج رابحاً رايزي. أحتاج رابحاً أكثر مما احتجت إلى أي شيءٍ في حياتي." يرفع ذراعه اليمنى ببطء عن ملاءة السرير. ومع كل تلك الأنابيب المغروزة فيه يبدو لي كأنّ أحداً آخر هو من يرفع ذراعه، كأنه دمية في يد أحدهم. "وهذه المرّة أملك الأنتي."

يحرّك يده صوب المنضدة جانب سريره ويسحب الجارور الصغير، الجارور الذي يحتفظ فيه بأغراضه. يده ترتعش. يحاول جاهداً سحب الجارور وكدت أهبّ لمساعدته لكني أدركت أن مساعدتي لن تنفعه بشيء، فلم يعد هناك كثير ممّا يستطيع فعله لنفسه.

يتناول محفظته. ولم أر في حياتي محفظة جاك دودز تبدو منتفخة مثل الآن.

"هاك، انظر داخلها، في الجيب الخلفي."

يناولني إيّاها. آخذها وأفتحها، عيناه عليّ. لا أرى صورة. لكني أرى رزمة كبيرة من الأوراق النقدية.

"ألف جنيه، ثمانمائة خمسينات والبقيّة كومة عشرينات."

أتأمل المبلغ أمامي، أفرك الورقة الأعلى بإبهامي وأقول له متعجباً: "تملك ألف جنيه، ألف جنيه نقداً، هنا، في هذا المكان؟"

"ومن سيسرقها مني رايزي؟" يتأمل الأسرّة من حوله، "هؤلاء الأوغاد المساكين؟"

"ومن أين حصلت...؟"

"سأفشي لك سراً إن قلت، أليس كذلك؟ أخرجها من المحفظة وعدها."

أهز رأسي: "لن أعدها، أنا أصدقك."

"لم تكن نقطة قوّتي قط، أليس كذلك؟"

"ما الذي تعنيه؟"

"الحِساب، الرياضيات. لم أكن يوماً قوياً هنا على عكسك أنت." يرفع رأسه قليلاً كأنما يومئ لجمجمته. "على أيّ حال، خذ النقود، فأنا أحتاج رابحاً." ينظر نحو يدي على المحفظة ويقول: "سباق (دونكاستير) سيجري قريباً على ما أظن؟ أوّل سباقٍ في الموسم؟"

أقول لنفسي، إن جرى كل شيء على ما يرام فسأكون هناك.

"الاحتمال بَعيد جاك، رهانٌ بألف مقابل الفوز بعشرين ألف، احتمالٌ بعيدٌ جداً."

"هو احتمالٌ بعيد."

"وافرض أنّي راهنت على الحصان الخاسر؟"

"لكنك لن تفعل، أليس كذلك؟ لا خيار أمامك، فأمي في حاجة للفوز."

مالك أو حياتك.

ثم يقول لي مبتسماً: "وعلى أي حال، اعتبرها الألف جنيه التي كنت سأشتري بها عربة التخييم. ألف جنيه، أتذكر؟ لكنك في النهاية رفضت بيعها لي، ألم تفعل؟"

(كانتربري)

ما عدت أراهم. كأنهم قرروا الذهاب وتركي خلفهم هنا في كاتدرائية (كانتربري). لذا أطوف عبر الممر عائداً إلى المكان حيث تركني ڤينس، في حال عادوا للبحث عني. أعود وأجلس على المقعد الخشبي ذاته، مرفقاي على ركبتيّ، وأقول لنفسي أنا المنبوذ بينهم الآن.

ويخطر على بالي أنه يراني الآن عالماً بما أفكر به. خذ قرارك الآن رايزي، خذه بسرعة. كأن الأمر لم يقتصر على المال وحسب، بل أنا أيضاً، أنا والمال سوياً. هاكِ المال، آمي، وهاكِ رايزي. ستكونين على ما يرام معه، على ما يرام مع محظوظ. وكزة، غمزة. أظنكما ستعتنيان ببعضكما الآن.

كأنّ من المفترض بي أن أحلّ محله.

أجلس هناك، أظل أجول ببصري بحثاً عنهم، لكني لا أراهم في أي مكان، لذا أنهض وأجد طريقي خارجاً، وهناك أراهم واقفين على الساحة المرصوفة يبحثون عني. أصدقائي. السماء ملبدة بالغيوم ومظلمة وتنذر بعاصفة والرياح باردة لكن لا يبدون لي منزعجين. بل يبدون لي سعداء كونهم هنا معاً، كأنهم جميعاً نالوا المغفرة.

ربما.

ڤينس أوّل من يحادثني: "بدأ القلق يساورنا عليك، رايزي، ظنناك تهت هناك."

ڤينس يحمل في يده الدليل. ڤيك يحمل الكيس. وأنا لا أحمل في يدي شيئاً لكن كأنّ للجميع أن يرى أني أحمل معي كثيرًا مما لا يحقّ لي.

أشعر بالكاتدرائية من خلفي تحدق بي.

ويتابع ڤينس دور الدليل السياحي: "كنّا في الأديرة، هل زرتها؟" كأنّ من المفترض بي زيارتها قبل التفكير بمغادرة الكاتدرائية.

"نعم زرتها." لا أسهل من قول كذبةٍ صغيرة.

ثم نعود أدراجنا من حيث أتينا، نعبر البوابة ونقطع الشوارع الضيقة، عدا أننا

نسير على شارعٍ ضيق آخر غير الذي سلكناه في مجيئنا. الشارع اسمه «زقاق الجزارة»[57]، ڤينس يرى من واجبنا السير فيه. وما إن ننعطف نحوه ينهمر علينا المطر بغزارة. وفي منتصف الشارع نرى حانةً صغيرة، (سيتي آرمز)، أبوابها مفتوحة، وإذ بليني يدعونا لشرابٍ سريع، فلن يضرّنا إن فعلنا، أليس كذلك؟

---

(57) Butchery Lane.

ڤيك

وإذ به يقول لي، ملامح وجهه جدية ورصينة، جالساً هناك على مكتبي، يداه ورديتان من الكشط بالصابون بعد قضاء يومه في الجزارة، كأنه عميلٌ مميّز أتاني نظيفاً ومستعداً لرقاده الأخير، "في واقع الأمر، ڤيك – ومن السهل عليّ أن أسرّ بهذا لبحّارٍ قديم – فأنا لن أمانع دفني في البحر."

آمي

حسنٌ، لابدّ أنهم وصلوا الآن ونفّذوا مهمّتهم. نثروه. رموا به. على ما أظن هم في طريق عودتهم أو قرروا قضاء بقية اليوم في التنزه وركوب الحمير وغيره طالما المهمة نُفّذَت، هناك على شاطئ (مارغايت).

لكني ما أزال متشبّثة بموقفي، هنا المكان الذي يجب عليّ التواجد فيه. رحلتي التي عليّ أنا أقطعها. لهم رحلتهم ولي رحلتي. فالأحياء أولى من الأموات، حتى الحيّ منهم الذي أعتبره ميتاً، والآن هو ميّت، فأضحى كلاهما متساويين الآن في كتابه. سبق وودعته للمرة الأخيرة، إن لم تكن المرة الأولى. وداعاً جاك، وداعاً حبّي القديم. قد يقولون أنّ جوون ما كانت لتدرك أبداً غيابي عنها هذا النهار من أجل قضاء نهارٍ أخيرٍ معه، فقد فعلتها من قبل، في وقتٍ ما غبت عنها اثنتا عشر مرة، قبل وقتٍ طويل، ولن تتاح لكِ فرصةٌ أخرى لنثر رماد زوجك. لكن كيف لهم أن يتيقنوا أنها لن تعرف؟ ولا بدّ لأحدٍ أن يبلغها.

فإن كان يستحيل عليها إدراك ما حولها، فهكذا أضحى هو.

ولا أظنني كنت سأقدر على تنفيذ طلبه، الوقوف هناك على الرصيف البحري بينما المفترض بنا الوقوف على الرصيف الشاطئي، الأمواج من تحتي، وملح البحر في عينيّ، أقف هناك بينما جميعهم أعينهم عليّ. أنت أولاً آمي، متى ما كنتِ مستعدة، خذي وقتك. الريح ترفع تنورتي. ومما أراه من طقس اليوم فلا بد أن الريح عاصفة هناك في (مارغايت).

إلى هنا أنتمي، في الطابق العلوي من الحافلة. إذ يبدو لي وبعد كل تلك السنين أن الحافلة رقم 44 هي بيتي الذي أنتمي إليه أكثر من أي مكانٍ آخر. لا أنتمي لبيتي ولا للدّار ، لكن أنتمي للطريق بينهما. لست واثقة إن كنت سأسايره حتى النهاية في الانتقال إلى الكوخ في (مارغايت). "سنوضّب أغراضنا وننتقل إلى هناك، آيم." يقولها لي في الوقت الذي فقدتُ فيه الأمل منذ زمن طويل، الأمل في أن يتغيّر، رأيته

أملاً يستحيل أن يتحقق، كنت واثقة أنه سيقع ميتاً فجأةً في الدكان خلف النضد، مرتدياً مئزره المخطط وفي يده الساطور، ولكانت هذه رغبته، جيفةٌ أخرى تنضم للجيف في دكانه. "سأسرق ما تبقى من عمري ونقضيه سوياً فتاتي. حياةٌ جديدة تنتظرنا أنا وأنت." ها! لا أدري ما الذي دفع به فجأةً ليتصرف هكذا، ما الذي أخلّ بميزان الأمور في عقله، من أين سطع الضوء الذي فتح عينيه؟ لكنه ظل ينظر إليّ كأنما يتوقع مني القفز فرحاً لقراره، كأني لست المرأة التي ظلّ يراها خمسين عاماً، بل امرأة جديدة. " (مارغايت)؟ ما رأيك (بمارغايت؟)" كأنّ بأيدينا أن نعيد عقارب الساعة إلى الوراء وبدء حياة جديدة من حيث توقفنا. شهر عسلٍ ثانٍ. كأنّ (مارغايت) كلمة مرادفة للسحر.

حينئذٍ أدركت أن الطاولة انقلبت. فأنا من اعتدت الظنّ طوال كل تلك الأعوام، منذ وداعي الأول له، أنّ بيدك دوماً بدء حياةٍ جديدة، فالعالم لا ينتهي ولا يقف عند أحد. أني ما زلت أملك القوة على الاختيار. اخترت جوون ولم أختره هو. شاهدته يتحجّر يوماً بعد يوم في قالب الجزار جاك دودز، جاك دودز، معلم الجزارة، هاكِ لحماً مفروماً سيدتي، هاكِ لحم كتفٍ ورقبة، لأنه الآخر عجز عن اختيار جوون، عجز عن اختيار من هو من دمه ولحمه، فما تبقى له سوى دور الجزار يقوم به. لكني دائماً ما اعتقدت أني من بيده أن يتغير. وقد تغيّرت، مرّة. لكن حين نظر إليّ وكأني شخص آخر، أدركت أني أنا من تحجّر في القالب. قالب المرأة التي تجلس بعد ظهيرة كل يومَي اثنين وخميس في الحافلة 44، حتى بعد أسبوعٍ من وفاة زوجها.

وكأنّ الذنب ذنبي، أنا من هجرته بعد وداعي له، لا مرّة، بل مرّتين.

وهي لن تدرك ذلك أبداً، أبداً.

(مارغايت)، (مارغايت)، وماذا عن جوون؟

هناك ما يميّز الحافلة عن غيرها من العربات. الحافلة الحمراء ذات الطابقين، عجلاتها تخوض في الوحل ونوافذها تطقطق تحت المطر، رقمها أعلى جبينها مع وجهتها والطريق المؤدّي إليه، هي ذاتها الثلاثة لا تتغير من عامٍ إلى عام. فهكذا، وطالما الحافلة رقم 44 باقية على رحلتها من جسر لندن إلى (ميتشام كركيتيرز)

فالعالم لن ينهار، جسر لندن لن ينهار. فإن كان حقيقةً ما اعتاد جاك على التبجح به مكرراً خطاب أبيه، أنّ (سميثفيلد) هي القلب، هي قلب لندن الدّامي، فإن كان حقّاً ما يقولان، فالمسارات الحمراء للطرق التي تسير عليها الحافلات هي الشرايين، هي الشرايين والأوردة اللعينة.

لم أركب سيارة أجرة ولا مرة واحدة. مع مدخول جاك دودز؟ ولم أستقل قطار المترو كذلك رغم أنه أسرع، المسار الشمالي يأخذني مباشرةً إلى (موردن). لكني لا أستقل المترو لأني أحب رؤية ما يجري من حولي، أحب التفكر بينما أنا على الطريق في رحلاتي. أحب تأمل ما حولي. كنت كذلك أيضاً في رحلاتي الإثنتي عشرة في عربة التخييم. كم مرةً ركبتها؟ ليس أكثر من اثنتي عشر مرة، إيه راي؟

لكن لِمَ قررت اليوم الجلوس في الطابق العلوي من الحافلة؟ أجلس هنا وأشعر كأني على متن سفينة تهسهس تحت المطر. هل كي أثبت لنفسي أني ما زلت امرأةً قادرة، لا مثل تلك الغربان العجائز الجالسات في الأسفل؟ لأثبت أني ما أزال أملك القدرة على الاختيار؟ كي أحظى بإطلالةٍ أخرى على العالم أراه فيها يتجاوزني وينسل من بين يدي؟ (لامبيث)، (وكسهل)، (باترسي)، (واندزورث). كيف تتوقع مني تنفيذ طلبه الأخير راي، كيف تتوقع مني الوقوف إلى جانبك هناك، كلانا يحمل رماده بين يديه؟ إلى هنا أنتمي، الحافلة رقم 44. هاكِ شذراتٍ من رماده، سيدتي. وما دامت الحافلات الحمراء تلزم مسارها، فالدم الأحمر سيظل يتدفق، والقلب سيظل ينبض، وينبض. أوه راي، حقّاً أنت رجلٌ محظوظ، ورجلٌ «ضئيلٌ» حقاً. آه على مسكيني جاك.

راي

لذا فرشتُ صحيفة السّباق أمامي بكامل جدول سباقات (دونكاستر). ثم أشعلت سيجارتي وتناولت من إضبارة أوراقي «سجلّ راي جونسون للأعوام 87، 88، 89». دائماً وأبداً، احْتَفِظ بسجلٍّ لرهاناتك. ثم شرعت أتفحص السباقات والخيول بينما أجري الحسابات في عقلي، مع الوقت ستعتاد على تلك الحسابات وتضحو عادةً لا تفارقك، الحذف، النِّسَب، السباقات التي تراهن فيها والسباقات التي تتجنبها. الناس تعتقد أني جونسون المحظوظ ورهاناتي تعتمد على حاسّةٍ سادسة، وأحياناً هذا ما يحصل، فالمراهنة في النهاية هي مراهنة. لكن السبب وراء رهاناتي الرابحة غالباً على الخيول، السبب الذي يحول بين رجالٍ، مثل جاك دودز وليني تايت، وربح الرهان، هو تفضيل الناس التصديق أنّ الرهان يعتمد على إحساسٍ داخلي، وقد يبدو الرّهان حظاً لكن تسعين بالمئة منه عمليات محاسبيّة دقيقة، تسعون بالمئة هي حساباتك التي تجريها في عقلك. فوظيفتي في شركة التأمين لم تأت من فراغ. يحلو للناس الإيمان أنّ الخيول منزّلةٌ من السماء، إجابة الرب على دعائك بين يديه، لكن وكيل المراهنات هو من أَمْرُكَ بين يديه، هو من عليك أن تتعلم كيف تهزمه، وحتى تهزم محاسباً، احتفظ بسجلٍّ محاسبيّ لرهاناتك.

لذا درست المتسابقين، أمسّد فكّي وأفكر، احتمالات فوزٍ ضعيفة، احتمالات فوزٍ ضعيفة. وبما أنّ الرهان خارج حلبة السباق فالضريبة مستحقة. كل هذا مع ألف جنيه. تأمّلت الجدول أمامي، نحن في بداية الموسم وسباقات العَدْل[58] يقبلون فيها الخيول دون إخضاعها للمواصفات فتشعر وكأنك في موعدٍ أعمى. لو كنت هناك لكان أسهل، فالتواجد في الحلبة دائماً ما يجعل الرّهان أسهل. فهناك ترى الخيل، تلتقط الرائحة، فلا يعود الرهان موعداً أعمى. وستكافأ على حضورك.

(58) سباق العدل: سباقٌ يتساهل مع العنصر الضعيف أو يفرض على العنصر القوي عبء إضافي بحيث تصبح فرص الكسب متكافئة.

الحوافر تضرب على العشب، الشمس تسطع على قبّعة الجوكي وقميصه، الثرثرة والجلبة والصراخ على وقع الآمال وأقداح البيرة. كل الأشياء التي لن يراها ولن يسمعها جاك أبداً.

نفحات الدخان من سيجارتي تلتف دوائرَ وتطفو نحو النافذة. ذكّرتني بالسحب الزغبية بعد هطول المطر، يهب النسيم عليها ويحملها برقّة بعيداً. يحملها بعيداً.

نظرت إلى ساعتي: الحادية عشرة والنصف. الأحمق وحده من يراهن باكراً، فالرائحة تتغير، كل دقيقة، هناك الرائحة وهناك حساباتك. الأحمق وحده من يراهن باكراً. لكن ماذا لو؟ افرض أنّ جاك...

بقيت أشيح بنظري عن الاسم الذي يحدّق بي من وسط قائمة سباق الثالثة وخمس دقائق. اثنان وعشرون خيلاً. وما يعنيه الاسم؟ فهم ينادونني محظوظ. الأحمق وحده من يراهن على اسم. وما عاد من سبيلٍ لإنقاذ جاك، ما عاد من سبيل.

تصفّحت سجل رهاناتي، ودوّنت على عجل أرقامًا هنا وهناك. القاعدة رقم واحد: القيمة مقابل المال. لكن جاك لا يبحث عن قيمةٍ مقابل المال، بل يريد رابحاً من رهانٍ واحد يفوق كل أرباح الرهانات، يريد إنقاذ رزقه، يريد تأمين خبزه. فهو ما عاد ينتمي لعالم القبول بالأمر الواقع، عالم الاكتفاء بالفتات.

لذا، فهذا الرهان ليس برهانٍ عادي مثل رهاناتك.

لكني ظللت أشيح بنظري عن الاسم الذي يحدّق بي. مجهولٌ، احتمالات فوزه تكاد تكون معدومة، عشرون إلى واحد. لكنه ظلّ يحدق بي. هناك حظ وهناك حظ. هناك الحظ الآمن الذي يقيك من الأذى، يقيك من طلقات الرصاص أو يمد في عمرك حتى المئة وخمسة، وهناك ضربة الحظ التي تكسبك ذهباً. هناك الحسابات وهناك الرائحة، والرائحة تقوى، وأحياناً كل ما تحتاج إليه هو الرائحة، وأحياناً كل ما تحتاج معرفته عن الحصان هو ميل رأسه. فأحياناً ما يهمك هو الرهان، لكن أحياناً أخرى ما يهمك هو إثارة السباق وهدير الصياح. أحياناً ما تريده فعلاً هو نيل المجد على ظهر حصان.

لذا سحقت عقب سيجارتي وأشعلت أخرى وأخذت أذرع الغرفة جيئةً وذهاباً لأني

ما عدت أحتمل الجلوس ثابتاً. وقفت عند النافذة. بيتي على أطراف (بيرموندزي)، والحلبة في (دوني) مسارها واسعٌ ومستوٍ. لا بد وأنك أحمق. شعرت بالرهان يرفرف في أضلعي والحظ يسري في عروقي. علام تراهن أصلاً؟ لأجل من تراهن أصلاً؟ فتحت النافذة كي ألتقط نفسي. شعرت بمزيج الهواء والدخان يغمر منخرَي والحياة تنبض في أوصالي، ومال جاك يحرق ثقباً في قلبي.

«صانع المعجزات.»

آمي

ولم يكن بالأمر الصعب حينها، إغواء رجلٍ ليبتسم لك. حتى ذاك المحصّل، آلف غرين، بصدره المنتفخ وعصيّ مكياله تتدلى منه، بشاربه الأسود ونظرة العسكري الرقيب على وجهه، حاذري ألا تطابق حمولتك عصا مكيالي، اعتدت لمح طيف ابتسامة تكاد ترتسم على وجهه حين يراني، أو هكذا خيّل لي. قد تظنين أنه جاملني من وقتٍ لآخر وزاد على مكيالي من عنده، من ست وحدات إلى سبع. يراني أقف جانب الخانة[59] مرتديةً فستاني الخفيف، أتعرق من الحر والفستان يلتصق بي، وهو مع عصاه. يكيل كل سبع وحداتٍ بشلن، فتبذلين أقصى استطاعتك لكسب يوميتك، شلنّان وستة بنسات. تعملين وتعملين جاهدة حتى الانهيار. لكن لا تقولي لي لم يكن هناك من طرقٍ مختصرة، أكثر من طريقة لجمع قسائم الجنجل. فشيرلي تومبسون جمعت من القسائم ما يؤهلها لحمل لقب بطلة قلع الجنجل. تنال أجرة مئتي وحدة في الأسبوع، عدا أن الأجرة لم تدفع مقابل الوحدات وحسب. فينتهي الأسبوع وقد نالت عشر جنيهات، دون أن نحسب الزيادة. وكم كان والداها في (ديتفورد) سعيدان بالخمسة جنيهات التي ترسلها إليهما. صغيرتنا شيرل، بطلة قلع الجنجل.

ولا تخبريني أننا لم ننعم نحن أيضاً بالمتعة التي توفرت لنا. ففي جنة إنجلترا متعٌ تنالها بالمجّان. أشعة الشمس الدافئة والهواء النقي وأكوام القش ولبلاب الجنجل، وذاك الشعور، يغمرك رغم انشغالك في العمل والخانات مرصوصة أمامك في صفوفٍ تنتظر من يملؤها كأنك في مصنعٍ خارجي، الشعور بالتحرر من القيود، أنك في الطبيعة حرٌّ طليق. ففيها نسكن الأكواخ والخيم مثل السكان الأصليين، نعتاش على ما تمنحنا إيّاه الأرض، لا عنوان ثابتًا لنا. لا باعة متجولّون ولا غجر ولا كلاب ولا قالعو جنجل. فقط رائحة المقالي في الليل، نار التخييم، قدور الصفيح، قناديل الزيت، وثرثرتنا.

---

(59) الخانة: صندوقٌ لخزن الحنطة. م.

ثم جاء الغجر بقناطرهم وجيادهم يسعون للعمل في قلع الجنجل مثلنا نحن، لكنهم نصبوا مخيمهم بعيداً عنّا على أطراف الغابة، ينظرون إلينا كأننا نحن من نصبنا مخيمنا على أرضٍ ليست بأرضنا، وكم حسدتهم، فقد كانوا أقرب بخطوة إلى الخارجين عن القانون منّا نحن، هم المحترفون ونحن الهواة، لأننا متى ما عدنا إلى (بيرموندزي) ستغلق علينا النوافذ ونحبس في بيوتنا، بينما هم من سيظلوا على ترحالهم على الطرق وفي الغابات. كذلك حسدتهم على لون بشرتهم، سمراء حنطية، مقابل بشرتنا سكان لندن والتي تبدو مثل العجينة، بيضاء تقلب حمراء مثل عمود دكان الحلاقة. اعتدت كل مساء على مشاهدة أحدهم يقود حصانه إلى البركة كي يسقيه ما إن ننتهي نحن القالعون من عملنا. لكنه لا يقلع معنا، إذ يبدو أنها أضحت مهنة فتيات المدينة الوقحات. كان رجلاً ضخماً. عاريا الظهر كلاهما، هو وحصانه.

أظنك تستطعين القول إنّ ما شعرت به هو أكثر من مجرد حسد.

«لطالما حذرتني أمي.»

ولم أفعل، مع أني كنت سأفعلها. ففي النهاية لعبت مع جاك دودز وفعلتها معه. جاك دودز من الطرف الآخر من (بيرموندزي). يا له من عالمٍ كبير وواسع! ولا أدري كيف فعلتها شيرلي تومبسون، وما الذي استخدمته، لكنها لم تحبل أبداً، أنا من حبلت من المرّة الأولى.

كان رجلاً مفتول العضلات هو الآخر، ضخمًا وحتى أضخم منه، وإن لم يكن مهندماً. ولا أمانع الاعتراف أني أحبهم هكذا، رجالاً ضخامًا، أو هكذا اعتقدت. فما الذي تتمناه الفتاة أكثر من رجلٍ ضخم؟ وكنت مدركة باهتمامه بي، عيناه عليّ من صفّ الخانات المقابل، قرون استشعاره مصوّبةٌ نحوي. بينما روماني جيم ما كان ليتعطّف عليك بنظرة، بهزّة رأس، ليس في حال كنت ستتنبّهين له. وجاك لم يرَ في قلع الجنجل عملاً يليق بالرجال، ليس مع يديه الضخمتين الثقيلتين. آه، تلك اليدان اللتان اضمحلتا إلى مجرد عظام. كان يسمي ما نفعل بقطف الزهور. تحبّني، لا تحبّني، مثل عدّ البراعم. لذا سألته: "إذاً لِمَ أنت هنا؟"، فأجابني: "لي

أسبابي." فسألته مرة أخرى: "إذاً ما الذي تفعله حين لا تقلع الجنجل؟" فقال: "حينها سأكشف لك عن سرّي، أليس كذلك؟" لكن أحدهم همس في أذني حين لاحظوا إلى أيّ طريقٍ تدفعنا الريح أنّ جاك «ابن جزّار.» وعلى كل حال هو كشف سره حين سرنا في تلك النزهة مساء أحد حول المزرعة، حين رأى الخنازير وأخذ يتأمّلها كأنما يتأمل شيئاً مألوفاً لديه لكن من زاويةٍ جديدة، كأنما يزن النقانق.

شبّهها بقطف الزهور، نظم المسابيح. لكن في النهاية الجنجل هي من جمعتنا، قلع الجنجل هو ما بدأَت معه حكايتنا. كيف للقدر أن يقرر حياتك عنك. «اشرب ڤينسي، هاك مزيدًا من عصير الأطفال.» وكان قلعاً من نوعٍ آخر الذي حسم الأمر، في النهاية كلّه قلْع.

يحضر معه لفّة جرائد يحمل في داخلها باوندان من الفاصولياء، أخبرني أنه حصل عليها من أحد عمّال المزرعة لكني أظنه قطفها بنفسه، ثم سألني إن كنت أريدها، فأجبته بنعم إن كان سيساعدني في قطعها وتقشيرها، كأني أنا من يصنع له معروفاً. عمّي بيرت وعمّي بيني كلاهما في حانة (ليڤر بوتل) ينفقان القسائم على شرب عصير الجنجل، وتركاني هنا لأعدّ لهم العشاء. ولكان انضمّ إليهما في الشُّرب هناك لو لم يكن يتجسّس عليّ في انتظار الفرصة ليختلي بي. فاصولياء! "حسنٌ،" قال لي. لذا دخلت الكوخ وتناولت قدراً صغيراً وسكينتين ومصفاة. اعتدنا في تلك الأيام إحضار كل العدّة معنا، قدور ومقالي وأحواض غسيل وغيره، مثلنا مثل اللاجئين. توجهت نحو الماسورة لجلب الماء ثم عدت وأعطيته إحدى السكينتين، ولحظتها فقط ابتسمت له، تلك الابتسامة التي توحي أن كل شيء ممكن، مثل إشارة المرور على الضوء الأصفر. ولن تعلمي أبداً كيف لأمرٍ أن يؤدّي إلى آخر.

ثم جلست على درجة الكوخ وفرشت قرون الفاصولياء على الجريدة أمامي، فوق العشب، ووضعت القدر جانبي متعمّدةً لعلّه يفهم أنّ هناك متسعاً ليجلس كلانا على الدرجة. قلت له، "هناك كرسيٌّ في الداخل إن أردت." لكنه رد عليّ بأنه مرتاحٌ على العشب، فسحة،أوسع لساقيه. قذفت له بقرن ومن الواضح لي أنه لم يقشر فاصولياء في حياته من قبل. قد يعرف كيف يقطع شريحة صدر لكنه بالتأكيد لا

يعرف كيف يقشر الفاصولياء. فقلت له، "هكذا." وحشرت المصفاة بين فخذيّ فتجعدت تنورتي وتكتلت. قلت له: "ارمِ بها هنا، فلنر إن كنّا سنملؤها." لأني أردته أن يرى، أردته أن يدرك، إن لم يكن قد أدرك بعد، ما هو جليٌّ أمامه كالشمس، الوعاء بين فخذي، وعاءٌ كاملٌ مني يتوق إلى الملء. إلّا إن ظنّ الوعاء درعاً أحمي به نفسي. وهكذا بدأنا نملأ الوعاء. أخذ يصوّب ويرمي الفاصولياء بدلاً من مدّ يده وإسقاطها، وطبعاً لم تصل كلها إلى الوعاء، فمنها ما وقع بعيداً ومنها ما وقع أمام ثوبي. كان ثوباً قديماً قشدي اللون وعلى صدره زهورٌ وبراعم زرقاء. أظنه كان مأخوذاً بالنظر نحو البراعم، يعدّها. ملأنا الوعاء وقلت له، "وماذا بعد؟" بينما أفتل خصلةً من شعري حول إصبعي، "فعمي بيرت وبيني لن يعودا الآن،" المصفاة ما تزال محشورة بين ساقيّ، "إلا إن كنت تفكر بالانضمام إليهما؟" فأجابني أنه لم يفكر بالانضمام إليهما، عيناه على حبوب الفاصولياء. لذا قلت،"إذاً انتظر، اصطحبني معك في نزهة." ثم رفعت المصفاة ووقفت، أنفض الفاصولياء العالقة على ثوبي، الشكّ ينازع قلبي، ثم رفعت القدر وحملت الآنيتين معي إلى داخل الكوخ وخرجت مرةً أخرى مبتسمة، فرأيته يبتسم هو الآخر.

قلت لنفسي ما الذي تفعلينه آمي ميتشيل، ما الذي تفعلينه؟ أنت حتى لا تعرفين الصبي جيداً. ولا حتى معجبة به، ليس إلى تلك الدرجة، ليس كثيراً. لكن النسيم كان لطيفاً ومؤاتيًا وساكنًا. وذاك الشعور في أحشائي، هناك، حيث كان الوعاء. وبظنّك مَن رأينا ونحن نقطع الطريق نحو البركة؟ روماني جيم وحصانه. «كليب كلوب.» وهكذا هي الحياة، أمورٌ تجتمع فتخلق حياةً جديدة. هذا كل ما عليك معرفته، الأمور تجتمع.

لكنك لن تعرفي أبداً، جوون، أن تلك الأمور هي التي خلقتك، وإن لم تخلقك كاملة، لم تخلقك كاملة. مثلما جاك لن يعرف أبداً أن رؤيتي الغجريّ هي التي حسمت المسألة. ما نرتكبه من أفعالٍ لا تُحكى. لن تعرفي أبداً، ولن تتاح لك الفرصة أبداً، لتعرفي سحر ليالي أغسطس الدافئة والمصافي. لن تعرفي أبداً، ولا حاجة بك لمعرفةٍ كهذه، وربما من الخير لك أن تكوني على ما أنت عليه. تجهلين كيف لأمرٍ أن يؤدي

إلى آخر. إن قُدْتِ رجلاً إلى الماء فسيشرب. ثم تفاجأين بما ملأ به بطنك، تحاولين إقناع نفسك أنه ملامٌ على ما جرى مثلك تماماً، لكن لا فائدة، أنت من سيشعر بالذنب، أنت من أوقعته وربطته بك، تبادلينه النذور، نعم أقبل، في ثوبٍ مستعار بينما الجميع ينظر نحوك جامدين، فما يشهدونه ليس بعقد زواج، بل ورطة.

لكن لم أرَه يشعر بالورطة إلا بعد أن أنجبتك، أشعر به يصدّني ويبغضني، كأنما أدرك أن الخطأ كله خطئي، مشكلتي وليست مشكلته. أيعجبك ما جرى، أرأيت النتيجة؟ أما كان خيراً لنا لو أننا فعلنا ما يفعله كل اثنين أوقعتهم ليلةٌ حارة في حقل الجنجل في شراكها؟

لكني قلت لنفسي، أنت لست بعقوبة، لأنها طبيعة الحياة، كل أمرٍ يؤدي إلى آخر، أنت لست بعقوبة. ما يهم هو ألّا أراك عقوبة.

لا أدري كيف جمعت المال، فلم نقلع الجنجل في ذاك الصيف، كيف لنا؟ ولا شلنات زائدة نملكها. وفمٌ آخر نطعمه، عدا أنهم تولوا إطعامه عنّا، أخذوه من بين أيدينا. كنت على وشك أن أجثو على ركبتيّ أمام والدي وعمي بيرت، رجوتهما قائلةً، أنا وجاك لم نحظ بشهر عسل، والآن، الآن بعد ما جرى، ألا تملكان رحمةً في قلبيكما؟

أظنني كنت مستعدة حينها لرميك خارج حياتي، كنت قاب قوسين أو أدنى من التخلص منك تماماً.

قلت لجاك سنقضي نهاية الأسبوع في (مارغايت). لا، لا تسأل، كل شيءٍ معدٌ لأجلنا. فقط أقنع والدك أن يمنحك إجازة. أخبره إنّه شهر عسل. سنركب العبّارة من برج لندن. كنت أنتظر منه أن يقول، أن يظهر لي، أنه حتى وإن لم يرغب بها، فسيظل يرغب بي، حريٌ به أن يظل يرغب بي. أن ينتظر مني أن أقول أو أظهر له أن لا مانع لديّ إن لم يرغب بها، طالما سيظل يرغب بي. لن تضطري لممارسة الألاعيب كهذه جوون، لن تعرفي إلى أي درجة من العناد قد نصل لنتحايل هكذا على الآخرين.

اشتريت ثوباً صيفياً جديداً، وثيابًا داخلية وأحذية وجواربًا وثوب سباحة وغيره. عمي بيرت رهن ساعة جده.

والشمس أشرقت كأنها تقف في صفنا، والأمواج لمعت، وارتديت أنا ثوبي الجديد وغيره. عدا أنّ الأم في داخلك تنسلّ إليك بغتةً حين لا تتوقعينها. لن تضطري لمعرفة ذلك أيضاً. حتى وإن كنت في الثامنة عشر على شاطئ البحر مع البوظة ومسرح الدمى (بانش وجودي)، في لباس البحر الجديد وأعيُن الرّجال عليك من كل حدب وصوب. لابدّ أني بدوت يومها متاحةً لأي منهم.

قلت لنفسي، لقد حظيتَ بفرصتك، منحتكَ فرصتك.

الرصيف البحري، الرصيف الشاطئي، الرّمال. عالم الأحلام.

ظننت الحرب ستغيّر الأحوال، تعيد وضع الأمور في منظورها الصحيح. تظنّ نفسك في مصيبة. ماذا عن صفير القذائف تسقط على (بيرموندزي)؟ شوارع بأكملها مُحيت. ظننته قد يقتل. أو أنا سأقتل، أو أنت ستقتلين. قذيفةٌ ضالة تسقط على دارٍ للميؤوس منهم، لا أحد سيحزن حينها، فسقوطها رحمة. كم نحن واقعيون. لكن ما حصل أن الحرب دفعت بنا أكثر نحو الطريق الذي بدأناه. أنا وأنت سوياً، لا أحد آخر قريبٌ ولا عزيز. وجاك من أضحى بعيداً بعيداً عنّا يقاتل في الجيش، لم يقتل، بل عاد واحداً من الشباب. معه راي جونسون. لذا حين جاء ڤينس بريتشيت، لا عليك من اسم بريتشيت انسيه، وسقط على حجري، على حجرنا، كان عليَّ أن أدرك أن وجوده معنا لن ينفع بشيء، لن يساعدني على الفوز به من جديد. مهما ادّعيت ومهما حاولت تصديق الكذبة، ستبقى كذبة. لك أن تقودي الحصان. آيمي دودز، يا لها من روحٍ طيبة، أوت طفل عائلة بريتشيت رغم المشكلة الصغيرة التي تعانيها. آه، لكن ألا ترون؟ مشكلتها الصغيرة هي دافعها.

ومن يومها أصبحنا فريقين، أنا وأنت، هو وڤينس. أعني هو وڤينس يتصارعان، هو وڤينس يمسكان خناق بعضهما، كلٌّ يستلُّ سكينه، كلٌّ يرفع ساطوره في وجه الآخر. لكن هذا ما يجمع الرجال ببعضهم، هكذا يلهون أنفسهم، في العراك.

نعم ڤينس، هنا. هنا حيث. هنا، في جنّة.

وما لن «تعرفه» أبداً أن ما اعتقدتَه وأنت طفل، قبل أن تعرف واقع الأمر، هو حقيقيٌّ أكثر ممّا تتصوّر. فقد فعلناها مع الجنجل. فعلناها على الجنجل. لأننا

فعلناها داخل خانة جنجل. خانة تسعُ عشرين خيشاً، معلقة من بين مسنديها. سترتنا عن الأعين من جميع الجهات، كأنها وضعت لهذا الغرض بالذات. فعلناها مثل أرنبين في كيس.

وما لن تعرفيه أيضاً أنَّ بعد ثلاث ليالٍ لاحقة أعلى التل، جانب طاحونة الهواء القديمة يوم كانت أشرعتها ما تزال بعد عليها، نظر إليّ، بحزمٍ وجدية، بثباتٍ وجدية، وقال لي: "أنت جميلة، أتعلمين ذلك؟ أنت جميلة." ليست بالكلمات التي تتوقعين سماعها من ابن جزّار. يخطف قلبك سماع كلماتٍ كهذه يقولها رجلٌ لك، تملؤك، تشبعك. أن تعيشي وتشهدي اليوم الذي تسمعين فيه رجلاً يقول لك هذا، أيّ رجلٍ كان، وأن تعرفي من ابتسامته أنه فعلاً يعني ما قاله لك.

ما عرفتِ جوون، وليس بيدك أن تعرفي وأبداً لن تعرفي.

ما نرتكبه من أفعالٍ لا تُحكى. المحصل سيأتي حاملاً عصيّه ومكياله ليعد ما قلعت من وحدات الجنجل، ليلقي نظرة على ما تملكين من جنجل. وجهه المتحجر ينذرك، أنا المحصّل فلا تظني بمقدورك الاحتيال عليّ. خيرٌ لك أن تفي بمكيالي، خيرٌ لك أن يوافق جنجلك حساب عصاتي. كم هو أمرٌ دقيق الوزن بالمكيال. "حسنٌ الآن. دورك ميتشل، آمي." لا ابتسامة بتاتاً على وجهه، لذا أظنني تخيلتها. لكن ربما كان سيبتسم، ولو طرف ابتسامة، لمحة ابتسامة، لو عرف أننا فعلناها هنا في هذه الخانة.

ڤيك

قلت لنفسي لهو من حسن حظي أني ما أزال في لباس البحرية. كل تلك الفتيات الجميلات. التسريح على بعد شهرٍ من الآن، وشارة الرتبة تدمغ خدمتي في البحرية لأربع سنوات.

لكنها سألتني: "وما الذي تفعله ڤيك، عدا تبادل السباب والكلام القذر في القوارب؟"

وها قد حانت لحظة الحقيقة، كنت واثقاً أنها ستأتي لا محالة، وأعرف تماماً كيف ستنتهي. أولاً ستنظر نحو يديّ، تخطف نظرة سريعة اتجاههما لعلّني لن ألاحظها لكني سألاحظ. ثم ستتحاشى النظر إليّ تماماً وستحوّل مجرى الحديث إلى ما أثار اهتمامها في ترتيب قاعة الرقص وأثاثها، عدا أنها لا تنظر إلى القاعة فعلاً بل تراجع حساباتها على عجلٍ في عقلها. ومتى ما سألتها عن موعدنا القادم سوف تتحجج بكل الأعذار المألوفة.

وكانت هي الأجمل بينهن، الأجمل من كل الفتيات التي التقيت على الإطلاق، بام سمرفيلد، الأعلى في قائمتي القصيرة من الفتيات اللواتي واعدتهن فترة قصيرة. تتفوق عليهن جمالاً، لكن جمالها الحقيقي يفوق ما تراه عيناي. اتزانها، قوة شكيمتها، فورة حماسها. هي الفتاة التي ما كانت لتفوت على نفسها فرص الاستمتاع بحياتها، الفتاة التي ما كانت لتندم أبداً على خياراتها أياً كانت عواقبها، وخصلة جمالها التي أسرتني حقّاً، أنها ما كانت أبداً بالفتاة الساذجة.

وكانت قد هيأت نفسها بما يليق لحضور حفل الكريسماس في (غوسبورت) عام 1945، فستانها قصير، زهريٌّ وأسود، ذراعاها مكشوفتان، هي لم تأت هنا للرقص وحسب.

الفرقة كانت تعزف أغنية الجاز Chattanooga Choo Choo.

قلت لها: "سفنٌ، ليست بقوارب." لكني قلت لنفسي إياك ومرواغتها بقصص البحارة وأحاديثهم، كُن صريحاً معها، هي بالذات، وعلى كلٍّ هي ستسألك عاجلاً أم

آجلاً، وربما سؤالها لك الآن هي إشارة.

" أعمل في دفن الموتى، هي تجارة العائلة."

نظرت إليّ. لم تنتظر لثانية نحو يديّ. نظرت إليّ وقالت: "ما كنت لأخمّن فيك، ما كنت لأخمن على الإطلاق، على الأقل تجارتك لن تبور أبداً، أليس كذلك؟" ثم أخذت تتمحصني بسرعة من رأسي إلى أخمص قدمي، كأنها لا تنوي استبدالي برجلٍ آخر، ثم لمحتُ ابتسامةً ترتسم على طرف فمها وقالت: "إذاً أنت خبيرٌ في التعامل مع الجسد."

راي

" أنت مهتمٌ بعقد صفقة بشأن السّاحة؟ "

يرمي السؤال في وجهي بسرعةٍ وفجأة، يرمقني بتلك النظرة الوقحة الواثقة من نفسها، نظرة «لن – ترفض – طلبي»، وكأنّ بإمكانه سماعي أفكر، لابّد أنه يمزح، فمن أين له بمالٍ يعقد به صفقة؟ لكنه لا يمزح، هو جاد، وهو يعرف أنّي سأخضع له، سأنتظر وأرى ما يرمي إليه.

" أي صفقة؟ فنحن سبق وعقدنا صفقة."

" لا، ما بيننا ليس بصفقة، ما اتفقنا عليه هو ترتيب."

"وممّا أراه، فيا له من ترتيبٍ رائع، فأين المشكلة إذاً؟" متسائلاً بيني وبين نفسي من أين جاء بالسيارتين اللتين ركنهما هناك بداعي تفكيكهما وتزيينهما، سيارة (روفر) وسيارة (آلفيس)، عدا طبعاً إقامته مؤخراً في عربة التخييم. مؤخراً. كأنّ العربة أضحت بيته الآن.

"هو ترتيبٌ ممتاز، أتفق معك، وأنا لست بناكرٍ للجميل، لكنه نابعٌ من طيبة قلبك، طيبتك اتجاه عسكريّ سابق شاب أراد اللهو بالسيارات وتلطيخ يديه بالعمل على المحركات. ولا أتوقع طيبتك أن تدوم إلى الأبد، ألستُ محقاً؟ لا أتوقع من نفسي الاعتماد على طيبتك."

يتناول علبة سجائره ويهزها دافعاً بسيجارتين للخروج من القصدير، حركةٌ أنيقة تمرّن عليها جيداً، يعرض عليّ إحدى السيجارتين ويشعلها. "لست بناكرٍ للجميل عمّي راي."

عمّي راي.

وأتساءل بيني وبين نفسي إن كان قد أدرك سوء فهمي لما يجري، كيف أسأت قراءة الوضع بأكمله. كيف ظننت أني بضمّه تحت جناحي فترةً ما فإني أقوم بما قام به جاك حين ضمّني من قبل تحت جناحه. أني لولا جاك لما كنت هنا في «العربة»

أحتسي البيرة وأدخن السيجارة مع ڤينسي بعد خمسٍ وعشرين عامًا، بل لكنتُ مسجىً تحت صليبٍ في صحراء ليبيا. أقل ما يمكنني فعله هو ردّ الجميل، مدّ يد العون إلى الصّبي لدى عودته من القتال إلى شارع (تشيفي) وإراحة جاك منه. عدا أنّ جاك لم يفسّر بادرتي بهذا الصورة، فحتى بعد مرور خمسة أعوام لم يكن قد يأس بعد. دودز وابنه.

حشرت قدمي في الموضوع، قدمي الضئيلة الضخمة.

وعلى كل حال فالأمور بدأت تتبدل، تأخذ منحىً مختلفاً تماماً، مع تلك الفتاة التي تنام تحت سقف جاك وآمي، أحياناً وليس دائماً، مع مجيئها المتكرر إلى الساحة، كأنّ فجأةً وجد الجميع في عربة التخييم أرضاً مشاعاً ينصب عليها خيمته. وماذا عن فترات بعد الظهيرة في (إبسوم).

«لقد سمعت بما جرى بينك وبين آنتي كارول، من المؤسف ما جرى رايزي.»

وربما ما كنت لأسمح أبداً لڤينس باستخدام السّاحة، وربما ما كنت أبداً لأراهن له على الحصان ليشتري بالربح سيّارته الأولى المستعملة، (السيدة المشبوهة)، (ساندون)، ستّة إلى واحد، لو لم تقل آمي، "ڤينسي سيعود، سيعود بعد شهر أو شهرين إلى البيت، من الأفضل أن نضع حدًّا لما يجري بيننا."

"عدا أنّي" يقولها ثم يصمت ليشعل سيجارته وينفث سحابةَ دخان كبيرة، يتأمّل الدخان كأنما يتأمّل حياته. مفاصل يديه متشقّقة وملطّخة بالسواد. "عدا أني سأبدأ عملي الخاص وأحتاج مقراً لتجارتي. ولا بد أن أقوم بكل شيء على الوجه الصحيح، فإن كنت ستؤسّس لتجارتك فعليك أن تؤمن مقراً أولاً، أليس كذلك؟»

" ستؤسّس ماذا؟"

"سمعتني رايزي." رايزي؟ بدأ يتواقح معي أكثر، يرفع قدحه ويتجرع البيرة. "هذا ما كنت أقوله طوال الوقت، فأنا لا ألهو بالسيارات، عدا أنك لم تأخذ كلامي بجدية. لكني أريد تأسيس عملي بالشكل الصحيح، أريد لكل إجراءاتي أن تكون سليمة. فإن لم أفعل قد تأتيني يوماً ما وتقول لي: «أتدري ڤينسي، ذاك الترتيب بيننا لا أودّ الاستمرار فيه بعد اليوم، سامحني، فعندي خطط أخرى تتعلق بالموقع.» وحينها

سينتهي كل شيء، لا خيار لدي حينئذٍ سوى المغادرة.
"لكني لا أملك خططاً أخرى للموقع."
"ليتك تملك رايزي، فالموقع تجاري وممتاز."
أنظر إليه وأقول: "ليس بموقع، بل ساحة خردة، ما يزال اسم (ديكسون) مكتوباً على البوابة."
"بالضبط، وتشارلي ديكسون ودّع منذ ما يزيد عن عام أليس كذلك؟ فمنذ متى لم تحصّل إيجاراً على الساحة. فكل مدخولك من وظيفتك اللعينة في المكتب وملاحقة الخيول."
"هي ضماني للمستقبل."
أنظر إليه وأراه ينفث سحابة دخانٍ أخرى.
فأقول: "فما الذي تقترحه إذاً؟ أن تدفع لي إيجاراً؟ ومن أين لك المال؟"
يهزّ رأسه: "أتحدث عن شراء الساحة، فما أريد هو امتلاكها."
أنظر إليه. أقرأ على وجهه ما يوقفك عن الضحك.
"سأكرر عليك السؤال مرة أخرى، من أين لك المال؟"
"ما أطلبه منك هو أن تستثمر في عملي، رايزي، في دودز للسيارات. استثمار لا يكلفك مالاً، لن تضطر حتى لدفع بنسٍ واحد. ما ستستثمره حقّا هو وقتك. فلا وجود الآن لدودز للسيارات، أكيد، لكنها ستقوم في خمسة أعوام، أؤكد لك. بِعْني الساحة اليوم على الأجل لتكون مقراً لتجارتي وسأدفع لك بعد خمسة أعوام. تعال إليّ بعد خمسة أعوام وسأدفع لك المبلغ كاملاً مع الفائدة، وإن عجزت عن الإيفاء بما وعدتك به، لكني سأفي بوعدي، فالساحة تعود ملكك من جديد. بكل بساطة ووضوح، في الحالتين لن تخسر. ما إن أبيع سيارة أخرى وأربح منها المطلوب، فسأدفع لك العربون وتحتفظ به."
ربما يراني ويتوقع مني الضحك على ما قاله، لكني لا أضحك. بل أقول له كأني مدركٌ للخدعة التي يحاول توريطي بها: "ولم تظنّ سأقبل بعرضٍ ملتوٍ كهذا، لِمَ لا أعرضها للبيع وأقبل بأعلى سعر؟"

يشرب جرعةً كبيرة من البيرة، يضغط بشفتيه على القدح ويحتسي على مهله.
"لا أظن، فأنت لم تعرضها للبيع طوال العام الفائت، ولم تمانع ركن سياراتي فيها مجاناً، لأن تصرفك معي نابعٌ من طيبتك، وضماني لك هو اعترافي بالجميل، هذا ما أعتمد عليه في التوصل إلى تفاهمٍ خاص بيننا."
أنظر إليه وأقول لنفسي، هذا الصبي نجا دون خدش من قذيفة ساقطة.
"أنا لا أجبرك على شيء، أنا فقط أعرض عليك، فإن أسأت إيصال الفكرة إليك فتلك مشكلتي، هي في النهاية مقامرة. لكنك تفهم ما أعني، عمّي راي، في حالتي أقامر على السيارات، في حالتك على الخيول."
لكنه ينظر إليّ وكأنّ النتيجة مضمونة، كأنّ نتيجة السباق معروفة سلفاً.
الومضة في عينيه تزداد حدّةً، وفي تلك اللحظة خطر على بالي أنه ولا بد «يعرف.» لا أدري كيف، لكنه يعرف. التقط الرائحة من نومه في العربة، ليس النوم وحسب.
«ملاحقة الخيول.»
لهذا السبب هو واثقٌ أني لن أرفض عرضه.
"قدحٌ آخر؟" يمد يده نحوي، ابتسامته عريضة على وجهه، ينوي الإمساك بقدحي.
لكني أهز رأسي، كأني لا أريد لقدحي أن ينتهي بين يديه، لا أريد لحظي أن يصبّ في قدحه لا قدحي.
"وماذا عن السّعر؟" أسأله من باب الاعتراض لا الاهتمام، أحاول اختباره. ظننته لن يملك إجابة مباشرة على سؤالي لأنه يعلم ألّا أمل له بالشراء.
لكنه يقذف الإجابة في وجهي مثل طلقة رصاص، يداه ما تزالان تحومان حول قدحي، "ألفان، زائد نسبة عشرين بالمئة فائدة على مدى خمسة أعوام، عشرون بالمئة، المجموع خمسة آلاف فوق العربون الذي سأدفعه لك."
كأنما أجرى حساباته كلها وانتهى.
ينفث سحابةً أخرى من الدخان ثم يسحق عقب السيجارة، عيناه لم تعودا عليّ بل على مطفأة السجائر، وأنا الآن من يتأمّل الدخان، يطفو ويتلاشى، لأني أعرف وكلّي يقين أنّه يعرف، حتى من غير سؤال أحد، أنّ المبلغ الذي عرضه زهيدٌ حتى

بمعايير عام 1968، حتى في مقابل ساحة خردة خلف طريق (سبا). ولو كنت أعرف بما سيقع في الخمسة أعوام اللاحقة، لو كنت أعرف ما ستفعله تلك الأعوام الخمسة بي، وحتى في هذه ڤينس قد جسّ النبض، لو كنت أعرف لقلت له انسَ الموضوع ڤينسي، انسَ الموضوع برمّته. فأنا لن أبيع. وفي الوقت الحالي استخدِم السّاحة بالمجّان.

القيمة مقابل المال.

يرفع عينيه ويقول لي:" أنا أعرض عليك وحسب، لا أصر عليك، فقط أعرض ما لدي على الطاولة أمامك، أمتأكد لا تريد قدحاً آخر؟"

"نعم." ثم أعود وأقول له، "نعم، اطلُب لي قدحاً آخر." حتى لا يختلط عليه الأمر.

"فكّر بما عرضته عليك، ستشهد بداية دودز للسيارات، ستكون الأب المؤسس. بيرني! أين أنت؟"

أعود وأقول لنفسي ربما لا يعرف، لكني لن أتيقن أبداً من عدم معرفته.

ثم يأتينا بيرني من حيث كان مختبئاً ويصب لنا قدحين جديدين من البيرة وڤينس يدفع مقابلهما فأقول له قبل ارتشافي البيرة: "لكن ما يزال هناك أمرٌ آخر عليك التفكير به ڤينسي." لأدرك لحظتها أني سرت تماماً في الطريق الذي يريد مني المضي فيه.

يجيبني: "وما عساه يكون؟"

"يكون دكّان الجزارة." وأدركت أني بحديثي في الموضوع كأني ألزمت نفسي بالاتفاق معه، "دكّان دودز وابنه."

ما إن يسمعني يضع القدح قبل بلوغ البيرة فمه، ملامح وجهه توحي بالألم والصدمة، كأني عجزت عن فهمه رغم يقينه لسببٍ ما أني أتفهم وضعه. فيقول لي: "اصنع لي معروفاً ودع عنك الحديث في الموضوع، ظننتك تقف إلى جانبي." وأخذ يرمقني بتلك النظرة، نظرة اليتيم المسكين.

ثم سرعان ما يبتسم ويرفع قدحه، "نخبك." لذا أرفع قدحي معه وأشرب. "خذ وقتك وفكّر بالأمر." أسمعه فأشرب أكثر ولا أقول له شيئاً، لكني لاحقاً أقول له:

"لكني سأحتفظ بعربة التخييم في الساحة، ما زلت في حاجة إلى قسمٍ من الساحة لأركنها فيها." ينظر إلي ويقول، "بالتأكيد، ولن آخذ منك أجراً على ركنها، حتى إني سأمنحك خدمة صيانة سنوية شاملة بالمجان. ومتى ما فكرت ببيعها، فسأحرص على منحك الصفقة الأفضل." يرفع قدحه لشفتيه وكأني لمحته يغمز لي.

"لا تفهم ممّا قلت أنّي موافقٌ على عرضك."

" بالتأكيد رايزي."

أعرف أن جاك لن يسامحني، في كلتا الحالتين أبداً، لن يغفر لي. اجرح رجلاً مرّة، وستجرحه مرّتين. أتخيله واقفاً هناك في دكّانه يقطّع اللحم ويزنه، جاهلاً تماماً ما يجري هنا بينما نحتسي الشراب. دائماً ما التزم بقاعدته: لا شرب في استراحة الغداء، ولا حتى رشفة، ليس والسّاطور في يدك.

ثم يتجرع ڤينس ما تبقى من بيرة بسرعة وينظر نحو ساعته، يداه قذرتان، لا تشبهان يدا جاك. على ذراعه وشمٌ بلوني الأحمر والأزرق، صُنع في عدن، رسمة لقبضة يد تمسك بصاعقة فوق الأحرف الأولى من اسمه (V.I.P [60]).

لكنه اختار «دودز للسيارات».

يقول لي بينما يمسح فمه برسغه: "عليّ تركك الآن، هناك رجل سألتقيه بخصوص سيارة." يبتسم لي ابتسامته العريضة. يدس علبة سجائره في جيب قميصه العلويّ وينهض عن مقعده، ويكزني على كتفي بمفاصل أصابعه. "فكّر بالأمر." يقولها لي وينصرف كأنّ حديثنا لم يكن بذاك الأهمية ولا يعنيه بتاتاً.

أجلس وحدي أحتسي ما تبقى من البيرة على مهل، أتناول علبة سجائري وأشعل سيجارةً أخرى، عقارب ساعة (سلاتيري) تدنو من الساعة الثالثة والربع، أنهض عن مقعدي، "باي بيرني"، وأتوجّه إلى مكتب رهانات (بيلي هيل) دون تفكير وأضع رهاناً بجنيه واحد على سباق حواجز في مضمار (سيدجفيلد)، رهاني ليس بنيّة الربح بل بنية اتخاذ قرار. إن ربحت سأتمسك بالساحة وإن خسرت سأبيعها. إياك أن

---

(60) Vincent I. Pretchet.

تعتمد في رهانك على الخرافات. ويحلّ الحصان في المرتبة الرابعة بين تسعة خيول. (أوغرادي يقول[61])، خمسة إلى واحد. لذا أغادر وأقول لنفسي لم يأت الرهان بنتيجة. وأتوجه إلى ساحة الخردة، فإما أجده هناك أو لا أجده، وإن وجدته. ولا أجده.

هناك سيارتا (روفر) و(آلفيس) مركونتان تحت أشعة الشمس كأنّ أحدهم رمى بهما هناك، من حولهما القطع متناثرة، والجزء الخلفي من سيارة (آلفيس) مرفوعٌ على مسندين من طابوق، أدواته وعلب الزيت والخرق الملطخة مرمية في كل مكان. وأقول لنفسي الأجدر به أن يخضع لفحص طبي. يستلقي على ظهره طوال النهار وأنفه في مستودع الزيت. عربة التخييم مركونة خارج المخزن، والطقس معتدل بالنسبة لأجواء شهر فبراير، وحالياً هناك من يستخدم العربة بشكل متواصل، أو متقطع. لكن لا أحد يستخدمها الآن، لا متواصل ولا متقطع. لم أقدها في رحلة منذ أمد من باب فسح المجال لتلك الفتاة، من باب عرض ضيافتي.

أفكر، سأبيع الساحة لڤينس، ولم أبع أبداً العربة لجاك.

ثم أظل واقفاً هناك في منتصف السّاحة، في منتصف ساحتي، فأرى المخزن الذي كان يوماً اسطبلاً لحصاني (دووك)، وأرى العمارات الجديدة ترتفع أمام السماء الزرقاء الزغبة وجسور السكك الحديد تقطع الطرق، كل جسر هو موقع تجاري لأحد الأغبياء، ورائحة الغبار والصدأ وزحام المرور وأصوات الطرق من موقع بناء في مكانٍ ما. ثم أفكر، أولهم كان جونسون، ثم ديكسون، ثم دودز، أو بريتشيت. القصّة لا تعدو كونها قصّة احتلال. متى ما صِحْت، هذه بقعتي، هذه بقعتي، هنا تبدأ المشاكل. (توكيستر آتوكسيتير).

دعه يأخذ الساحة إذاً.

أما الآن فأظنه لم يعرف قط، لم يعرف حينها ولا يعرف الآن. لأنه لو عرف لكان فضح الأمر، لكان صرّح لي بمعرفته، اليوم من بين كل الأيام. من الأكيد كان سيفعل

(61) (أوغرادي يقول – O'Grady Says): التلاعب اللفظي في اسم الحصان والذي بناءً عليه اختاره راي قائم على لعبة (سايمون يقول – Saimon Says). م.

لو عرف.

أظنه تصرف معي بتلك الثقة الزائدة لأن من طبعه التصرف هكذا، عنجهيته تجاهي اكتسبها من كل تلك المرات التي قضى بها وقته مع ماندي في عربتي. لا أظنه حتى اقترب من تخمين حقيقة ما حدث. لكنه ورغم ذلك نجح في إقناعي ببيعه الساحة بسعر زهيد وكلفني خسارة القيمة مقابل المال، وهذا سببٌ إضافي يخولني الاحتفاظ بالألف لي.

آمي

وأظنّه الآن قد منحني فرصتي، هذا ما فعل بالضبط. فرصة مقابل فرصة. رماها في وجهي. أنتِ حبيبتي، من أردتِني أن أصدق أنّ الحياة لا تلعب معنا بتلك القسوة، ليس إلى درجة حرماننا من فرصة ثانية، من فرصة البدء من جديد لحظة نيأس منها.

تفضلي، هاكِ فرصتك. الرجل الذي عشت معه فوق الخمسين عاماً، الرجل ذو المئزر المخطّط والنكت الجاهزة لربات البيوت، لم يكن سوى لاعب احتياط. والآن رحل، أرأيت؟ رحل ما إن ظننت أن جاك الحقيقي قد يعتنق حياةً جديدة. دعنا نرحل إلى شاطئ البحر. يا لها نكتة سمجة، أبصر النور من هنا وانطفأت حياته من هناك. لا تعرفين قيمة ما ملكت إلا حين تفقدينه، أليس كذلك آنستي؟ على العموم هاك نهايتك السعيدة. هاك فرصتك، هاك حياتك من جديد. فالوقت لا يفوت أبداً على البدايات الجديدة.

لكن حبذا لو جاءتك الفرصة وأنت في الثامنة عشر.

صوّب البندقية، عينٌ على الماسورة والأخرى خزرت، قلت لنفسي، بالتأكيد يوماً ما قد يصوب البندقية حقّاً، ليس في وجه البطات التنك بل في وجه الناس. أو قد يصوبها شخصٌ آخر في وجهه. أنا واثقة أن بعضاً منهم ممن قضوا ذاك الصيف في تسديد الطلقات في ألعاب الكرنفالات لم يروا في إطلاق الرصاص لعبةً صعبة. وأظن استدعاء الخدمة العسكرية وصله في الوقت المناسب، المناسب له هو. أخرجني من هنا، انتشلني من هنا، خذني إلى أرضٍ أخرى أبدأ فيها حياتي من جديد. فالبدايات الجديدة ليست بالأمر المستحيل. سيكون من الأسهل عليه مواجهة طلقات الرصاص، وسيجيدها. «تعالي إلى هنا ممرضتي الصغيرة وألقِ نظرة عليها.» أظنني عرفت مسبقاً أنه يجيد مواجهة أمورٍ على أمورٍ أخرى.

"جرّب، جرّب من أجل السيدة الجميلة، ثلاث طلقات مقابل بنسين."

ومن حماقتي المعتادة أقنعت نفسي إن أصاب التسديد فسنحظى بفرصةٍ أخرى، وإن أضاعها فمستحيل.

قال لي مستهجناً، "تتوقعين منهم في يومنا هذا أن يستطيعوا فعل شيء، أن يكونوا قد وجدوا طريقةً ما، يعيدوا فيها طفلاً معيوباً إلى طبيعته". «هم». قالها وكأنّما يملكون في أيديهم عصا سحرية يلوحون بها وتنصلح طفلتنا. كانت المرة الوحيدة التي تحدثنا عنها، ونحن في غرفة النوم، في بيت الضيافة، مع إطلالتها الجميلة على محطة القطار، المرة الوحيدة التي طرأ ذكرها في أحاديثنا. ثم أخبرني إن كنت أعرف أنّ في يومٍ ما خطرت على باله فكرة، فكرة غبيّة، أن يكون طبيباً.

لكنه أردف قائلاً إنه ليس بطبيب، أليس كذلك؟ ليس بطبيب مثلما أنا لست بفلورانس نايتنجايل.[62]

وهكذا أدركت أنها لن تكون بعملية الإنقاذ السهلة كما اعتقدتها، التعافي الكامل أو الموت، (مارغايت) أو الانهيار. فربما، ربما ليس من المفترض بك أن تستعيد حياتك من جديد، حاول شرح هذه الفرضية لجوون.

فهذا ما كنت أحاول إفهامها إيّاه طوال الخمسين عاماً الماضية.

«أفضل ما يمكننا فعله آيم هو نسيانها بالمرة.»

البطات تحركت على صفٍ لا يتوقف، على حزامٍ مخفي، كل بطةٍ منها مصبوغة بألوان الأحمر والأبيض والأخضر، تظهر عليها الخدوش والانبعاجات حيث أصيبت بالطلقات. كل واحدةٍ منها لها عينٌ واحدة كبيرة تحدق بك ومنقارها ملتوٍ على شكل ابتسامة، كأنها متحمسة أشد الحماس للتعرض لطلقات البندقية، للاختفاء على وقع أزيز الطلقة ورنة الجرس، فقط لتعود وتقفز للحياة مرةً أخرى.

وقفت خلفه على ألواح الرصيف الشاطئي، من حولنا الأضواء والصخب وجموع الناس وأمواج البحر تنزلق من عمق الظلمة أسفلنا، تشعر بها تحت قدميك.

---

(62) (فلورانس نايتنجايل – Florence Nightingale): مصلحة اجتماعية انجليزية ومؤسّسة التمريض الحديث، توفيت في تاريخ الثالث عشر من أغسطس عام 1910. م.

المنحدرات الصخرية الشاهقة تلوح في الأفق صوب (كلف تونفيل). عبارةٌ كانت تقطع الخليج، تؤز في طريقها إلى لندن، منتشيةً بكامل أنوارها مثل حال ركابها السكارى. وقلت لنفسي، لربما يفكر بما أفكر به: إما تصيب أو تخيب، إما حياة أو. ثلاث بطات تعني أنّ الحياة بيننا لم تنته بعد. بدا لي وكأنه يقضي عمراً قبل تسديد كل طلقة. بنج! بطة واحدة. ثلاث بطات سبحن أمامنا، كل واحدة منها تحدق به بعينها الكبيرة. بنج! بطةٌ أخرى. بنج! بطتان انسلتا تقهقهان وتبتسمان، الثالثة هي من سقطت في البركة التي لم تكن هناك.

"تصويبٌ ممتاز سيدي، أرأيتم؟ الكل بيده أن يربح! الفرصة ممكنة. قد تكون طيوراً، لكن لا أجنحة لها لتطير. أهناك من يرغب بالتجربة، متسابقٌ آخر؟ إذاً ما ستختار سيدي؟ الشوكولا، الآنية، الدب المحشو؟ لم لا ندع السيدة الجميلة تختار، السيدة المحظوظة؟"

ومن حماقتي اخترت الدب المحشو، دبٌ أصفرٌ كبير محشو. وما حاجتي إليه؟ عدا مشاركة العالم فرحتي، اليوم يوم حظي، يوم حظنا، وأنا السيدة المحظوظة. لكنه لم يبتسم، لم يبد حتى سعيداً. أخذ يتأملني وحسب، أبتسم وأحضن الدب المحشو، كأنّ أمراً ما فاته ولا يفهمه. لكن الآن، حين أعود بذاكرتي إلى ذاك اليوم، أدرك أنني لم أعانقه، لم أحضنه كما يفترض بك حين يفوز أحدهم بجائزةٍ لك. بل حضنت الدب المحشوّ، ضاحكةً. وإلى أين سنذهب الآن؟ نعود أدراجنا إلى الشاطئ أم نواصل السير حتى نهاية الرصيف؟ ليتنا اخترنا العودة إلى الشاطئ. خياراتٌ خائبة رغم إصابته الهدف. لكنك لا تسير على الرصيف فقط لتعود أدراجك من منتصف الطريق، سواء فزت بالدب المحشو أم لا، لا تسير على الرصيف دون بلوغ نهايته، فهكذا هي الحياة. وطوال الوقت الذي سرنا فيه نحو نهاية الرصيف شعرت بأن كل الاحتمالات ممكنة، كل الخيارات مفتوحة، أمواج البحر تتلاطم وتصفع الرصيف تحتنا، ولم ألحظ حينها، أو اكترثت أصلاً لألحظ، أن الابتسامة على وجهه هي ذاتها المرسومة على وجوه البطات. فقط لدى بلوغنا نهاية الرصيف خطر على بالي أن ما أشعر به ليس حقيقياً، اللحظة التي نعيشها الآن ما هي إلا

صورة مطبوعة على بطاقة بريد، بطاقة بريد عن شاطئ البحر، وربما هذا ما خطر على باله أيضاً. فكيف لي أن أضحك وأبتسم وأتصرف كأنّ الحياة ما هي إلا إجازة؟ فكرتي الغبية بالذهاب إلى (مارغايت). هبات نسيم البحر ترفع تنورتي. أعين الرجال عليّ. يا لحظ الدب المحشو. وقلت لنفسي تخيلي، تخيلي العودة إلى حريتك من جديد، أنت والنسيم والبحر والليل والرجال أعينهم عليك. تختارين منهم من تشائين. اعتبريها اللحظة التي ستبدأين بها حياتك من جديد. (لامبيث فوكسهول). شريطٌ فلت من إحدى فردتي حذائي، حذائي الجديد، لذا ناولته الدب المحشو كي أتمكن من الانحناء وربطه من جديد. وربما ما أردته فعلاً هو إخفاء وجهي عنه. وأظنني عرفت لحظتها بمجرد تناوله الدب مني ما كان سيفعله. فها هو لوهلة، رجلٌ ناضج، يقف عند نهاية الرصيف، يحمل بين يديه دباً محشواً، رجلٌ يقف على نهاية الرصيف. ينظر نحو الدب وكأنما يجهل السبب وراء حمله له، ما علاقته أساساً به. ثم أخذ يسير نحو الحاجز. من ثمّ ما عاد هناك من دبٍّ محشو، فقط جاك. وداعاً جاك.

راي

لكني لم أرتدي معطفي وأتوجه مباشرةً إلى مكتب (بيلي هيل). «جورج، عندي لك رهانٌ كبير.» حيث سأبدو أحمقاً وأنا أقرع الطاولة بألف جنيه نقداً، حتى وإن قبلوا استلامها. حيث سأخسر سمعتي كمقامرٍ حذق. «ما هي لعبتك رايزي؟ إذ يبدو لي أنك راهنت فعلاً وربحت.» ليس حيث قد أغوى للإعلان أمام الجمع الكريم من المدمنين على عقاب الذات وصغار المراهنين من لا أمل لهم بالحياة، «هذا الرهان من أجل جاك، أنا أقوم بهذا من أجل جاك، تعرفون من أعني، جاك دودز، رهاني هو لإنقاذ ماء وجهه.» لا بد أنك أحمق لتراهن على حصانٍ يُدعى «صانع المعجزات،» أحمقٌ لتملك واحداً وتمرنه. لا بد أنك صاحب الوكيل الروح بالروح. ومع ذلك، ربما شعور المحظوظ جونسون في محله.

رفعت سماعة الهاتف مرة ومرتين وثلاث، ومع السيجارة الثالثة اتصلت على الرقم حيث يقبلون الرهانات الكبيرة من غير سؤال، حتى من أمثالي. يسألون،"ما رهانك؟" فأجيبهم، "ألف على الفوز، شامل الضرائب." ويدونون رقم بطاقتي الائتمان ويعيدون قراءة التفاصيل عليّ بنبرة ثابتة لا تهتز شعرة، صانع المعجزات، لهي معجزة أن أحمقاً يراهن عليه، لكن الحمقى يولدون كل دقيقة، ولا أسهل من كسب المال منهم، فهم يقدمونه لنا بأيديهم.

ثلاث وثلاثون إلى واحد.

لكن الأمر مختلف حين «تعرف». وإن لم تُصِب، لكنك ستصيب، فجاك سيستعيد ماله، أنا من سيتحمل تكلفة خسارة هذا الرهان، وسأعوض ما خسرت برهانٍ آخر. جاك سيستعيد الألف، وبهذا أكون قد أنصفته وارتاح ضميري. الألف مقابل عرية التخيم.

" وضعنا الرهان سيد جونسون، شكراً لاتصالك."

ولا بد للرهان أن يكون باسمي لا إسم جاك، إذ افرض، فقط افرض.

ثم أضع الألف في المكان الذي أحتفظ فيه عادةً بالمال، خلف خزانة. فأنا لا أنوي السير في الشوارع حاملاً معي ألف جنيه نقداً. أرتدي معطفي وأحشر علبة السجائر في جيبي وأجول ببصري في الغرفة قبل مغادرتي كأني أراها للمرة الأولى، فأراها الغرفة الأكثر وحدةً في العالم كله.

«يا للعمر الذي أضعته هباءً في حِفاظك على بيت العائلة.»

سرت في اتجاه (العربة)، أقول لنفسي طالما أنا متأكدٌ من رهاني لم لا أخطف قدمي نحو مضمار السباق وأضع رهاناً لي، أو أراهن على عدة أحصنة كي أغطي خسارتي. وهو ما يخالف المنطق إن كنت حقّاً «أعرف،» كذلك قد أستفز القدر بتدخلي. كلتا الحالتين، اليوم هو ليس يومي للرهان. اليوم هو يوم جاك. عليك أن تحافظ على الرهان بسيطاً، حتى وإن لم يكن بالبسيط.

أو علّني أذهب إليه في المستشفى الآن وأخبره، ربما لهذا ما أزال أتسكع في الشارع كأن من المفترض بي أن أذهب إلى مكانٍ آخر. الحافلة رقم 53 إلى (سانت توماس)، جسر (ويستمنستر). أخبره على من راهنتُ بماله، أخبره أن الرهان عليّ، في الحالتين لن يخسر. أقل ما يمكنني فعله، جاك. عدا أني لا أريد النظر إلى عينيه، ولا أريد له أن ينظر في عينيّ. وإن كان ما يزال واعياً، فسيدير المذياع ويرفع الصوت، فما يزال قادراً على فعل ذلك. السباق من (دونكاستر). وبدوره «سيعرف،» لأنه سيعرف، سيعرف مثلي تماماً.

لذا أنسلّ داخل (العربة). الأجواء هادئة بالنسبة ليوم جمعة. يحمل بيرني قدح البيرة لي ويسألني بنبرة صوته التي يستخدمها متى ما أراد اقتصار الحديث بينه والطرف الآخر، "ما أخبار جاك؟" فأجيبه: "كنت لديه الليلة الماضية وسأذهب لزيارته هذا المساء. أخشى أنها مسألة وقت بيرن." أتأمل ساعة سلاتيري. الساعة الثانية والربع. يهز بيرني رأسه كأن ما يحدث لجاك هو أمرٌ من المفترض أن يستحيل وقوعه، كأن ما حدث له معجزة لكن بالاتجاه المعاكس. "أتود تناول كأس بيرني؟ تناوَل كأساً على حسابي، واحضر لي شطيرة معك، لحم خنزير دون خردل." وعلى الرف العلوي نهاية المشرَب، تلفاز بيرني مفتوحٌ ومعدّ، الشاشة وضعت على الزاوية

المناسبة وطبقة الصوت مضبوطة، وبهذا أي زبونٍ جالسٍ إلى المشرَب سيتمكن من إبقاء عينه وأذنه على ما يعرضه التلفاز دون الحاجة إلى تحريك رأسه ولو بوصة ليطلب الشراب. السباق من (دونكاستر). سباق (لنكولن هاندي كاب[63]).

يحضر لي بيرني الشطيرة ويراني أشاهد التلفاز، "أفترض أنّك راهنت على حصان أو حصانين؟" فأجيبه: "لا، في الواقع لم أراهن، فلا يبدو لي لائقاً أن أراهن مع كل ما يجري، أليس كذلك؟" يومئ بيرني موافقاً، "على كلٍّ لابدّ وأن هناك حصانًا أو حصانين استهوياك، أي أسماء؟" فأجيبه: "إن أخبرتك سأكشف سرّي." وأقضم شطيرتي. يبتسم بيرني، كأنما توقع مني هذه الإجابة. يصبّ الشراب في كأسه ويومئ للتلفاز، "وأظنك كنت ستذهب هناك لولا." فأجيبه: "بلى، كنت سأذهب." وأظن جاك يعتقد أني هناك الآن.

سباق (تشيلتنهام)، ثم سباق (الكأس الذهبية)، يليه سباق (دونكاستر)، أول سباقات الموسم.

يرفع بيرني كأسه، "نخبك راي،" وأزيد عليه، "بصحتك وصحة الجميع." فيقول من بعدي، " في صحة الجميع." ثم يسألني، "هل الصوت عالٍ بما فيه الكفاية؟" فأومئ له، ويتهادى بعيداً عني مع منشفة الشاي على كتفه، هكذا يفعل كلما أدرك أن تبادل الحديث ليس هو المطلوب. لكنه يراني جالساً هنا، عيناي تحدقان بالشاشة، أكثر مما يفترض برجلٍ لا رهان لديه. يراني أشعل سيجارة تلو الأخرى وأتجرع الشراب على عجل، ليس من عادة راي، فهو يشرب على مهل. "صبَّ لي ويسكي بيرني، جرعتان."

"بدأتَ تثمل، إيه رايزي؟"

وما إن تعرض الشاشة سباق الثالثة وخمس دقائق، لا أتابع المجريات بعقلية مراهن، ولا منتهز فرص في حاجة إلى تجرع كأس شراب تلو الآخر كي يحافظ على رباطة جأشه. بل أتابعها بعقلية الجوكي. أنا الجوكي ولا خيار آخر لدي. يدعى (آيرونز[64])،

(63) سباق تشارك فيه الخيول المتقدمة في العمر (أربع سنوات وما يزيد). م.

(64) (آيرونز-Irons) التلاعب اللفظي يكمن في أن الاسم (آيرونز) يعني الحديد، والجوكي معروف بجسده الضئيل والهزيل. والقصد الآخر من التلاعب اللفظي ارتباط الحديد بتجارة والد راي في الخردة. م.

لم أسمع به من قبل، (غاري آيرونز). اسمٌ ثقيل بالنسبة لجوكي. وأقول لنفسي ما الذي يدفع بجوكي لامتطاء حصانٍ يُدعى صانع المعجزات؟ مع اسمٍ مثل (آيرونز). أنا جالسٌ على مقعد المشرَب في (العربة) لكني أشعر وكأني الجوكي، أصابع قدمي مرفوعة على مسند قدمَيْ مقعد المشرَب، ركبتاي مشدودتان وتضغطان، ومؤخرتي مستعدة للرفع. كل ما ينقصني هو السوط. أراه خارجاً من الاسطبل، صدره غائر، أنفه مغطى بالمخطمة[65] ويتجه نحو نقطة الانطلاق. وأرى من الطريقة التي يعدو بها، الطريقة التي سيعدو بها، أراه كيف يسيطر على الحلبة ويعدو بسرعة، سرعةٍ فائقة، واثق الخطى وذا وثباتٍ طويلة، حصانٌ سيحقق النصر ولن يقبل بالهزيمة. أراه وأقول لنفسي اليوم هو يوم ذاك الحصان، هو يوم الجوكي. هل نجد خردة حديد لديكم. اليوم هو يوم جاك. وما تراه يقع أمامك سبق ورأيته، ما كنت تعرفه في عقلك، فقط دع الحصان يتسابق عنك. أراه يعدو كما لم يعدُ من قبل ولن يعدو مرةً أخرى، على الأقل ليس بهذه الاحتمالات، يتشبث بموقعه وسط الحلبة، وما إن يجد ثغرة حتى يعدو فيها بتحدٍ لينهي السباق الآن، فلا حاجة به للتمهل في الجولات التمهيدية، مع أربع خيولٍ أمامه وثلاث جولات متبقية يندفع للأمام ويتجاوزهم جميعاً كأنه يملك في جسده محركاً إضافياً ولن يمانع تكرار الجولات إلى إن يحقق سرعته المأمولة.

أحياناً ما تراهن عليه هو نيل المجد على ظهر حصان.

لا أتحرك شعرة لحظة يقطع خطّ النهاية. ولا حتى حين يقودونه إلى الحظيرة المسيجة والجوكي يترجل عنه وينزع السرج عن ظهره ويربت على رأسه، فيحني له عنقه ويصهل كأن ما قام به توًا ليس بالأمر الجلل. لا أتحرك شعرة لدى عرضهم النتيجة وتأكيد الاحتمالات[66]. انخفضت بفارقٍ دقيق. لكني لست بحاجة إلى أي تأكيد.

---

(65) المخطمة: جزء من اللجام يمر فوق أنف الدابة، وعادةً تصنع من جلد الغنم. م.

(66) في سباقات الخيل في بريطانيا احتمالات الرهان القائمة لحظة انطلاق السباق هي المعتمدة، لا الاحتمالات السابقة لها. م.

ثلاث وثلاثون إلى واحد.

"هذا يوم حظ أحدهم." فأرد على بيرني، "بالفعل." أرفع كأس الويسكي وأتجرعها مرة واحدة، أتأمل قاعها الضبابي. ثم أنظر إلى ساعتي وساعة سلاتيري وأضع الكأس الفارغة على منضدة المشرَب وأترجل عن مقعدي. "حسنٌ بيرني، قد حان وقت رحيلي." فيودعني بيرني، " أراك لاحقا." ويتناول الكأس عن المنضدة. من الصعب تخيل عدم وجود بيرني هناك، مثله مثل ساعة سلاتيري، خلف المشرَب.

أغادر وأقول لنفسي عليّ الذهاب الآن لرؤيته، إن كنتُ محظوظاً سأصل إليه في عشرين دقيقة، حتى إن استقليت الحافلة. عليّ الذهاب مباشرةً إليه وإبلاغه. لكن إن كان ما يزال واعياً فسيعرف، سيكون قد أدار المذياع وسمع. محظوظ رفع رأسي، رفع رأسي بالفعل.

وهناك الألف التي حفظتها في البيت، عليّ أن أحضرها له، عليه أن يستعيدها. وهناك المسألة البسيطة فيما يخص استلامه الأرباح، فلن يستلمها نقداً، حتى وإن تصور الأمر على هذا الشكل، إن تصور حقّا الأمر، فهكذا سيتصور جاك دودز استلامه للنقود. رزمة ضخمة من الأوراق النقدية، الصورة المفضلة لدى أصحاب الدكاكين. أربعٌ وثلاثون ألف جنيه يحشرها في جارور منضدته، ثم يرن الجرس ليستدعي المرضة. ممرضتي الصغيرة، احزري ما الذي أحتفظ به هنا.

لكن لا بد أن تستلمها مني في صورة شيك جاك، فقد راهنت باسمي، تدري، مراعاةً للظروف. فهل أصدّر الشيك باسمك أم اسم آمي؟

لذا عدت إلى غرفتي وتناولت الألف وعددتها من باب الاطمئنان، مع أن أحداً لم يلمسها. ثمانمائة جنيه خمسينات ومائتان عشرينات. ثم عاودت الاتصال بذاك الرقم الخاص لأتأكد من الدفع، بدوت هادئاً جداً بالنسبة لشخص ربح توًّا أربعًا وثلاثين ألف جنيه. وأنا من سيدفع الضريبة جاك، دعها عليّ، وسأسلمك شيكًا بثلاثة أصفار. ثم ما عدت قادراً على الوقوف، لا بد أنّي أثقلت في الشرب في (العربة)، ما كان عليّ أن أشرب الويسكي، ما كانت حاجتي إليه طالما أعرف؟ ولا يصح ذهابي الآن إلى المستشفى تفوح مني رائحة البيرة والويسكي وبالكاد أسير متزناً على قدميّ.

أنفاسي معبقة بالخمر وأنا أحادث الممرضة كيلي.

لذا أعددت لنفسي كوب قهوة قوية وجلست وهلة كي أستعيد توازني. فما الفرق إن تأخرت نصف ساعة، وإن كان ما يزال واعياً – لكن بدلاً من استعادة توازني، غلبني النعاس، وفي أقلّ من لحظة فقدت وعيي، ولم أصحُ إلا على صوت رنين الهاتف، لم أعِ حينها أنّ ساعةً كاملة قد مضت، الكوب حيث تركته لم ألمسه، والقهوة بردت تماماً، وفي الخارج السماء تلبدت بالغيوم منذرةً بهطول المطر. رفعت السماعة وعرفت الصوت، صوت آمي. لكن لم يكن صوتها، بل بدا غريباً ولم أعِ ما ظلّت تقوله. "لقد رحل، راي، لقد رحل."

(مارغايت)

نغادر طريق (كانتربري)، متجاوزين الشرفات الباهتة المطلة على الخليج، واجهاتها متقشرة مثل طبقة سكر على كعكةٍ بالية كما هو حال كل المباني المطلة على البحر. فنادق، دور منامة وإفطار. «شاغرة.» المباني تبدو أكثر شحوباً تحت السماء الرمادية الملبدة بالغيوم، وقبالة الغيوم ترى شذراتٍ بيضاء تبرم في السماء كأنها رقاقاتٌ متكسرة من سطوح المباني، كأنه رمادٌ أبيض منثورٌ تتقاذفه الريح. النوارس. بوسعك أن تشعر بالرياح، حتى وأنت داخل المرسيدس، ترتد عن الشوارع الساحلية وتصفعنا، وكلنا نقول لأنفسنا الشيء ذاته، في أيّ لحظة سنراه، لابدّ وسنراه، فهو شديد القرب منا. ونراه، لحظة انعطافنا على حافة المنحدر وانكشاف فجوةٍ بين المباني: البحر، نرى البحر. ونرى (مارغايت) بأسرها ممتدة أسفلنا، بواجهتها البحرية، جونها، رمالها، ومن خلفها (كلف تونفيل)، عدا أنك لا ترى الرمال، أو النادر الثمين المتبقي منها، فالمدُّ عالٍ مثلما تنبأ ڤيك، والبحر رماديٌّ وغليظ ومزبد مثله مثل السماء، رذاذه الأبيض يتطاير في الهواء. وسور الميناء الطويل عند الطرف البعيد من الجون هو الشيء الوحيد الذي تراه أقرب ما يكون إلى الرصيف البحري، الأمواج تتلاطم عليه بعنف أكبر: على ما يبدو هو المكان الذي علينا الذهاب إليه، المكان الذي علينا أن ننفذ فيه مهمتنا.

بينما العاصفة تتجمع.

وليني من يعلنها عالياً: "نهاية الرّحلة، المجد للرب، فقط دعني أتبوّل أولا."

قدحا بيرة في (كانتربري).

ويواصل ليني تهكمه: "على ما يبدو البحر يتوقع قدومنا."

ڤيك يرفع رأسه ويتهندم، فقد بلغ أخيراً مكانه الذي ينتمي إليه في هذه الرحلة. أما أنا فأقول لنفسي تلك الرياح ستطيرك عن السور بلحظة. أنا من يحمل جاك مرةً أخرى، في كيسه، في جرته، أحضنه بقوة كأني في حاجة إلى التمسك بالثقل الإضافي.

ڤينس يبدو هادئاً وحذراً ومترويًا. لا يقول شيئاً. فهو اكتفى بشرب قدحٍ واحد في محطتنا الأخيرة، لكني أظننا جميعاً ممتنون لتوقفنا واحتساء الشراب، جرعة أخيرة تسري في عروقنا تعيننا على الثبات استعداداً لما هو قادم. يقود بنا على مهل أسفل التل والخليج بمداه يتجلى أمامنا، عيناه تتلفت هنا وهناك، مع أني لا أرى زحمة سير ولا اكتظاظًا بالسياح. ليس بالموسم.

نقطع الطريق الساحلي وندخل الواجهة البحرية من ثم يركن السيارة على قارعة الطريق ويترك المحرك دائراً. على ما يبدو انتبه إلى ما قاله ليني عن مشكلته الصغيرة. المنظر الغامر لكل تلك المياه داهمه فجأةً. والشيء الوحيد الذي لن تجد أي صعوبة في العثور عليه على شاطئ البحر هو حمّام عمومي. وقد مررنا بالسيارة قرب إحدى تلك الحمامات والتي بدت لنا مثل حصنٍ صغير. لكنه لا يتوقف عندها. يفتح باب السائق ويغادر، عصْفة ريحٍ تنفح علينا. يستدير نحو الرصيف، يرفع رأسه ويتفحص الجون، قميصه الأبيض الملطخ يرفرف في الهواء مثل العلم، يعود للسيارة ويفتح باب الركاب جانب ليني، يتصرف من باب الكياسة مثله مثل أي سائق. يومئ برأسه اتجاه المبنى عديم اللون على الجهة المقابلة من الرصيف، ويقول:" خذ راحتك ليني."من نبرة صوته أتوقعه قالها مبتسماً. كأنما يريد للأمور أن تسير بسلاسة وترتيب، دون منغصات ولا إزعاج قد يتأتى مثلًا من مثانةٍ ممتلئة. يسألنا: "أيودّ أحدكم الذهاب أيضاً؟" لكني لا أشعر بحاجة ملحّة، فقد أخذت بنصيحة ڤيك وشربت كأس ويسكي.

ينهض ليني جارًّا نفسه على مهل عن حافة المقعد، خجولاً مطيعاً. هبة ريح تعصف حول السيارة، لكن على ما يبدو ڤينس لا يمانع الوقوف والانتظار ممسكاً بالباب، يقف كأنما وجد العذر المناسب ليكون الأول بيننا من يقف على واجهة (مارغايت) ويتنشق عبير البحر. أدير برأسي للخلف لألقي نظرة أفضل عليه، فأراه رافعاً كتفيه، رأسه مرفوعة عالياً. لك أن تسمع جلبة تلاطم أمواج البحر. أتشبث بجاك أكثر. قطرات المطر تتساقط مثل الدبابيس على الزجاج الأمامي، لكنها سرعان ما تجف. إذ يبدو، وإن تلبدت بالغيوم، فالسماء غاضبة لدرجة امتناعها عن إطلاق

مراح المطر لينهمر بغزارة. اكتبفت وحسب بإطلاق الريح وحبس الماء. ليني يقف على الرصيف ويتنشق بدوره نسيم البحر ملء رئتيه، وكأن النسيم أنعشه وآلمه في النَفَس ذاته. يجول ببصره، يقف منحنياً محاولاً تجميع قواه، ثم ينظر نحو ڤينس الواقف جانبه مستقيماً واثقاً يتلفت من حوله، فيقول له: " أتذكر أيها الصبي الكبير، أتذكر؟"

ڤينس

أدخل المستشفى والمال في جيبي الداخلي. ثمانمائة خمسينات والبقية عشرينات، رباطٌ مطاطي ومغلفٌ ورقيٌّ بني. لا أظن كثيراً من الناس يدخلون هذا المكان مع مالٍ يدخلون به الكازينوهات عادةً. وأتأمل منه أن يفهم أن تأمين المال لم يكن بالأمر الهيّن. فهو أدرى بسيولة المال، هو من بين كل الناس. ربما يظنّ أن مبلغاً كهذا لا يعدو كونه مصروف جيب لديّ، ربما لأني أرتدي بذلة قيمتها أربعمئة جنيه، ربما لأني أبيع السيارة المستعملة بالآلاف دون عناء، لكنه الأدرى بهامش الربح، هذه الفترة بالذات. أحياناً تتدفق سيولة المال وأحياناً أخرى لا، واليوم بالكاد تنقط.

لذا الأجدر بحسين.

ومتى سأستعيد المال؟ فلا يمكنك رفض طلب رجلٍ على فراش الموت، مهما كان طلبه مجنوناً، لكن هذا لا يعني. ليس بوسعك اصطحاب المال معك حيث ستذهب، لكنه سيفعل، سيأخذ «المال» معه.

وما كان ليصنع فرقاً معي لو أني رميت بهذا المال من على حافة منحدر.

لكني أغادر المصعد وأسير عبر الرواق، من حولي زحمة عربات الترولي والكراسي المدولبة، وها هي تلك الرائحة تفوح من جديد، سرعان ما ستعتادها وتغمرك حتى وإن كنت خارج المستشفى. أقف في صالة العرض وإذ بي أشمها. أتنشق رائحة السيارات لكن تلك الرائحة سرعان ما تطمرها وتغمرني. هي ذاتها رائحة الدواء على طرف القطينة التي يمسحون بها جرحك، لكنها نفاذة أكثر، وفي قلب تلك الرائحة تكمن رائحة أخرى لشيءٍ بائت هزيلٍ ومستهلك، مثل رائحة الورق القديم المتهالك. أظنها رائحة – وأفكر بكل هؤلاء المرضى في هذا المستشفى، رؤوسهم ترقد على الأسرة، وأتساءل ما هي حسابات المستشفى، ويا ترى كم بلغت أرباحهم اليوم. لكني أعود وأقول لنفسي لقد نفّذت ما طلبه مني، نفذت تماماً ما طلبه مني، وحتى إن لم ألمس هذا المال مرةً أخرى، فقد برأت ضميري، ولا ذنب سيثقل كاهلي.

لذا أتهادى عبر الرواق ورأسي مرفوعة عالياً كأني عدت جندياً في ساحة الثكنة والرقيب ينادي علي. «أعدّ نفسك للمهمة!!» وأتأمل كل هؤلاء الأوغاد المساكين مكومين على الأسرة والنسوة العجائز في كراسيهن المدولبة، فأتخيل نفسي أقول لأي مريضٍ فيهم أتحداك إن كنت تملك ألف جنيه أنت مستعدٌ للاستغناء عنها. لكنه في النهاية مجرد مال، أليس كذلك؟ مجرد كومة ورق.

أدخل الجناح وأراه مستلقياً مع كل تلك الأنابيب والمضخات وأجهزة القياس وبطنه منتفخة كأنه امرأة حامل. أراه وأدرك أنه ليس في حال جيدة. أعني بالنسبة لشخص حسم أمره. حاله اليوم أسوأ من حاله في الأمس. كل يومٌ يمر عليه هو دفعة باتجاه طريقٍ واحد لن يحيد عنه. لكني أرى أن شيئاً واحداً فقط يشغل باله، لذا لا أتحايل عليه ولا أغيظه. أسحب مباشرةً المغلف من جيبي بينما أجول ببصري سريعاً من حولي كأني في مكانٍ يعم بالجواسيس واللصوص، وأناوله إياه. أنظر إليه وأقول لنفسي لن أرى هذا المال مرةً أخرى في حياتي.

"هاك المال جاك، كما وعدتك، لا حاجة بك لعده."

لكني أراهن أنه سيعده ما إن أغادر. يكتفي فقط بخطف نظرة سريعة داخل المغلف، يتلمس سمك الرزمة ويمسدها بإبهامه، ثم ينظر إليّ، يتمحصني من رأسي إلى أخمص قدميّ كأنما يحاول استيعابي بأكملي بنظرة واحدة، كأنما هو الرقيب يتفحص نجاحي في أداء مهمتي، ثم يقول لي: "أنت ولدٌ طيب ڤينس، ولدٌ طيب."

آمي

لابدّ أنهم وصلوا الآن، إلى حيث كنا سنذهب، ربما. إلى حيث كنا سننتهي أو نبدأ من جديد، حيث قد نصبح أناساً جددًا، أو نعود إلى ما كنا عليه، أو نبقى كما نحن. ينظر إليّ بينما أجلس على جانب سريره أمسك بيده، وهو يمسد راحة يدي بإبهامه، يحوم عليها بدوائر صغيرة بلطفٍ لكن دون حيوية، فأدرك أننا لن ننظر إلى بعضنا أكثر، لن نحادث بعضنا أكثر. في البداية تعد السنوات، ثم العقود، ثم إذ بك فجأة تعد الساعات والدقائق. وحتى الآن، مع أنها فرصته الأخيرة، لا ينوي ذكرها على الإطلاق، لن ينطق بكلمةٍ عنها. وتمنيت لو عدنا بالزمن إلى غرفتنا في بيت الضيافة ذاك، قبل خمسين عاماً، حتى أرى حينها ما أراه الآن واضحاً أمامي وضوح الشمس، أنه لم يشأ أبداً معرفة أي شيءٍ عنها. «تتوقعين منهم في يومنا هذا أن يستطيعوا فعل شيء، أن يكونوا قد وجدوا طريقةً ما.»

ينظر إليّ آسفاً لتأجيل قرار الانتقال إلى ما بعد فوات الأوان، آسفاً على اضطراره الرحيل ما إن قرّر إصلاح الأمور. كان ينوي أن يصبح رجلاً مختلفاً، بالطبع تلك كانت نيته، فقد أبصر النور والعالم كان سينقلب رأساً على عقب فقط من أجلنا. ينظر إليّ كأنما هو آسفٌ على كونه الرجل الذي كان، الرجل الذي ما يزال. لكنه لا ينوي ذكرها على الإطلاق، وهو ليس بآسفٍ فيما يخصها. حتى أنه لا يكلف نفسه عناء الظهور آسفاً على الأخطاء التي تظنينها ارتكبها في حقك. ينظر إليّ بثباتٍ وحزم فأشيح بوجهي عنه وهلة، وقد تستغربين فعلتي إذ لم يعد هناك من وقتٍ يكفي لتلك التصرفات، لا ثانية لإضاعتها دون رؤيته. لكني أظن سأرى وجهه عمري كله، دائماً سأرى وجه جاك، كأنما أرى صورةً مطبوعة في رأسي. كأن الإنسان لا يموت أبداً في عالم العقل.

لكنه لا يذكر جوون. بل يذكر ڤينس، ڤينس الذي ما كان يوماً ولن يكون أبداً ابننا. يقول: "ڤينس سيعتني بك، هو ولدٌ طيب، لم نسئ تربيته." يقول لي أن كل شيءٍ

سيكون على ما يرام، أن هناك من سيتولى الاعتناء بي، لكنه لا يذكر كيف لم يعتنِ أبداً بجوون، لا يقول لي، «ابعثي بمحبتي إلى جوون.»

ولذلك لن أذكر راي، لن أذكر راي على الإطلاق. رغم أنها فرصتي الأخيرة والوقت قد حان للاعتراف، على جانب سريره، الآن أو أبداً.

فطالما لم يذكر جوون أنا لن أذكر راي، عدالة المعاملة بالمثل. وما تجهله لن يضرك. لكنه ينظر إليّ بثبات دون أن تطرف عيناه، لذا أزيح بنظري عنه مرةً أخرى. وتقع عيناي على السرير المجاور الشاغر هذه اللحظة بعد أن نزعوا عنه الملاءات واللحاف، وما إن أعاود النظر نحوه أرى عينيه ما تزالان على ثباتهما لم تتحركا قيد شعرة، تنظران إلي وخلالي، كأنما يود النهوض عن سريره والمرور خلالي ثم الاستدارة خلفي وعناقي. ثم يقول لي، وكأنها كلمته الأخيرة على كل ما جرى، لِمَ هو الراقد على السرير وأنا الجالسة على جانب السرير أمسك بيده، ولِمَ هو، لِمَ ارتبطت به من بين ألف رجل، حظ ليلة صيف، " في النهاية هي مقامرة، أليست كذلك؟ اسألي رايزي فهو أدرى. لكنك ستكونين على ما يرام."

(مارغايت)

لا تبدو لي نهاية الطريق، لا تبدو لي مستقر الراحة الأخير. لا تبدو لي المكان الذي تود قضاء آخر أيامك فيه حيث ستعثر على السلام والسعادة إلى أبد الآبدين. تلك ليست (بلو بايو[67]). إن نظرت نحو الجهة خلف مبنى الحمّام العمومي، حيث اختفى ليني، فلن ترى سوى السماء الرمادية الملبدة بالغيوم والبحر الرمادي المزبد والأفق الرمادي بينهما يحاول أقصى جهده رسم خطٍ فاصلٍ بينهما. وإن نظرت نحو الجهة الأخرى عبر الطريق فستجد وكأنّ أحدهم دبر على عجل إسدال الألوان على واجهات المباني في تحدٍ للون الرمادي، كأنّ المباني أضحت سرية جنود تم استدعاؤها على الخط الأمامي لإرهاب العدو، ولا يساعدها على أداء مهمتها أزياؤها السخيفة التي تُنقص من هيبتها.

(فلامنغو). (تيفولي). (رويال). (غراب سيتي).

"الشاطئ الساحلي." يقول ڤينس بعد دخوله السيارة في انتظار ليني، على ما يبدو سيعود إلى لعب دور الدليل السياحي، مثلما فعل في كاتدرائية (كانتربري)، عدا أنّ هذه المرة لن يستقي معلوماته من دليل مصور، بل من صور ذاكرته. "الشاطئ الساحلي، مارغايت، «الميل الذهبيّ»". لا أراه مِيلاً، بالكاد يصل أربعمئة ياردة، ولا أراه ذهبياً أيضاً، ليس في هذا الطقس، لا يبدو لي مصنوعاً من الذهب على الإطلاق. «برغر نقانق مثلجات شايات بوب كورن غزل البنات مصاصات». هناك لافتات وأضواء ملوّنة، بعضها مضاء وبعضها متوهج، كل شيء يخشخش ويرتعش على وقع الرياح، ومن حولك ترى لافتات الإعلان مرمية على الرصيف بعد أن اقتلعتها الريح. معظم صالات الألعاب مغلقة ما عدا واحدة أو اثنتين مضاءتان، تلمع وتبرق. على مدخل أحدها رجلٌ يرتدي قلنسوة ومعطفًا بلاستيكيًا، جاثمٌ في

(67) إشارة إلى أغنية Blue Bayou للمغني الأمريكي Ray Orbison. م.

مقصورته الصغيرة، يؤدي واجبه وحسب. لكني لا أرى حشود زبائن تتدفق عليه.

وكأن ڤينس سمع ما كنت أقوله لنفسي: "ليس بالموسم السياحي بالطبع."

يمكنني تخيّل ڤينس يدير صالة ألعاب. لن تختلف كثيراً عمّا يفعله الآن. صالة عرض دودز.

(ميراج). (جولد ماين). (مستري).

طرطشة ماء البحر تبقع النافذة الأمامية للسيارة، فيدير ڤينس المساحات لكن لا فائدة، الطرطشة تحولت إلى لطخة فيطفئها. المطر ما يزال رافضاً الهطول، رغم أن السماء أخذت تكفهر أكثر وأكثر.

ڤيك يقول: "وصلنا في الوقت المثالي أليس كذلك؟ ما كنا لنتخيل هذا الصباح أن الطقس سيضحو هكذا."

ويرد ڤينس على تعليق ڤيك: "على أيّ حال نحن هنا الآن."

البحر لم يعلم بقدومنا.

"ليس بالطقس المناسب لنثر الرّماد" وكأنّ ڤيك هو أول من لاحظ الوضع. لكن ڤينس لا يترك الكلمة الأخيرة له: "يعتمد على وجهة نظرك."

أحضن العلبة.

يبدو وكأن ڤيك يوافقه: "ريح البحر المواتية."

فأقول فقط من باب التأكد: "وأين هو الرصيف البحري؟"

فيجيبني ڤينس بصبرٍ وتروٍّ: "أنت تنظر إليه رايزي، ها هو أمامك هناك حيث تنظر، ذاك هو الرصيف البحري."

"لا يبدو لي رصيفاً بحريّاً."

"لكنهم يسمونه الرصيف البحري، في الحقيقة هو سور المرفأ لكنهم يدعونه بالرصيف البحري." ثم يعود ويعتنق دوره كدليل سياحي شارحاً لي، "في تلك الأيام كان هناك رصيفٌ آخر يدعونه بالرصيف الشاطئي، والذي بدا مثل رصيفٍ بحري، تسير عليه كأنك تسير على رصيفٍ بحري، حيث العبارات ترسو. لكنهم أسموه بالرصيف الشاطئي، والذي تراه أمامك الآن، والذي هو في الحقيقة مرفأ، أسموه

بالرصيف البحري."

" يبدو منطقياً. إذاً ما الذي جرى للرصيف الآخر، الرصيف الشاطئي؟"

ينظر إليّ ڤينس وكأن من المفترض بي أن أعرف الإجابة مسبقاً على سؤالي: "جرفته العاصفة، ألا تدري، في عام شيءٍ وسبعين. أذكر آمي تقول لي، «هل سمعت بما جرى لرصيف (مارغايت) الشاطئي؟» أظنّ لهذا السبب حدّد جاك المكان بالرصيف البحري، هو لم يعني الرصيف البحري، بل الرصيف الشاطئي، وكان يدري أننا سنفهم ما يعنيه لأننا نذكر، نذكر نزهاتنا على الرصيف الشاطئي. لكنه تذكر أن الرصيف الشاطئي ما عاد موجوداً لذا اكتفى بالرصيف البحري."

تشوّشت عليّ الأمور فارتأيت ألا أنطق بكلمة.

ويتابع ڤينس شرحه السياحي: "لا يمكن لك رؤيته من هنا، لكني متيقن من وجوده خلف الرصيف البحري، وجود أثر صغيرٍ من الرصيف الشاطئي نجا من العاصفة، يقف هناك وحيداً قبالة البحر."

فأقول له: "إن نجا من العاصفة حينها فلا أظنه سينجو من العاصفة اليوم."

ومن واقع سلطته التي يملكها كرجل بحرية، لا يتوانى ڤيك عن تصحيح كلامي،"هذه ليست بعاصفة."

فأقول لنفسي بالطبع لا، ومن حولي رذاذ ماء البحر يتطاير.

أزيز النوارس المحلقة في السماء تبدو لي إما دلالةً على سعادتها بقضاء أفضل يومٍ في حياتها، أو تمنيها لو أنها لم تقلع أصلاً.

يحدق ڤينس اتجاه مبنى الحمّام العمومي: "علام كل الوقت الذي يقضيه هناك؟ هل يتبول بركة ماء؟"

ثم نراه يغادر من جانب المدخل الدائري المسوّر لحمّام الرجال. وبوسعه أن يرى أننا جالسون هنا جميعاً في انتظاره، فيتعمد السير اتجاهنا مترنحاً والريح تعصف به، وإن كان يتظاهر بأن وضعه أسوأ مما هو عليه حقا. أيا يكن، ينظر متجهماً نحو السماء ثم يبتسم ابتسامة هزيلة، ذاتها الابتسامة التي ترتسم على وجه الرجل متى ما أفرغ مثانته. يبدو مثل الرجل الذي دوماً ما يتأخر وهو مدركٌ لتأخره، لأن

الجميع حينها سينتظره. يقف وهلة، من خلفه الدرابزون والبحر الرمادي، وربما لأنه شاطئ البحر وهو الآن مركز الاهتمام فلا بد له من أداء فاصل منوّع لكنه محتارٌ بما يجدر به فعله، لذا يكتفي بالوقوف هناك مع ابتسامةٍ عريضة على وجهه مثل الأخرق، كأنما يستعد لالتقاط صورةٍ له. هذا أنا في (مارغايت). الطقس صادم. ثم فجأة يقف على أطراف أصابعه ويرفع قبضتيه، يدفع بكتفيه للأمام ويسدد اللكمات بيمناه. وجه ليني في حد ذاته فاصلٌ منوع. ثم يعاود السير اتجاه السيارة كأنما السير بحد ذاته مجهودٌ كبير، كأنه يسبح ضد التيار. يفتح الباب فيدخل ومعه عصفة ريحٍ باردة ويقول: "ليس بالطقس المناسب لزيارة الشاطئ."

فيجيبه ڤينس: "هي أيام مارس المجنونة."

فيصحح لهِ ڤيك: "أيام إبريل."

فيتهكم ليني: "كذبة إبريل اللعينة."

"المدفعي تايت المجنون." يقولها ڤينس كأنه لم يقصد شيئاً بما قاله، زلة لسان.

"جاك دودز المجنون." يقولها ليني ويصفق الباب. "البارحة الأول من إبريل، أتظنه هرع بنا إلى هنا عامداً متعمداً في هذا اليوم؟"

ولن تعرف الإجابة من مجرد إمساكك بالجرة، فلا ارتعاشات صغيرة، فقط صوت خرخرة المحرك.

ينظر ڤينس اتجاه ليني عبر مرآة القيادة ثم ينظر مباشرةً أمامه. لا زلنا على قارعة الطريق.

ڤيك يقول: "حسنٌ." كأن الوقت قد أزف.

وليني يقول: "حسنٌ."

أما أنا فلا أقول شيئاً. كأننا جميعاً في انتظار شخصٍ آخر يلقي الأمر بالتحرك، وربما أنا من عليه إلقاء الأمر بصفتي من يحمل جاك، من المفترض بي أن أشعر به يقول لنا، «هيا شباب، فلنتحرك من هنا.» لكني لا أقول شيئاً. لن أستلم زمام القيادة.

ڤينس يحدق للأمام، يداه مستقرتان على عجلة القيادة كأنه يقود بنا الآن عدا أننا ما نزال واقفين على قارعة الطريق، كأنما يقود سيارةً متخيّلة. الزجاج الأمامي

يلمع كما الفضة، السماء رمادية كما الرصاص. وما كدت أوشك على إعطاء الأمر، «هيا بنا، فلنذهب.» وإذ بنا نبدأ بالحراك. كأن ڤينس لم يفعل شيئاً والسيارة هي من أخذت القرار عنا جميعاً بالتحرك، كأننا نحن الحمولة والسيارة هي من أدارت نفسها على وضعية الحركة، ونسمع صوت طقطقة، مثل صوت طقطقة الحزام الذي حمل نعش جاك ونقله خلف الستائر الزرقاء المخملية بعيداً عن أعيننا.

لا تبدو لي نهاية الطريق، لا تبدو لي النهاية التي تسعى إليها وتسعى من أجلها. بل تبدو مكاناً يحاول الإبقاء على مدار العام ما يأتي الناس من أجله لأسبوعٍ سخيفٍ واحدٍ فقط. إذاً هذا ما ستحظى به، هذا ما ستحصل عليه هنا. أن تعود طفلاً من جديد، تحمل دلواً ورفشاً ومغرفة كبيرة ملأى بالآيس كريم. أو هي الوقوف على الحافة، حيث أنت الآن، حيث كنت وستبقى، وأنت أدرى بما أقول. ليس إلى حيث يؤدي بك الطريق، بل حيث يقف بك الطريق، على اعتبار أن البحر من يقف أمامك. نهاية الطريق، نهاية الرصيف البحري. «سبلاش». ولو كان البحر مكانًا رائعاً وممتعاً لهذه الدرجة، فما الحاجة إذاً لكلّ محلات التسلية تلك؟ كل صاحب محل منها يحاول دغدغة مشاعرك ورغباتك مثل سرية عسكرية من المومسات العجائز. كأننا لسنا على ساحل (كِنْت) بل شارع الدعارة في القاهرة.

(فلامينغو). (تيفولي). (رويال).

ڤينس يدع السيارة تسير على مهلها للأمام، بالكاد يلمس دواسة البنزين، كأن السيارة تعرف ما عليها أن تقوم به، المرسيدس لها عقلها الذي تفكر به، مثلما عرف (دووك) دوماً طريق العودة إلى البيت، وأدرك ما الذي يفعله ڤينس، أرى ما يصبو إليه. كأن السيارة تحولت إلى عربة موتى، عربة بلون الأزرق الملكي. فهذه رحلة جاك الأخيرة، على الساحل الشاطئي، (مارغايت)، على طول (الميل الذهبي). الرحلة الأخيرة لليوم، إيه جاك؟

يُبقي ڤينس نظره مستقيماً للأمام، يداه على عجلة القيادة، لا يريد لأي شيءٍ أن يلهيه. (ميراج). (جولد ماين). (أوشين). كلها أدوارٌ مطلية مثل قصور الرجال الفقراء، عدا واحد، عند نهاية المتنزّه، يلوح في الأفق ويعلوهم جميعاً، برجٌ من

القرميد معلقٌ عليه بضع كلماتٍ كبيرة. فيبدو وكأنما نحن في طريقنا إلى السجن لا الملاهي. كنّا تجاوزناه توًّا، لكن بينما نقود أسفل التل يلفت انتباهنا جميعاً العجلة الكبيرة تبزغ من خلف البرج، وطائر الغطاس الكبير، أسودُ ومستدقٌ قبالة السماء الرمادية. هذا ما اشتهرت به (مارغايت)، هذا ما يأتي الناس هنا من أجله.

«أرض الأحلام.»

آمي

وأقصى ما تمنيته، أقصى ما تمنيته طوال الخمسين عامًا، وصدقيني لم أتمن مال قارون، هو أن تنظري إلي، ولو مرّة، وتقولي، «ماما». ليس بالطلب الكبير، ليس بالطلب الذي يستدعي الانتظار كل تلك السنين. اللعنة! «عمرك خمسون عاماً». لكنت غادرت العش، لكنت رفضت وجودي حولك، لكنت تقودين حياتك دون أيّ تدخلٍ مني. كُرمى للرب، ماما! أنا «فتاةٌ كبيرة.» حسنٌ، حسنٌ إذاً، امضِ بحياتك أيّتها الفتاة الكبيرة، افعلي ما تشائين كما تشائين. هي حياتك، هيا اذهبي وحطميها. حاولت معرفة كيف تبدو الحياة لك. أن تعيشي في الدار التي أكتفي فقط بزيارتها. أن أعلق في جسدٍ مثل جسدك طوال الوقت، الجسد الذي لا أراه إلا مرتين في الأسبوع. ولا يفترض أن يصعب عليّ معرفة جسدك، أليس كذلك؟ لأنه يوماً ما كان بضعةً من جسدي. لحمي. لكني أظنهم متى ما قصّوا ذاك الحبل، يقصون معه كل ما يربط الطفل بأمه. كأنهم يقولون لك، أنت وحدك الآن، فاعتمد على نفسك، أنت منفصل ومختلف مثلك مثل البقية، ومن الجنون التفكير بغير ذلك. وحين جمعت كل ساعات الزيارة التي قضيتها يومين أسبوعياً، اكتشفت أن الوقت الذي مضيناه سوياً برفقة بعضنا لم يتجاوز العام، وهو ليس بكثير مقابل خمسين عامًا، ليس بكثير بالنسبة لأم وابنتها. لكن إن نظرت إليها من زاويةٍ أخرى، فهو عامٌ كامل لم أفعل خلاله شيئاً سوى زيارتك.

هذا من أكون، هذا ما أصبحت عليه: زائرة. وحين ذهبت لرؤية جاك في تلك الغرفة الصغيرة، ڤينسي يقف خارجاً في الانتظار، ذاهبة لأزور جسد جاك، ولك أن تقولي إني زرته مثلما زرته حين كان جسده حياً، لكني لم أعدّ مرات زيارتي له في الخمسين عام، قلت لنفسي: ما الفرق؟ هو لن يتغير إلى أي شيءٍ آخر الآن، لكن لا تخدعي نفسك آمي دودز، فتلك لم تكن حقيقة جاك حياً ولن تكون حقيقته ميتاً.

لذا ما ينطبق عليك بنيّتي، ينطبق عليه. وربما لهذا لم يزرك أبداً في حياته، لأنه

سبق وزار نفسه، تأمل نفسه جيداً وهو مستلقٍ في تلك الغرفة الصغيرة حيث يسجى جسده عالماً أنه أبداً لن يتغير. وربما تلك كانت تضحيته لك: إن لم يكن لك من أملٍ في هذه الحياة فلا أمل له هو الآخر. ضحّى بكلّ جاكٍ كان له أن يكونه. وهنا الخدعة التي اكتشفتها الآن. ربما جاك دودز، زوجي، كان قديساً حقا وأنا التي لم أدرك أبداً تلك الحقيقة، أنني أنا من كنت الضعيفة والأنانية. أهلاً ماما.

«أفضل ما يمكننا فعله آيم هو...»

أيها الوغد، أيها الجزّار.

وقفت هناك ويدي على جبينه البارد، باردٌ مثل الحجر، أتأمله وأقول لنفسي هذا الرجل هو الوحيد الذي كان عليه جاك وأبداً سيكون، الوحيد ولا أحد غيره، مسكيني مسكيني جاك. لابدّ أنهم أحضروه من الثلاجة وسيقحمونه داخلها مرةً أخرى، مثلما اعتاد أن يفعل مع لحوم الخنزير والبقر. قل شيئاً جاك، لا تلزم الصمت معي أنت الآخر.

قلت لنفسي لابدّ أن أظهر قويّة وفخورة وهادئة أمام ڤينسي. على الأقل منحنا ذاك الطفل البائس بيتاً.

قلت له: "هلّا دخلت وألقيت عليه نظرة، ڤينسي؟"

حاولت معرفة كيف هي الحياة بالنسبة لك فتاتي، ما هو شعورك لفقدان كل ما فقدته من الحياة دون معرفة أصلاً ما فقدته. حاولت معرفة إن كان من الخير لك أم لا، لو عرفنا مسبقاً بوضعك وكان أمامنا الخيار، لو أطلقنا عليك رصاصة الرحمة قبل حتى أن تعرفي أنك أنتِ. إن كنت تعرفين الآن أنّك أنتِ. حينها لأصبحنا أنا وجاك أحراراً لنسير في طرقنا المختلفة في الحياة، والفضل سيعود إليك لأنك تنازلت عن حياتك، ضحيت بها من أجلنا.

عدا أن ذاك المنحى لا يبدو قد أفاد سالي تايت بشيء، المسكينة سالي الصغيرة التي–فاتها–موعد–دورتها تايت، لم يفدها على المدى القصير ولا الطويل. فقد انتهى بها الحال أيضاً لتلعب دور الزائرة، زائرة لزوجها، الطائر الحبيس في السجن. ثم حظيت هي بزوّارها، زوّارٌ يدفعون لقاء زيارتها. هي لقمة العيش، ولكِ أن تري ما قد

يدفع بامرأة لسلك ذاك الطريق. فوالدها ليني تايت أدار لها ظهره، غسل يديه منها. هي حياتك، هيا اذهبي وحطميها. رغم أن أيامه باتت معدودة هو الآخر، يكفي أن تنظري إلى وجهه لتدركي أنه أضحى حُطاماً. ولا أدري إن أدارت جوان تايت ظهرها هي الأخرى لابنتها أم لا، لا أدري ما الذي تفكر به. لكني أظنها عرفت دائماً بإعجاب ليني السري بي.

ثم هناك الجريمة التي وقعت في تلك الأيام، ما كانوا يعدونه جريمة في تلك الأيام التعسة، جريمة. هل أقطعه لك سيدتي؟ لكن لم ندعُها جريمة، فإن فكّرت فيها، مع كل المآسي التي تقع، فلا بد أن نصف أهل الأرض يتمنون معظم حياتهم لو أنهم لم يولدوا أصلاً. أنا وأنت علينا أن نمْتنّ لحظنا، أليس كذلك، محظوظتان جداً جوون. وحقيقة الأمر، الحقيقة المؤلمة للأمر، أنّ سالي لطالما رغبت بڤينس، وأنا لم أتوقف أبداً عن الرغبة بجاك. دعنا نذهب جميعاً إلى أرض الأحلام.

قرون الفاصولياء. المصفاة. ثقوبٌ في رأسك وما شابه.

ما لها الحافلة اليوم تزحف. لابدّ أنّه المطر الذي أغرق الشوارع وحولها أنهاراً. الطقس الغادر. لكن الحافلة دائماً تعبر وتصل محطتها. سأتأخر عنك اليوم فتاتي، لكن لن يصنع تأخيري فرقاً معك أليس كذلك؟ فمنذ متى تدركين الوقت والأيام؟ فحتى في تلك الأيام، أيام الاثنين والخميس، تخيلتك جالسة «تنتظرين.» تقولين لنفسك، اليوم الاثنين، اليوم الخميس، فلا بد أنها ستأتي، آمل أنها ستأتي، آمل ألّا تنساني أبداً.

وأصلاً لا أريد لهذه الرحلة أن تنقضي بسرعة، ليس اليوم. أريد وقتاً لأفكر بينما الحافلة تخوض الطريق بصعوبة، أحتاج وقتاً لأعدّ ما ساقوله لكِ.

حاولت وأملت وانتظرت خمسين عاماً ولا يحق لك لومي الآن. يحق لك لومي على أنك ولدتِ أصلاً لكن لا يحق لك لومي الآن. خمسون عاماً وكفى. وربما ولادتك في نظر أناسٍ كثيرين هي خطيئة، لكن طالما ولدت، فدع عنك التباكي وامضِ قدماً في حياتك. وهذا ينطبق عليك أيضاً فتاتي، عليك أيضاً. فلم يبق سواكِ أنت لتثبتي الحقيقة: لمَ أضحت الحياة على ما هي عليه الآن لو لم تولدي أبداً، لِمَ تمضِ بنا

الحياة وكأنك لم تكوني أبداً. خمسون عاماً تفوق ما يلزم لتربية طفل. وأنا آسفة على كل الآمال والوعود الكاذبة، وكل لحظات الضعف، وآسفة على كل الأطفال الاحتياط الذين لعبوا دورك: ڤينسي وسالي وماندي. لكنهم جميعاً عجزوا عن الحلول مكانك، فلا أحد منهم هو أنتِ. جوون جوون جوون.

لابد لي من العثور على نفسي الآن. رغم أنك لا تعرفين مغزى ما أقول، فكيف لكِ؟ انظري إلي، أرملةٌ ضعيفة مسكينة، تجلس في الحافلة رقم 44 ، في الطابق العلوي، والرب وحده يعلم ما دفعني للجلوس هنا أصلاً، أرى العالم من حولي لكن عبر نافذة ضبابية، نافذةٍ شنيعة. (بيرموندزي) هذه الأيام أضحت معزولةً ونائية، صدقيني فتاتي آمن لك الوجود حيث أنتِ. والآن لأننا تأخرنا وحان وقت خروج الطلبة من المدارس فقد توقفنا عند محطة انتظار حيث مجموعة كبيرة منهم يصرخون طلباً للدخول، أشقياءٌ بحللٍ كحلية. ها قد تكدسوا جميعهم في الطابق العلوي يتدافعون ويصيحون كأنهم عاجزون عن الحديث بشكل طبيعي. وأنا مدركة أنهم مجرد أطفال، أطفال يحاولون التنفيس عن أنفسهم، لكنهم يرعبونني حتى الموت. يرعبونني حتى الموت الآن أكثر مما مضى لأن جاك ما عاد موجوداً. ولا أدري أين الفرق، فجاك أصلاً لم يكن موجوداً معي على الحافلة ولا لمرة واحدة. فمتى ما كنت هنا، هو هناك خلف النضد، تفضلي قطعة خصر بقري سيدتي. لم يأت أبداً لزيارتك، أبداً. وأبداً لم يسألني عنك، أبداً: كيف حالها؟ كيف حال جوون؟ لكني اليوم مذعورة حتى الموت، فهو وإن لم يكن معي هنا، فهو ليس هناك، حيث كان دائماً، هاك قطعة فخذ جيدة. حتى أنه لم يعد مسنوداً إلى وسائد سرير المستشفى، وكأنه قضى عمراً هناك، حياة بأكملها قضاها يتلقّى الزيارات. ما رأيك آيم بزيارتي في مكاني الجديد. وحتى آنذاك لم يأتِ على ذكر اسمك قط. ما عاد الآن في أي مكانٍ في العالم. إمّا أنّ الموج جرفه للبحر، أو خلطه برمال (مارغايت)، هذا إن سار كل شيءٍ على ما يرام، إن تمكنوا من تنفيذ طلبه قبل تقلّب الطقس إلى ما هو عليه الآن. وأدري ما الذي سيدور في خلدهم: وجب عليها أن تأتي، وجب عليها أن تأتي، وجب عليها. ألقوا باللوم عليّ أنتم أيضاً، لوموا آيم. لكن وجب على أحدٍ أن يُبلغك.

ما أحاول قوله لكِ أن الخطأ اللعين هو خطؤك أنتِ. إن لم يقبّلك أحدهم، إن لم يفتقدك أحدهم، عداي أنا. المستقبل المظلم هو مستقبلك أنتِ. ولا يسعني أن أتوقع، ولا يسعني أن آمل ولو أملاً ضعيفاً، أن بعد خمسين عاماً من جمودك، لا وصوصة ولا همسة سمعتها منك، أنك الآن وبعد كل تلك الأعوام من انتظارك اللحظة المناسبة ستقولين لي: أنا متفهمة ودائماً ما تفهمت وضعك، لا بأس الآن، امضِ بحياتك وانسيني.

ما أحاول قوله لكِ هو وداعاً جوون. وداعاً جاك. أودّعكما وكأنما أودّع الإنسان ذاته. منذ اليوم علينا أن نمضي في حياتنا دون رفقة بعضنا، علينا أن نسير في طرقٍ متباعدة. عليّ أن أفكر في مستقبلي الآن. أذكر أن راي قالها لي مرةً، كم أنا مقصّرة بحقّ نفسي.

تذكرين راي أليس كذلك؟ العم راي؟ أنا وهو جئنا لزيارتك مرة، في ذاك الصيف الذي فوتُّ فيه أيّام الخميس.

والآن عليّ أن أكون المرأة التي أنا. لكن ما كنت لأتوقف فجأةً عن زيارتك دون أن أقولها في وجهك: وداعاً جوون. وما كنت لأقول لكِ هذا دون أن أقول لك الشيء الآخر. لن يعني شيئاً لك لكن على أحدهم أن يقول لك، لأن أحداً آخر لن يفعل. أنّ والدك، بابا، بابا الذي لم يأتِ يوماً لرؤيتك، من لم تعرفيه قط لأنه ما ودّ معرفة شيءٍ عنك، والدك فتاتي، قد.

راي

كلّما كان عاري الصّدر فهو يحفر خندقاً، يحمّل شاحنة، يعبّئ الذخيرة، أو متى ما كان – ولن تسمع بهذه التسمية إلا في الجيش – يتوضّأ، أو حين خلد تلك المرة للنوم في ظل الجدار المنهار في (مطروح) بينما من المفترض بي أن أحرسه، ففي أحيانٍ كثيرة لا شيء أغلى على قلب الجنديّ من الخلود للنوم قليلاً، في كل تلك المرّات كنت أنتهز الفرصة لاقتناص قميصه وتناول المحفظة من جيبه العلويّ. لابدّ أنّي بدوت لصًّا عدا أني لم أسلبه شيئاً. فقط أسحب الصورة وأتمنى لو كنت محلّه. هناك ما هو أكثر جنوناً تضطر إلى فعله لتُبقي على نفسك عاقلاً متى ما كنت تائهاً في الصّحراء. رغم أني لو كنت محلّه وحظيت بها لما احتجت إليه درعاً وحامياً، لما احتجت إليه ليقف حائلاً بيني وبين طلقات الرصاص. لما كنت الرجل الضئيل الذي يختبئ خلفه، بل لكنت الرجل الضخم في المقدمة، هدفاً كبيراً في عين العدو.

وعلى كل حال، كان قد تضاعف لدي الشعور بهواني وقلة حيلتي منذ أن قدمت لدى سماعي بخبر وفاة والدي. ولأن الأخبار تصل ببطء وقت الحرب، فلدى سماعي بوفاته كان قد توفي حقًّا قبل أسابيع، ولم أدرك وفاته حينها. كان ميتاً لدى امتطائي الجمل مع جاك، يوم كنا نمعن النظر بالمومسات. حين بالكاد كنت قد وطأت أرض إفريقيا. أنا، في إفريقيا. حسنٌ ابني راي، سترى شيئاً من العالم، سترى ما هو أبعد من الطرف الآخر من (بيرموندزي)، لكن أبْقِ رأسك اللعينة منخفضة، هذه وصيتي لك. يا لها من وصيةٍ أبوية، غريبة ومتناقضة.

لم تكن بقنبلة، بل صدره. وما كنت لتظن أن وفاته قد تصنع فرقاً في أمنك وسلامتك في الصحراء، إن لم يعد موجوداً معك، مع أنه لم يكن موجوداً معك، حين لم يعد هناك، بعيداً عنك، لا نفع لك به حياً وميتاً على حد سواء. عدا أن وفاته سلبتني شيئاً، سلبتني سنداً. كأن بذهابه، الدور التالي أضحى عليّ الآن.

وكم تستغرب لدى تفكيرك، كيف كان المفترض بالأمور أن تجري، وكيف جرت على

العكس. كيف أني أودعت البطاقة البريدية قبل سماعي بوفاته بقليل، لأخبره أني ما أزال حياً أرزق مستمتعاً بأشعة الشمس، كأني ألّمح له كم وددت لو كان هنا معي. أظنه كان سيدير تجارةً مربحة مع كل خردة الحديد المتناثرة في كل مكان، والهواء كان سيناسب رئتيه، جاف ونظيف عدا الغبار والدخان وأبخرة الوقود والذباب اللعين. ولابدّ أنّه هيّأ نفسه واستعدّ لسماع خبرٍ عني، العسكري جونسون. آر، سقط على أرض المعركة. واساني جاك قائلاً: "على الأقل لن يقلق عليك بعد الآن." أراه مستغرقاً في النوم أسفل الجدار مثل الميت. وأخذت أتخيل نفسي في مستقبلٍ قد يأتي فيه وقتٌ أقول لتلك الفتاة في الصورة، «السيدة دودز؟ آمي دودز؟ أنت لا تعرفينني لكني عرفت جاك. هناك في أفريقيا.» أحمل لها بين يدي صُرّة تحوي ما يسميها الجيش متعلّقاتٍ شخصيّة. «اسمي راي جونسون، وأسكن قريباً من هنا.» وتذكّر ،ابني راي، أنت لم تُخلق لتجارة الخردة.

من الواضح أنّ الصورة التقطت على شاطئ البحر. ثوبٌ صيفي، ابتسامة صيفية، مصوّر من مصوري الشاطئ. والآن بتُّ أعرف أين التقطت بالضبط.

نقود على مدار الواجهة البحرية ببطء مثل الحلزون، بوقار ومهل وبما يليق. لكن علينا أن نستعجل إن أردنا تجنب هطول المطر. لكن مما أراه من الرذاذ الذي يضرب سور المرفأ، أعني الرصيف البحري، فيبدو لي أننا سنبتل في كل الأحوال. لابد وأن الرياح تعصف عبر الجون، من الغرب إلى الشرق. الواجهات أخذت تفقد فخامتها شيئاً فشيئاً وما عاد من طريقٍ واسعٍ يفصل بينها والبحر، تراها مهلهلة وشبه مهجورة إما لأنها الواقفة في عين العاصفة أو لأنها من الأساس لا شيء لديها لتقدمه. (ماري كوفي بارلور). بعضها مصاريعها مغلقة كما لو أنها لن تفتح أبداً. (رولاند روك شوب). (روبي لاونج). أظن عينا ليني الآن على حانة (روبي لاونج) الهرمة. أظن عيوننا جميعاً الآن عليها. (كازونوفا) (فيم فاتال لانجريه)، (هيلث آند بيوتي).

ليس بكثير، إن كان هذا فقط ما ستحصل عليه فهو ليس بكثير للكتابة عنه في رسائلك. إن كان البحر مجرّد بحر، مجرد صحراء مبتلة، وما عداه زركشاتٌ تافهة. رصيفٌ بحري، بطاقة بريدية، بنس تدسه في ماكينةٍ ما. مما يبدو لي فبوسعك أن

تقول إنّ جاك وآمي قد نجيا بجلدهما من الانتقال هنا، آمي نجت بجلدها. فما هذا إلا حلمٌ فقير. عدا أنّ الأحلام كلها فقيرة.

أربعٌ وثلاثون ألفاً.

بوسعي رؤية العالم. فلا يعقل ألا أرى منه سوى البحر والصحراء. سأتمكن من رؤية الجانب الآخر من العالم، (ميناء سيدني) و(شاطئ بوندي) الذي يطيح بمارغايت في لحظة إذا ما قورن بها. وسأتمكن من رؤية سو، قبل أن تصلها تلك الرسالة، قبل أن تخبر آندي الذي لا أظنه يرتدي ذاك المعطف الأفغاني حتى الآن، «إنّه أبي.»

لقد سقط.

وسأتمكن من القول لها إني آسف، آسف على انقطاعي عن الكتابة إليك. لأني أنا من انقطع أولاً، أعترف بذلك، لكن كانت لي أسبابي. نعم أنا رجلٌ ضئيل، لكن لي كبريائي ولا أجيد الاعتراف. لم أكتب لك بسبب كارول. لأن كارول تركتني، هجرتني من أجل وغدٍ ما، وكم كنت خجلاً وخائفاً من الاعتراف لك لأني ظننتك ستفكرين، مع كل تلك المشاجرات والإمساك بخناق بعضكما أنت وأمك، أن الخطأ هو خطئي، أو قد تعتقدين أني أتسول شفقتك، أنّي نوعاً ما ألوم هجرها على قرار رحيلك عني. وهكذا قررت من الأفضل ألا أراسلك على الإطلاق، خيرٌ من اختلاق الأكاذيب، هذا ما اعتقدته حينها. والآن بتِّ تعرفين، وتعرفين ما الذي خبّأته عنك طوال الخمس وعشرين عاماً الماضية، وربما معرفتك بالحقيقة قد توتّر الأمور بيننا أكثر. فعلى مدى خمسٍ وعشرين عاماً ظننت أني وكارول نعيش سوياً على الجانب الآخر من العالم، ونحن، أنا بالذات، قررنا الانقطاع عنك. بعيد عن العين، بعيد عن القلب. ولابد لقرارنا هذا أن جعلك سعيدة أكثر لاتخاذك القرار بالرحيل عنا. لكن ها أنا الآن أقف أمامك، لأخبرك، لأقول لك ما أودّ قوله في وجهك. كارول هجرتني بعد ستة أشهر من مغادرتك البيت، تلك هي الحقيقة. ولم أعد مشتاقاً لها منذ أمد طويل، هكذا هي الحال، لكني لم أتوقف يوماً عن الاشتياق لك.

والآن أين هم أحفادي؟ وأين حمام السباحة؟ ألن تصطحبيني لرؤية الكوالا؟

سأرى العالم. خيرٌ لي من رؤية مضامير السباق. ونكانتون*وولفرهامبتون*يورك. أفضل بكثير من ملاحقة الخيول. هل سمعت؟ العجوز جونسون المحظوظ قد تخلى أخيراً عن ملاحقة الخيول، ولن يضع رهاناً آخر في حياته. فالعالم مليء بما فيه الكفاية بالرجال الوحيدين، الرجال معدومي الحظ، يحومون حول مضامير السباق ومكاتب الرهانات، يتعلقون بنتائج المباريات ويمزقون البطاقات، في ظهيرة كل أحد تجدهم يحومون مثل الحمقى الذين نراهم على الشاطئ متشبثين بعصيّ كشف الذهب.

وسأقول لسوزي، هناك أمرٌ آخر لم أخبرك به. أنا لم أقطع كل تلك الطريق إلى هنا وحدي. لا يا فتاتي. لحظة، هناك شخصٌ أودّ – هذه آمي، آمي أتذكرينها، آنتي آمي كما اعتدت مناداتها؟ عدا أنها لم تعد آنتي آمي، ليس بعد الآن. أنت تعرفين السبب وراء هذه الرحلة؟ هي ليست فقط برحلة، ليست فقط باجتماعٍ عائلي.

لكن حينئذٍ سيتوجب عليّ كذلك الاعتراف لك بذنبي، أنا وآنتي آمي قمنا بما قامت به أمك مع – لكن لن يتحقق أي من هذا إن لم أعرض الأمر أولاً على آمي، إن لم أطلب منها، إن لم أراهن بطلبي الأخير عليها. فلن تحظى بشيءٍ دون طلبه، لن تنال شيئاً دون مجازفة، هذه القاعدة الأولى في الرهان. لكن حتى وإن فعلت، فقد لا تنال شيئاً في المقابل سوى قلب الجمر من تحت الرماد. لن تحظى بشيءٍ سوى الرماد. قالت لي، "فلنضع حداً لما يجري بيننا فما عدت أحتمل، أود زيارة جوون من جديد." بدت لي وكأنها راهبة فرّت من ديرها. "ما عدت أحتمل عدم رؤيتي لها."

«هل ترغبين بمرافقتي في رحلةٍ إلى أستراليا؟ هناك في الأسفل؟»

وافرض أنها قالت، «لا، انسَ الموضوع راي، فما جرى بيننا حدث قبل عشرين عامًا وقد تقدم بنا العمر، أضحينا عجوزين الآن،» أو افرض أنها اكتفت فقط بالرد، «انس الموضوع.» لذا ربما من الأفضل لي أن أرتحل وحيداً، كما فعلت طيلة حياتي، الارتحال على طول ذاك الطريق الطويل نحو الأسفل وحيداً مع ثلاثين ألف جنيه في محفظتي، ثقلٌ إضافي. ولا حاجة لأحدٍ أن يعرف. حتى ڤينسي لن يعرف بما جرى لألفه. سأكتم القصة بأكملها.

لن تتحقق مرةً أخرى، معجزةٌ كهذه يستحيل وقوعها مرتين. وبشكلٍ ما أو بآخر، سأعتبرها هدية جاك لي.

أو ربما الأجدر بي أن أعطيها المال وأصارحها. هاكِ آيم، هذه ثلاثون ألفاً كفيلة بتأمين حياةٍ مريحة لك. لا تشكريني، بل اشكري جاك وحصان. لكن آنذاك كيف لي ألا أخبرها بالقصة كاملة، أن ما حدث هو إشارة لنا، بَرَكةٌ لنا، سماحٌ لنا نحن الإثنين لنواصل من حيث وقفنا. وذاك سيكون الرهان الكبير، مالك أو حياتك، الرهان بحياتي كلها على نعمٍ أو لا. فما رأيك آيم؟ والعالم كله سيشهد يومها أني فعلاً محظوظ. وحينئذٍ لن يكون أنا من يرى العالم، بل العالم من سيراني. ها هو رايزي الحصان الأسود. ويا له من حصانٍ سريع وذكي إن سألتني.

وفي كل الأحوال هو «عرف،» كان على علمٍ بما جرى طوال الوقت. هذا مختصر الحكاية. كتمه في صدره وخاط الجرح الغائر في قلبه مثلما خاطوا شقّ مبضع الجرّاح الغائر في بطنه. وكأنّي به، بينما كان يستلقي على فراش الموت، يقول لي، «هاك راي، هاك فردتا حذائي، هيّا، هيّا ضعهما في قدميك، وامضِ بهما. فحذائي كان مقدراً لك منذ البداية. لو لم يكن العالم محكوماً بعشوائية الفرص، لو كنا نملك الخيار ولنا أن نرى العالم على حقيقته لكنت أنت وآمي. لو كنا نملك الخيار لكنتَ جوكي يمتطي الخيول الرابحة في سباق (ديربي) ولكان ليني بطل الملاكمة في فئة الوزن المتوسط، ولكنت أنا الدكتور كيلدار[68]. وفيك؟ أظن ڤيك هو حيث أراد دوماً، ڤيك هو من أدرك سرّ الحياة.

هيّا، تناولهما، نعم الفردتان أكبر من مقاسك بأربع مرات، لكني متأكد أنك لن تجد مشكلة في السير بهما.

لو كان لنا جميعاً أن نرى. نقترب الآن من حيث يبدأ الرصيف البحري. (بارنيكلز فري هاوس). (ثانت ماتش رووم). (سنووكر آند سوشيال). لو كان لنا جميعاً أن نرى ونختار، لأفلست كل مكاتب الرهان. لكن أحياناً هناك أمورٌ تقع في حياتنا،

(68) دكتور كيلدار – Dr. Kildar: شخصية تلفزيونية أمريكية اشتهرت في الستينات. م.

رغم عمانا تقع، لم نرها ولم نخترها لكن لو رأيناها لكنا اخترناها، تقع رغماً عنا، كأنها هي من رأتنا واختارتنا أولاً، هي من رأتنا قادمين نحوها، كأن الحياة لم تتجاهلنا ولا غضت النظر عنّا، مع أننا لسنا بالأطول، الأذكى، الأروع، ولا أكثر المراهنين حظاً في الجوار. ها هي السماء بدأت تكبس علينا من الأعلى كأنها على وشك الانفجار، وفينس يبحث عن مكانٍ مناسب ليركن السيارة، وما يخطر على بالي لحظتها أني أنا من يمسك بالجرة ولا أستحقها. السماء تكتسي بلون الهجران، لون الرماد الرطب.

المطر قادم. أوه راي، كم أنت رجلٌ رائع. أن تعيش حياةً بأكملها وتسمع امرأةً تقول لك تلك الكلمات، حتى وإن لم تكن الحقيقة. أنت رجلٌ رائع. المطر ينهمر على السقف، صياح الجماهير يغمرنا مثل موج البحر، عيناها دامعتان، جمرةٌ متقدة في صوتها: أوه راي كم أنت رجلٌ رائع، رجلٌ محظوظ، بصيصٌ صغيرٌ من أمل، شعاعٌ صغيرٌ من نور.

جاك

قال لي: "جاك، بنيّ، الأمر كله يقف على الهدر. ما عليك أن تفهمه أن ما يدخل الدكان ليس بما يخرج منه. فنُّ الجزارة بأكمله يكمن في تفادي الهدر. لو كان للجزار أن يربح مما يطرحه في سلة المهملات ومستوعب الشحوم لكان رجلاً سعيداً، أليس كذلك؟ لضحك ملء قلبه. إن طرحت وزن الهدر من وزن ما اشتريت، وقسّمت المتبقي على ما دفعت، فستخرج بالتكلفة الحقيقية المقارنة مقابل مدخولك، وإيّاك أبداً أن تنسى هذا. العظام ستكلفك، الشحوم ستكلفك، انكماش وزن الذبيحة سيكلفك، إهمالك شحذ سكاكينك سيكلفك. والقطع الفاسدة التي لا تصلح للبيع على أحد، إما بسبب سوء التخزين أو التقطيع الرديء، ستكلفك أكثر من أي شيءٍ آخر. عليك أن تبقي عينيك مفتوحتين دوماً على الهدر، دوماً مفتوحتين. فما عليك أن تفهمه، بنيّ، هو طبيعة بضاعتنا. هي بضاعةٌ قابلة للتلف."

(مارغايت)

يركن ڤينس السيارة وأحضن الجرّة إليّ قائلاً لنفسي، لا أستحق، لا أستحق. هناك جرفٌ وعر بين الطريق والبحر، وفي وسطه مبنى صغير كأنه وجار، ملحقٌ به برج ساعة، أظنه مكتب جمرك أو ما شابه، ومن خلفه يبدأ الرصيف البحري. على جانبٍ ترى مدخل المرفأ على الجون، تراه فيبدو لك مثل إبط الرصيف البحري، ومنه ينحني للأسفل منحدرٌ اسمنتي. وعلى الجانب الآخر الواجهة البحرية، مرتفعة ومسيجة بحاجز، تنحني في الاتجاه المعاكس، ومن خلفها ترى المنحدرات من بعيد، بيضاء ضبابية في قلب الضوء الرمادي، والنوارس إما في السماء تمارس حيلها أو مصطفة على الحاجز متخصّرة تضم أجنحتها. وكأن لم يعد أمامك من شاطئٍ ورمال، بل بحر شاسع على طول المدى، بحر الشمال، المحطة القادمة النرويج. وكأنّ الرّصيف البحري وُجد أصلاً ليشكل الجون والشاطئ والمرفأ، ذراعٌ تحميها جميعاً من عناصر الطبيعة، عدا أنّ الطبيعة بعناصرها اليوم تبدو متأهبة للانقضاض عليه.

ما كاد ڤينس يطفئ المحرك حتى قال: "حسنٌ." وفتح الباب على عجل مغادراً السيارة. "هيا بنا ننفذ، هيا بنا ننفذ." كأن القيادة البطيئة على مدار الواجهة البحرية ما كانت إلا شدًّا لزنبرك، والآن كل شيء عليه أن يتم على عجل. لكن حتى السماء تعلمنا أن علينا شق طريقنا متعجلين وإن مترنحين، فلا سماء ستبقى هكذا ملبدة بالغيوم دون أن تنفجر. ڤينس ينظر للأعلى، يرفع يده مكوّبةً للأعلى، منها ليتحسّس قطرات المطر ومنها ليومئ لنا بهزّ أصابعه أن علينا النهوض فوراً والتحرك قدماً. المطر لم ينهمر بعد، فقط قطرات منه وكأن السماء تبصق في وجوهنا لتغيظنا. لكن الأمواج هي من تأهبت لما هو قادم، تراها تحتشد وتتدافع وتتلوى مثل قطيع حيواناتٍ في انتظار طعامه، كأنها متأهبة ومستعدة للتبلل أكثر.

ليني يقول: "ربما علينا أن ننتظر برهة، لا أظن جاك سيمانع تأخُّرنا ربع ساعة."

ويقول ڤيك مصححاً: "ليس بمطرٍ عابر، نحن أمام عاصفةٍ عنيفة تتأهب للانقضاض."

آي آي قبطان.

يدور ڤينس حول السيارة اتجاه الصندوق ويتناول معطفه، كان قد ترك الباب من خلفه مفتوحاً وإذ بعصفة ريحٍ باردة تدخل السيارة وبرفقتها هذه المرّة الرائحة الكريهة لشاطئ البحر: القار والماء الآسن والوحل، كريهة لكن في الوقت ذاته نظيفة ومنعشة. تبدو لي مثل رائحة ذِكرى، ذكراك طفلاً عن شاطئ البحر، عدا أنَّ أحداً لم يصطحبني يوماً إلى شاطئ البحر. «رصيف جسر البرج[69]، هذا هو الرصيف الوحيد المكتوب لنا أنا وأنت ابني راي.» رائحته رائحة الذاكرة نفسها، رائحة قِدرٍ مليءٍ بالكركند.

يعود ڤينس من الخلف حاملاً معه معاطفنا وسترنا ويقف حيث يتسنى لنا جميعاً رؤيته. وكأنه عاد والدنا من جديد. لكننا لا نتحرك قيد أنملة. ربما لأننا جميعاً مذعورون. فجأةً دب الذعر في أوصالنا جميعاً. يضرب ڤينس بقبضته سقف السيارة فوق ڤيك وليني، وليني بفطرته يحني رأسه بسرعة، شاغراً فمه، عيناه تتسعان مثل عيني ضفدع وتتقلبان للوراء. "هيّا بنا، فلنذهب." وڤيك أول من يستجيب لأمر ڤينس ويفتح الباب، وما إن يغادر السيارة يناوله ڤينس معطفه، ثم أفتح أنا الباب لكني أبقى في الداخل أحضن الجرّة إليّ كأنها ثقيلةٌ جداً علي لأحملها. ثم يدور ڤينس عائداً إلى الباب المفتوح لمقعده لينتشل مفاتيح السيارة، ويرمي بمعطفي على مقعده لأتناوله، فأنظر إليه حاملاً جاك، كأنما أقول له، هل تود حمله؟ هل تود؟ لكنه يقول لي: "دعه معك راي." كأنما تذكر أنه سبق وحمله ونثر من رماده، شذراتٍ من جاك فقدناها في الطريق إلى هنا. "تمسك به." ما يعني أن المهمّة أُوكلت إليّ الآن. ثم يقول، "لا أظننا سنحتاج إلى الكيس، أليس كذلك؟" لذا أتناول الجرة من داخل الكيس وأرمي به عند قدمي. «جاك آرثر دودز.» بدأت

---

(69) (رصيف جسر البرج - Tower Millennium): رصيفٌ على نهر التايمز في لندن ويقع قرب جسر البرج (Tower Bridge) ومجاور تماماً لبرج لندن (London Tower). م..

السماء تبصق بقوةٍ أكبر. فأتناول معطفي وأغادر بينما ليني يفتح بابه ويغادر. يناوله ڤينس معطفه ويغلق الباب ويقفل السيارة. وها نحن جميعاً نقف في مواجهة الريح وجلبة البحر، نحاول يائسين ارتداء قبّعاتنا وقفّازاتنا. وأنا بالذات أعاني الصعوبة الأكبر، أوازن بين التشبث بجاك وارتدائي القبّعة، لكني لن أقبل أبداً بوضعه على الإسفلت. أرى الجرّة تبتل وأشعر بها تنزلق. ماذا لو أوقعتها؟ فها هو ڤينس لا يرتدي قبعة، وشعره المصفوف للوراء يتطاير في كل اتجاه. لكني أصر على ارتداء قبعتي وما إن أضعها أتساءل إن كنت فعلاً بحاجةٍ إليها.

"هلم بنا، هلم بنا فلنذهب." نتبع ڤينس وفجأةً لا يبدو لي متناقضاً خط سير رحلتنا، تباطؤنا طوال اليوم على الطريق فقط لنستعجل خطواتنا الأخيرة لدى وصولنا غايتنا. حين تخيلتها سابقاً، تصورت تنفيذها على مهل، بوقارٍ واحتفاء، حيث يشاركنا ڤيك بضعة نصائح قبيل التنفيذ، يتصرف معنا برزانة مثل جنرال بدلاً عن اندفاعه وتخبطه وعجلته. أنا متأكد لو أننا وصلنا باكراً، إن أمكننا الوصول باكراً، لكانت الأجواء ما تزال هادئة، المكان فسيح والشمس مشرقة والوقت متاحٌ بكل ثوانيه. لكني أظن الطقس على ما هو عليه الآن هو الطقس المناسب لدفعنا نحو تنفيذ مهمتنا. كأني أرى الطبيعة لا تقف ضدنا بل خلفنا تدفع بنا إلى الأمام. كأننا قضينا اليوم بأكمله نترنح ونرتجف في سيرنا نحو الحافة وما عاد من وقتٍ للتسكع، لا وقت للتردد بعد الآن. فها هي السماء على وشك فتح أبوابها لنا.

الرصيف البحري أوسع مما بدا عليه من بعيد، عرضه بعرض الطريق، ما يعني أن رذاذ الأمواج قد لا ينقعنا بالكامل. وهناك على الجانب المواجه للبحر، الجانب الذي لافترضت مخطئاً أنه سيتضرر أكثر لدى هبوب العاصفة، ستجد مساراً مرتفعاً على مدى الطريق أمامنا، أعلى بعدة أقدام فقط، كأنه حاجز دفاعي، لكن لن تجد فيه سوى بقايا سياجٍ قديم وأعمدة إنارة مبتورة ومنبعجة، كأنك لو عدت بالزمن إلى الوراء لاستمتعت بنزهةٍ مرحة بالأعلى هناك، طبعاً إن لم تطيرك الرياح أولاً. لكن المكان مغلق والدرجات المؤدية إليه متفتتة، أما أسفلها على المسار الرئيسي حيث نمشي، فهناك لوحة معلقة مكتوبٌ عليها (الأرض ملكية خاصة – خطر التعدي يقع

على مسؤوليتك الشخصية)، وها هو عذرٌ آخر لنستسلم ونعود من حيث جئنا. لا جاك، لم نمض قدماً في تنفيذ المهمة لأننا كنا سنتعدى على ملكية خاصة. لكن من سيردعنا إن فعلنا، وفي يومٍ كهذا؟ فلا أحد في الجوار. حتى وإن وجدنا أحدهم فلنا ظروفنا الخاصة، طلبنا الخاص، مهمتنا الخاصة. لسعة سوطٍ أخرى تدفعنا للمضي نحو الأمام.

الرصيف عريضٌ وصلب، وكم أنا سعيد أنه ليس بالرصيف الشاطئي حيث أمواج البحر كانت ستتخبط بنا من الأسفل. لكن حتى الرصيف البحري ليس بأفضل حالاته، فالطريق مليءٌ بالحفر ومرقع وغير مستوٍ، والسير عليه ليس بالأمر السهل حتى لو كان الطقس ممتازاً. وفي جهة السور الداخلي للمسار المرتفع ترى خلجانًا صغيرة ضيقة محشوة بالركام والعلب الصدئة والقمامة، وعلى مسافةٍ أبعد حيث المسار المرتفع يعلو أكثر، سترى مخازن وأكواخ ملاصقة له، والرب وحده يعلم ما الذي يخزنونه داخلها، الطلاء يتقشر عنها ويبهت ومنجور الخشب أسفلها رمادي ومترقق.

الرصيف يبدو مكبًّا للنفايات، هذا ما يبدو عليه.

لم يتبق أمامنا إلا ما يقارب مئتي ياردة، مئتين وخمسين، لكن جاك قال على الحافة، حددها بالحافة. فنتابع المسير متباعدين كأن الطقس هو من يجبرنا على المضي منفصلين بالإكراه لا بالخيار، كل واحدٍ منا يقاتل في معركته الصغيرة ضد الطبيعة. وحتى نتحاشى السقوط في البحر أو التعرّض لرذاذ أمواجه نلتزم السير على الجهة اليمنى من الرصيف، لكن من حينٍ لآخر وابلٌ من الرذاذ تدفعه الريح باتجاهنا، قطرات ماءٍ تلسع وجوهنا، والموج الكبير، هبة البحر لنا، يضرب على الرصيف فتسمع صوت الحصى يقذف بقوة. وأمامنا، داخل منحنى الرصيف، ترى الأمواج مقطعة ومشرحة على هيئة قمم، كأن كل موجة منها حيوان مسعور يحاول العدو بسرعة نحو السطح المستو، ومتى ما أدركت عجزها تجلد البحر بذيلها. لا أحد منا يقول شيئاً، وليس بوسعنا قول أي شيء ونحن منفصلون هكذا عن بعضنا، لكن على أي حال ما كنت لأنطق بكلمة، فشيءٌ ما أخذ يتضخم داخلي، في صدري، حيث

أحضن جاك تحت معطفي، كأنّ أمواجاً هائجة أخذت تضرب جدار مرفأي.

لم أتوقع حدوثه، ولم أكن أنتظر حدوثه، لكن كأن جزءاً مني أخذ يتولى السيطرة علي، يقول لي ما عليّ فعله، يوضح لي كيف أتصرف.

ڤينس يسير أمامنا، يسبقنا متعمداً بأربع ياردات لا أكثر، يدٌ أقحمها في جيب معطفه والأخرى يشد فيها ياقته على حلقه. وما تزال لطخات الطين من أرض (كِنْت) عالقة على بنطاله. وها هو ڤيك يلحق بڤينس لكن يتجه يساراً كأنه لا يمانع التعرض لرذاذ أكثر، رأسه مرفوعة وعلى وجهه ارتسم خط يوشك أن يكتمل لابتسامة. وليني خلفي في مكانٍ ما، أو هذا ما آمله. عليّ الالتفاف للوراء ومدّ يد العون له، عليّ إمساكه من ذراعه وسحبه نحوي، وهو ما سيصعب عليّ فعله مع وجود جاك أسفل ذراعي الأخرى. لكن ڤينس هو من يستدير فجأة للاطمئنان علينا نحن المبعثرون خلفه، وبينما أسير قدماً، ذراع ڤينس هي التي أمسك بها دون أن يساورني القلق على جاك، فذراعي الأخرى والشعور الذي يغمر صدري سيتوليان الاعتناء به. أمسك بذراعه وأشد عليها ساحباً اياه اتجاهي، وما إن أدنو اتجاهه أقول له: " ألفُكَ معي، سأعيد الألفَ لك، سأشرح لاحقاً ما حدث." وكم سعدت لحظتها بكل الضجيج والجلبة من حولنا حتى لا نضطر للدخول في نقاشٍ طويل، ومع كل الرذاذ المتطاير سيعجز ڤينس عن قراءة ملامح وجهي. لكن النظرة على وجه ڤينس قرأتها أنا بكل بساطة ووضوح، كانت ملامح ارتياح، كأن النور غمر وجهه. كأنما بمقدوره الانتظار لسماع الحكاية بأكملها لكنه سعيد بالتخلص من إزعاجها الملح وسيتسنى له إيلاء المهمة بين أيدينا كامل اهتمامه. كلانا يلتفت للوراء نحو ليني ونراه يسير محدودب الظهر، يعرج ووجهه متقد، يصارع للوصول نحونا. أخيراً يصل ويسير جانبنا قائلاً: "أظن آمي أخذت القرار الصحيح."

نسير قدماً، كل واحد منّا يعود إلى مساره المنفصل، ڤيك هو من يتقدمنا الآن ببضعة ياردات، وأظن ڤيك هو من سيربح السباق، ڤيكتور المنتصر. وبينما نقترب من الحافة كأن بالمطر يقرر أخيراً أن الوقت قد حان للهطول. لا شيء يتغير في السماء عدا هطول المطر بجدية. يهطل بغزارة جارفاً الريح كأنه غير راضٍ بالأداء

السيء للرذاذ في تبليلنا، لذا في ثوانٍ يغرقنا ويسيل من أنوفنا وذقوننا لكني لا أكترث. فالريح إما تجرف شيئاً من المطر معها أو المطر يخفف من هيجانها، فمع هطول المطر كل شيء يضحو أخف وأنعم وأكثر أماناً، فنحن في قلب العاصفة وما عادت الطبيعة تملك شيئاً آخر ترمينا به. الضوء معتمٌ ورقيق عبر الجون، كأنما لفافات من ستائر القماش المخرم تبرم حول نفسها في دوامات، والأمواج ما عادت تبدو هائجة، وربما ڤيك كان مخطئاً منذ البداية، هي ليست بعاصفة كما قال بل مطرٌ عابر، لأنك إن رفعت عينيك نحو الأفق البعيد في السماء أعلى اليابسة فسترى بصيصاً باهتاً من نور. نحن من نختار لحظاتنا.

لم يتبق لنا كثير حتى نصل. ولا أدري إن قلتها في عقلي أو صرختها لكني أقول: "لم يتبق إلا القليل جاك." أحضنه إليّ تحت معطفي المبلل، "تقريباً وصلنا." وها نحن وصلنا، انعطفنا ووصلنا نهاية منحنى الرصيف البحري، نهاية الذراع الحامية، ولك أن تتأمل وسط (مارغايت) عبر الضباب، كأننا نقف على شاطئٍ مقابل، على أرضٍ أخرى. لك أن ترى الشاطئ الساحلي ورتل صالات الألعاب والمحلات التي مررنا بها بأضوائها البراقة، كأنها مجسم مدينة صغيرة تلوّح اتجاهنا، تحاول أن تقول لنا، ها نحن هنا. ومن خلفها، قبالة الطوق الباهت في السماء، لك أن ترى محيط الدولاب الكبير وطائر الغطاس ولك أن تتخيل أيضاً أن هناك مجموعة حمقى يلهون الآن، في المقاعد المتأرجحة والعربات المقعقعة، يصرخون ويزعقون في الريح والمطر كأنهم أكثر جنوناً منا.

يصل ڤيك الحافة، ويقف هناك وهلة يتأمل المكان. ربانٌ في منصته. وأعلاه على المسار المرتفع منور المرفأ يضيء من أعلى برج، كأنها منارة منمنمة، لكن حيث يقف لا نرى سوى رصيف صخري ومنحدر. يبدأ يذرع المكان بخطىً موزونة في انتظار وصولنا جميعاً عنده. خيراً فعل ڤيك بوصوله أولاً حتى يتفحص درجة الانحدار، يتأكد من التسهيلات، فلن ينفعنا إن لم يتأكد بنفسه أن الوضع مثالي. نصل إليه فيستدير وينظر نحونا، ونراه واقفاً بكامل أبهته واتزانه، وكأن الريح قررت أن تنعطف من حوله وتتحاشاه حتى يمنحنا تلك الابتسامة المثالية الجاهزة لديه

دوماً. عيناه علي أنا بالذات.

يقول لنا: "ها نحن هنا." لكني لا أرى شيئاً هنا سوى ألواح صخرية ملقاة مثل الأعلام، ألواح مجوفة ومبثورة ومحفورة وموبوءة بالبريكات المتجمعة فيها، وإلى جانبها متراس منخفض من الغرانيت يبدو مثل حاجزٍ نصف منهار على حافة الطريق، والريح والمطر والرذاذ. من جهة الأمواج تقرع وتصفع، ومن الجهة الأخرى تنقنق وتقرقر كأنها تحاول الاعتذار. من جهة هناك (مارغايت) وأرض الأحلام، ومن الجهة الأخرى لا شيء سوى البحر الشاسع. عدا أن البحر الشاسع ليس وحده من نراه، فمن حيث نقف لنا أن نرنو ببصرنا اتجاه نهاية المسار المرتفع وهناك نراه: كتلة صدئة من المشغول الحديدي ناتئة من تحت الماء على بعد ثلاثمائة ياردة، الأمواج تتدفق من حوله كأنه بقايا جسرٍ منهار.

يصيح ڤينس: "الرصيف الشاطئي." يصيح بأعلى صوته في الريح، "ذاك هو الرصيف الشاطئي، الجزء الذي لم تجرفه العاصفة أبداً."

وأسمع ليني يقول متهكماً كعادته: "لعلّها اليوم ستجرفه."

نقف على الحافة وأنا من يحمل جاك، وأظنك الآن بت تعرف ما الذي سنقوم به هنا. ظننتنا سنأخذ لحظة، لحظة تستجمع فيها أفكارك الأخيرة، وربما سيود أحدهم إلقاء بعض الكلمات ويعطينا إشارة البدء. التردّد ذاته الذي يصيبك متى ما جلست على مائدة محاطة بالأغراب وتتلفت يميناً ويساراً لأنك لست بواثق إن كانوا من النوعية التي تتلو الصلاة. لكني لا أتردد. أُخرج الجرة من تحت معطفي، جاك آرثر دودز، ولا أقول شيئاً، بل أحمله على ذراعي وكأنه طفل رضيع، أفك السدادة، فما عاد لنا من خيار آخر، وبينما أفكها يخفّ المطر، وكأن فجوةً انقشعت في السماء كي يتسنّى لنا نثر رماد رجل، وتلك الإشارة تكفيني. لقد وصلنا النهاية. سألتها، "وما الذي فعله في النهاية؟" فأجابتني آمي، "كان راقداً على السرير يستمع للمذياع، وكما قالت لي الممرضة، رفع سمّاعة الأذن بلطف وعلى مهل ثم قال، «حسنٌ إذًا، كل شيء سيكون على ما يرام.» تركته وهلة، وما إن عادت إليه حتى كان قد مات." أفك السدادة وأدسها في جيبي، ثم أرفع الجرة عالياً وأدير ظهري للريح قائلاً: "تعالوا

هنا." كأني أحمل علبة حلويات أو أوزع مِنَح الغذاء. التزموا الحذر الآن، كلٌّ في دوره، لا يوجد متّسع سوى ليدٍ واحدة كلّ مرّة. ليني يغمس يده أولاً ويأخذ ملء قبضته، نثرات منه تنخلُّ من بين أصابعه، ويقول فيك بينما يمسح يديه بمنديله، "حاولوا الإبقاء على أيديكم جافة قدر المستطاع." ولحظتها أدرك ما يعنيه. حتى لا يعلق جاك بنا، حتى لا نعوق جاك بأيدينا. لكني لا أملك منديلاً، لم يخطر على بالي. اليوم من بين كل الأيام، لم يخطر على بالي أبداً إحضار منديلٍ معي. يغمس فيك يده ويغرف. ثم يأتي فينس ويرفع كم قميصه لكنه يتردد كأنما يود القول، «من بعدك رايزي،» لأنه سبق وحظي بدوره، سبق وغمس يده في الجرة، أو ربما أرادني أن أغرف أولاً. لكني أرى أن الأمر لن يكون باليسير عليّ طالما أحمل الجرة الرطبة، لذا أقول له: "هيا فينسي، هيا." يغمس يده ويغرف وجميعهم يتحركون الآن اتجاه حافة المتراس المحجوبة عن الريح، رافعين بإحكام أيديهم مكوّبةً للأعلى كأنّ كل واحد منهم يمسك بعصفور صغير في يده وعلى وشك إطلاق سراحه، وعلينا جميعاً أن نقوم بهذا في الوقت ذاته، لذا جميعهم يقفون في انتظاري. ويمنحنا فيك نصيحته المهنية: "ما كنت لأقف قريباً جداً من الحافة، دعوا الريح تأخذها، الريح ستحملها." يقولها وكأنما نحن مجموعة سذّج. لا ينقصنا سوى توزيعه ستر نجاة علينا. وأدرك أن عليّ النثر بسرعة، كما لو كنت أنثر بذوراً، عدا أن إحدى يدي هي الشاغرة، لذا أتحرك اتجاه المتراس وأقف في زاوية تُبعد الجرة عن مجرى الريح، أغمس وأتناول ملء يدي، أملؤها لآخرها. الرماد ناعم ومحبّب، ويكاد يكون أبيض، مثل الرمال البيضاء الناعمة على شاطئ البحر. ثم أستل يدي بسرعة وأنثر. لابدّ أنهم جميعاً نثروا معي، لكني لا أنظر اتجاههم، فعيناي على من أنثُر، "وداعاً جاك." أقولها للريح. وأسمعهم يقولونها معي، "وداعاً جاك."

فيك معه حق. الريح ستحملها، بعصفةٍ واحدة، بلمح البصر، تحملها. اللحظة تراها واللحظة التالية ما عدت تراها. أحمل الجرة الآن بكلتا يدي، أسترق نظرة سريعة داخلها وأصيح بهم، "هيا، هيا." كلهم يحتشدون حولي. وأدرك من محتوى الجرة أن كل واحد منا الأربعة سينال فرصتين فقط للنثر. يغمسون أيديهم مرة أخرى،

واحداً تلو الآخر. غموس الحظ. وأنا أغمس وجميعنا ننثر الرماد مرةً أخرى، وكل ما يتبقى منه أمام أعيننا أثر رقيق من البياض، مثل الدخان، قبل أن يتلاشى، ومن حيث لا ندري تنقض علينا النوارس ثم تنحرف عنا ما إن تدرك أنها خُدعت. ثم أرى أن ما تبقى من رماد لا يكفي للمشاركة، لا يكفي لجولة جماعية ثالثة، لذا أغرف ما تبقى بنفسي ولا يبدو أن أحدهم يمانع. أغرف وأغرف مثل حيوانٍ ينبش وجاره بمخالبه، وأدري، بمجرد انتهائنا سأمسك بالجرة وأرمي بها بعنف على الأرض مثلما تفعل حين تغمس يدك في علبة رقائق ذرة ولا تجد شيئاً فيها. حفنة، حفنتان، لم يتبق سوى حفنتين. "وداعاً جاك." السماء والبحر والريح كلها امتزجت بعضها ببعض، لكن ما كان ليصنع فرقاً معي ومع عينيّ الدامعتين إن لم تمتزج. وجها ڤيك وڤينسي يبدوان مثل فقاعتين بيضاوتين، أما ليني فوجهه يبدو مثل شعلة نار، وعبر الماء سترى أضواء (مارغايت). لك أن تقف على نهاية الرصيف البحري لمارغايت وسترى أرض الأحلام ماثلةً أمامك. أنثر الحفنة الأخيرة والنوارس تعود من جديد علّها ليست بخدعة هذه المرة، أرفع الجرة عالياً وأهزها، وأظن عليّ رميها في البحر هي الأخرى، رسالةٌ في زجاجة، جاك آرثر دودز، أنقذ أرواحنا، والرماد الذي حملته في يدي، رماد جاك الذي كان يسير بيننا يوماً، تحمله الريح معها، الريح تعصف بالرماد حتى أضحى الرماد ريحًا، والريح أضحت جاك الذي خُلقنا منه.

دليل إلى تحليل الرواية

1. يعتمد اختيار عنوان الرواية على التلاعب اللفظي: فمن جهة يشير إلى نداء الساقي في الحانة بأزوف جولة الطلب الأخير للشراب، ومن جهة أخرى يشير إلى الطلب الأخير لجاك فيما يخص نثر رماده. لماذا اختار سويفت أن يخلق هذا الرابط بين دنوّ نهاية الليل في الحانة، ودنوّ نهاية الحياة؟

2. تعتمد رواية "الطلب الأخير" بناءً سرديًّا غير معتاد: كل قسم هو مونولوج تتحدث فيه إحدى الشخصيات للقارئ عن أحداثٍ مرت بها في الماضي والحاضر. لا وجود لراوٍ عالمٍ بكل شيء، أو راوٍ يمثل الكاتب، أو راوٍ يعرف أكثر مما تعرفه أي من الشخصيات الأخرى. فما الأثر الذي يخلقه بناء سرديّ كهذا على تجربتك في القراءة؟ ما الذي سيحدث لتوقعك الطبيعي بأن تكون – بصفتك قارئاً – عالماً بكل ما يجري من أحداث ومطّلعاً بالكامل على خلفيّة الشخصيّات من موقعك خارج فلك الرواية؟ كيف يتسنى لك كقارئ جمع الخيوط من مختلف المونولوجات ورسم الصورة كاملةً؟

3. إلى جانب الرواة الرئيسيين المنخرطين في أحداث الرحلة، نجد ثلاثة رواة ثانويين: آمي أرملة جاك، وماندي زوجة ڤينس، وجاك نفسه. ما هو الأثر الذي تركه إضافة هؤلاء الرّواة الثلاثة على بناء أحداث الرواية؟ هل كان من الضروري وجودهم، وإن كان ضرورياً، فلماذا؟

4. نظراً إلى أن وجهة النّظر في السّرد تتبدل بين شخصية وأخرى، وبالضرورة فهي متحيّزة لصاحبها، كيف منح سويفت شخصية راي مكانةً مختلفة عن بقية الرّواة؟ وهل تلك المكانة جعلتك كقارئ أكثر تعاطفاً ومتفهّمًا لتجربة راي من تفهّمك لتجارب بقية الشخصيات؟

5. ما العلاقة بين مِهَن الشخصيّات والمِهَن البديلة التي تمنّوها لكن لم يحظوا بها؟ ما التأثير العميق لسؤال "ما الذي كان ليحدُث لو..." على حياة كل شخصية في الرواية، ومن ضمنها الشخصيات النسائية؟

6. يحتلّ توارث مهنة العائلة أهمية كُبرى لدى جاك: فهو بدوره واصل خُطى أبيه في مهنة الجزارة، لكن ڤينس، ابنه المتبنّى، يرفض العمل معه في دكّان "دودز وابنه: ملحمة عائليّة". لِمَ اعتبرَ جاك انضمام ابنه إليه أمرًا ضروريًّا، ولِمَ كان ضروريًّا لڤينس مقاومة رغبة أبيه؟ وما هي الأسباب الأخرى وراء الخلاف القائم بين جاك وڤينس وصعوبة التفاهم بينهما؟

7. كلٌّ من جاك، وليني، وراي وڤينس رُزق بابنة وحيدة. ابنة جاك، جوون، تم إيداعها دار الرعاية في سن مبكرة ولم يزرها قط. ابنة راي تعيش في أستراليا ولم يسمع خبرًا عنها لأعوام. ابنة ليني، سالي، امتهنت الدعارة ومتزوّجة من محكوم في السجن. ڤينس استغلّ ابنته ودفع بها إلى علاقة جنسية مع ثريّ عربيّ مقابل الاستفادة من أمواله. لِمَ فشل هؤلاء الرجال بصورة كارثية في علاقاتهم مع بناتهم؟ وهل تظنّ أنهم لو رُزقوا بأبناء لأصبحوا آباءً أفضل؟

8. الصداقة التي جمعت جاك براي نشأت في شمال أفريقيا إبان الحرب العالمية الثانية. ليني أيضاً خدم في الجيش هناك وما زال يدعو نفسه بلقب "المدفعيّ تايت". ڤيك خدم في البحرية، والرحلة إلى (مارغايت) ستتضمن زيارة إلى النصب البحري في (تشاثام). هل تجربتهم المشتركة التي عاشوها في الحرب هي الدافع، إلى حدٍ ما، وراء صداقتهم؟ كيف لذكرى الحرب أن شكلت منظورَ كلّ واحد منهم عن نفسه؟ وهل معاصرتهم للحرب خلقت حاجزاً بينهم وبين جيل أبنائهم؟

9. إن افترضنا أن ليني وڤينس هما الشخصيتان الأكثر تعاسةً في الرواية، فما السبب الذي تراه وراء تعاستهما؟ كيف لشعورهما بالتعاسة أن تحوّل إلى غضبٍ وعنف؟ وما التأثير الذي تركه العراك الجسدي بينهما: هزلي، مضحك، أو مبعَث ارتياح؟ وهل غيّر العراك بينهما شيئاً؟

10. كيف لمهنة ڤيك أن شكّلت شخصيته؟ وبم يختلف ڤيك عن بقية الشخصيات؟

11. لنا أن نعتبر أسماء المناطق والأماكن التي تعنونت بها بعض المونولوجات خطًّا منقّطًا على خارطة إنجلترا: فتلك العناوين تسجّل تقدم الأصدقاء في رحلتهم إلى شاطئ (مارغايت). حقيقة وقوفهم لدى كاتدرائية (كانتربري) تعيدنا إلى (حكايات كانتربري) لتشوسر، فتلك الحكايات تعتمد أيضاً إلقاء الحُجّاج لقصَصِهم وذكرياتهم بينما يرتحلون على الطريق إلى كاتدرائية (كانتربري). فما هي العناصر المشتركة بين الرحلة في رواية "الطلب الأخير" ورحلة الحجّ تلك؟ وما هي لحظات التجلّي والتنوير التي عاشتها الشخصيات أثناء الرحلة؟

12. في المشهد الافتتاحي للرواية، يقارن راي حانة (العربة) بالكنيسة، مع قواريرها المصفوفة على نضد المشرَب وكأنها أنابيب الأورغن الكنسي. لاحقاً، تجد الشخصيات نفسها في كاتدرائية (كانتربري). فما هي الروابط في الرواية، إن وجدت، بين الكاتدرائية والحانة؟ ما المزاج العام أو التجليات التي يلهمها أو يثيرها كل مكانٍ منهما؟ كيف تدفعنا الرواية إلى تأمل العلاقة بين الدنيوي والروحاني؟

13. لِمَ قرّر غراهام سويفت وضع دكّان جاك للجزارة مباشرةً مقابل دار ڤيك للخدمات الجنائزية، وكأن كل دكان منهما مرآةٌ للآخر؟ كيف تقاطعت صور اللحم، الجثث، والرماد في بناء معنى الرواية؟

14. جاك حاضرٌ بجسده في الرحلة، حرفيًّا، وذلك على هيئة الرماد في الجرة التي يحملها أصدقاؤه لاصطحابه إلى مثواه الأخير على شاطئ البحر. كيف لوجود جاك بهذه الهيئة أن خلق حسًّا فكاهيًّا في الرواية؟ أضفى حسًّا من الرقّة والحنان؟ كيف تكشف لنا الشخصيات في تعاملها مع الجرة قوّة الصداقة الحقيقية؟

15. لماذا يقرر ڤينس، وخلافاً لرغبة الآخرين، أن ينثر شذرات من رماد جاك أعلى التل المطل على مزرعة (وِك)؟ ما الخصوصية التي يحملها هذا المكان بالذات في قلب ڤينس ما جعل من تصرفه ضروريًّا وملائمًا؟

16. تأمّل تعامل سويفت مع عنصر الزمن في الرواية. في أيّ عام تقريبًا تقع أحداث الرواية في "الحاضر"؟ كم من الوقت مضى على العلاقة بين آمي وراي؟ وما هي الأمثلة الأخرى على الأحداث التي تساعد القارئ على إدراك الزمن الذي مضى من حياة تلك الشخصيات؟ مع نهاية الرواية، هل ستتمكن من وضع كل الأحداث التي وقعت فيها بتسلسلها الصّحيح على خط زمنيّ مستقيم؟

17. البناء السردي الذي اعتمده سويفت يُلقي الضوء على معضلة المعرفة الجزئيّة: كقُرّاء، نكتشف تدريجيًّا، ومن أحداث مجتزأة، المعلومات التي نحتاجها لفهم الشخصيات ودوافعها وماضيها. فالبناء السردي لا يمنحنا كقُرّاء البصيرة لمعرفة كامل الحدث على خلاف الشخصيات، بل نجد أنفسنا في مكان الشخصيات ونشعر بعجزها هي الأخرى عن معرفة كل ما يرتبط بحياتها. وينتاب القارئ هذا الشعور أيضاً نتيجة كتم معلوماتٍ جوهريّة عنه. فأي الشخصيات كتمت معلوماتٍ مهمة عن الآخرين، ولماذا؟ وكيف تلعب مسألة المعرفة الجزئية – الناتجة عن كتم الأسرار وإلقاء الأكاذيب – دوراً محوريًّا في إيصال المعنى الحقيقي وراء أحداث الرواية؟

18. إلى أي درجة نجحت العلاقات الزوجيّة والغراميّة في الرواية؟ ما هي حدود العلاقة بين الرجل والمرأة وقُدرة كل منهما على فهم الآخر؟ هل الحبّ هنا فرصةٌ ثانية للتحرّر من الماضي، أم مجرد سوء فهم مؤلم، محاولةٌ خرقاء لتصحيح الأمور؟ هل نتمنى عودة آمي وراي إلى علاقتهما الغرامية من جديد، مع رحيل جاك وقرار آمي التوقف عن زيارة جوون؟

19. أصدقاء راي يعتمدون على حظّه – أو مهارته – في الرّهان على الحصان الرابح متى ما احتاج أحدهم إلى سيولة، عادةً بسبب أزمة كبيرة عصفت بحياتهم. فما الدور الكبير الذي يلعبه الحظ حقاً في تلك اللحظات؟ ما الذي يعنيه "أن تكون محظوظاً" في هذه الرواية؟

20. في رواية يعتمد السرد فيها على مَنْح الشخصيّة دورها كاملاً في الحديث دون مقاطعة من الراوي، يضحو تشكيل الأصوات الفردية لكل منها تحدياً حاسماً في نجاح السرد. كيف تمكنت من تمييز أصوات الشخصيات بعضها عن بعض؟ إلى أيّ درجة نجح سويفت في التمييز بين أصوات الرّواة؟ وما الدور المحوري الذي لعبه اعتماد سويفت اللهجة العاميّة البريطانية في إضفاء الحسّ الواقعي على أحداث الرواية وشخصياتها؟

21. تأمّل العبارة المقتبسة الأولى (لصاحبها سير توماس براون من القرن السابع عشر) والتي اختارها سويفت ليستهل بها روايته: "وما الإنسان إلا حيوانٌ نبيل، عظيم في رماد فنائه، مختالٌ متأبّه في قبره." هل وَقْع العبارة لدى قراءتك لها جدّيّ أم ساخر؟ وما الذي تدل عليه ردّة فعلك للعبارة على مُجمل تفاعلك مع أحداث وتفاصيل الرواية، من أتفه الأمور إلى أعمق المعاني؟

غراهام سويفت

ولد غراهام سويفت جنوب لندن، في منطقة لا تبعد كثيراً عن (بيرموندزي) حيث تقطن شخصيات رواية "الطلب الأخير". عمل والده موظفاً حكومياً، وخدم كطيارٍ حربي لدى البحرية الملكية البريطانية إبان الحرب العالمية الثانية، أما والدته فقد شهدت قصف لندن ونجت منه. ورغم أنه ولد عام 1949، فمعظم روايات سويفت تتناول أحداث الحرب العالمية الثانية بطريقةٍ أو بأخرى، مع تركيزه بصورةٍ أكبر على مفهوم التاريخ، واستكشافه لما يعنيه التاريخ حقاً وما تأثيره على الأفراد الذين عاشوا أحداثه. بدأ الكتابة في سنوات مراهقته، تخرج من جامعة (كامبريدج) ودرّس الأدب الإنجليزي في عدة كليات إلى أن تفرغ تماماً للكتابة عام 1983. نالت رواياته العديد من الجوائز الأدبية المرموقة وتم ترجمتها إلى العديد من اللغات. وقد نالت روايته (الطلب الأخير– Last Orders) جائزة البوكر البريطانية عام 1996، وفي عام 2001 تم تحويلها إلى فيلم سينمائي من بطولة مايكل كين وهيلين ميرين. ومن باب شغفه بصيد السمك, فقد شارك في إعداد انثولوجيا عن المقتطفات الأدبية التي تناولت صيد السمك في الأدب الإنجليزي. ويقطن سويفت حالياً في لندن.

إيمان أسعد

روائية أردنية مقيمة في الكويت، صدر لها رواية "زينب والخيط الذهبي" عن الدار العربية للعلوم ناشرون عام 2014. حاصلة على شهادة الماجستير في الدراسات الأمريكية من الجامعة الأردنية عام 2005، وعلى شهادة البكالوريوس في تخصّصي علم الحاسب الآلي والأدب الإنجليزي من جامعة الكويت عام 2003.

«الطّلب الأخير» هي قصّة أربعة رجال مقرّبين من صديقهم جاك، الجزّار اللندنيّ الذي توفّي مؤخّرًا، يجتمعون لتحقيق أمنيته الأخيرة: أن يُنثر رماده في البحر. الرّجال الذين تتمحور حيواتهم حول العمل والعائلة وسباقات الخيول، والمشرَب الصّغير الذي يجتمعون فيه دومًا سنوات طويلة، لابدّ أن يقطعوا الطّريق معًا إلى بلدةٍ ساحليّة لندنيّة بعيدة لإنجاز المهمّة.

خلقَ سويفت، من خلال منح كل شخصيّة الفرصة لتتحدث عن نفسها بطريقتها وأسلوبها، تنوّعًا مميّزًا من الأصوات والتفاصيل غير المكتملة أبدًا وزوايا النظر إلى الأحداث. يكتب سويفت سرديّة تكشف بدقّة لا عن الارتياح للعادات العتيقة والأصدقاء القدامى عند كبار السّن، بل وتعقيد التقدّم في العمر، وشجاعة خوض الحياة اليوميّة، ومحاولاتهم الدائمة للعثور على مبرّر لخوضهم كل التلك السنوات الماضية دون أن يُنجزوا، وقد اقترب الموت، ما كانوا يأملون.

ولد غراهام سويفت جنوب لندن، في منطقة لا تبعد كثيراً عن (بيرموندزي) حيث تقطن شخصيات رواية «الطلب الأخير». عمل والده موظفاً حكومياً، وخدم كطيارٍ حربي لدى البحرية الملكية البريطانية إبان الحرب العالمية الثانية، أما والدته فقد شهدت قصف لندن ونجت منه. ورغم أنه ولد عام 1949، فمعظم روايات سويفت تتناول أحداث الحرب العالمية الثانية بطريقةٍ أو بأخرى، مع تركيزه بصورةٍ أكبر على مفهوم التاريخ، واستكشافه لما يعنيه التاريخ حقاً وما تأثيره على الأفراد الذين عاشوا أحداثه. بدأ الكتابة في سنوات مراهقته، تخرج من جامعة (كامبريدج) ودرّس الأدب الإنجليزي في عدة كليات إلى أن تفرغ تماماً للكتابة عام 1983. نالت رواياته العديد من الجوائز الأدبية المرموقة وتم ترجمتها إلى العديد من اللغات. وقد نالت روايته (الطلب الأخير - Last Orders) جائزة البوكر البريطانية عام 1996 ، وفي عام 2001 تم تحويلها إلى فيلم سينمائي من بطولة مايكل كين وهيلين ميرين. ومن باب شغفه بصيد السمك، فقد شارك في إعداد انثولوجيا عن المقتطفات الأدبية التي تناولت صيد السمك في الأدب الإنجليزي. ويقطن سويفت حالياً في لندن.

الطلب الأخير

عبر المحادثات والمونولوجات والذكريات، وبينما تستقلّ المرسيدس ذات اللون الأزرق الملكيّ نحو البحر، ترسم كل شخصيّة طُرُقَ حياتها التي سلكتها لتصل إلى هنا، الطُّرُق التي شقّتها باختيارها حينًا وبالحظّ والقدر أحيانًا أخرى: عبر الحرب العالمية الثانية وتبعاتها، ودراما الحياة العائلية، وعلاقات بعضها ببعض، بينما جاك ينتقل بين أحضان راكبي السيّارة، رمادًا في جرّة.

الرواية الفائزة بجائزة المان بوكر 1996

نهائيّات جائزة IMPAC Dublin Literary 1998

«رواية غير مسبوقة، معقّدة وتتكوّن من طبقات عدّة ما جعلها تنبض بالحياة وخُسران الحُبّ واكتسابه...»

The Globe and Mail

«سويفت، دون شك، أحد ألمع كُتّاب إنجلترا الأحياء... إنّ السّرد الذي يكتبه مؤثّرٌ بشكل تراكميّ، هادئ...»

The New York Review of Books

Cover by: Neil Lang

ISBN 9789948101031
9 789948 101031

روايات
REWAYAT